

أدهم العبودى
متاهة الأولياء
رواية

متاهة الأولياء

رواية

إهداء:

إلى ابتسامة تخطفني
وتغادر بروحي حدود الكون

ابتسامة طفل صغير جميل

ابتسامة أجمل من كلّ سعادة عشتها

ففيها سعادة الدنيا وفيها..

حياة قلبي؛

ضحكة محمود

ابني الغالي

آه لو تعرف أيّها المهووس بك

كم أحبّك.

والذين يوقنون أنّ البذرة التي
غرسوها في الهباءِ سوف تذكو
وتتشكّل في أوانها المقسوم.

(أوريانا فالاتشي)

اللهم صَلِّ على روحِ السرّ،
الكائن بسرّ الروحِ، روح
الطالب، ومحل طلب أرباب
المطالب، راءِ رحمتك المبرقع
بسرّ قولك (إنّا كفيناك
المستهزئين).

صوت

أرضنا البكر تحرسها قامات من نخيل دُجّج بالسعف والصلابة، تنفرج في منتصفه عن مجرى من الماء قد يُشبه الترعة، غير أنّ مياهه واهنة السير وعمقه لا يكاد يبلغ صدورنا ونحن نخلع جلابيبنا ونطويها بين أيادينا، نرفعها لأعلى حتّى لا يمسسها ماء المجرى، الذي يتسلّل إلى ما تحت سراويلنا فنشعر بدغدغة مستحبّة، ونعبر بعيداً عن أعين الأهل لناحية الإسفلت.

كان الإسفلت من ناحيةِ طريقٍ شرقي، صحراوي للسيارات، طريق سريع، يحزِم خصر الشارع الممتدّ حتّى بندر الأقصر، وفي الناحية الأخرى تقع البيوت الطينية المختبئة وراء جنود النخيل؛ بيوت تتشابه ولون الطين المخلّل بالقش، تتشابه وبناؤها المتواضع، فالبيت يتوارى داخل حقل غالباً ما يُلقّح ببذور ذرة، تتمطّى وتفرش المدى المحيط بالعيدان الخضراء، ونوافذ من جهاته الأربع تطلّ على بقية البيوت، لا تنفتح إلاّ على النخيل الذي يطوّقها، وفيما بين أقرب نخلتين لضفّتي المجرى، رُبط حبل جُدل من ألياف النخل البنية الخشنة، يتدلّى منه حبل أقلّ سُمكاً وخشونة، يُحكم به تشبث سُنبك شبه مستدير من حديد كهل، ننتقل به إلى حيث المدنية والعمار، يضمنا داخله كما يفعل طست الاستحمام، قاعه صدئ، دوماً "يخروّش"، فنكاد نشعر أنّ الماء قد نفذ إليه وأنّه عمّا قريب سيبلغ سن التقاعد، لكنّه –رغم ذلك– ظلّ طويلاً يؤدى مهمته بكلّ إخلاص إلى أن هجره الناس فيما بعد وأصبح تنقّلهم عن طريق الكوبري الجديد الذي أقامته الحكومة. سُنبك كنّا نقف في منتصفه

ونجذب حبل الليف ناحيتنا، فيعبر ببطء وتعوّد إلى إحدى الضفتين ذهاباً أو إياباً، وقبيل الضحى ندفس سِن مقدمته –البارز على استحياء– في جوف طين الضفّة الرخو ليغفو، مستيقظاً –كعادته– في الصباح التالي.

وفي الناحية الغربية يقع النيل، ونيل قريتنا عنيف، تجيء مياهه هادئة لكنّها تنكسر حين ينعطف مع استدارة شطّ قريتنا –التي تشبه جزيرة صغيرة مزروعة في قلب النيل– فتهيج وتتراقص داخل مياهه أمواج متباينة ما بين تحدّب وتقعّر، لا تستكين حتّى مع تبدّل مواسم انخفاض وارتفاع منسوب المياه الذي تتحكّم فيه الأمطار الموسمية الصيفية، وكنّا نقف على مقدمة المنحدر المنبثق من صدر القرية لأسفل نحو النيل والمسمّى (الجُرف الكبير)، وهو منخفض تحدّه مجموعة من تلال صخرية متناثرة تطلّ على المياه عند آخر حدود قريتنا الغربية، تنبت في حوافها –التي تتلاقى وأرض الجرف– نباتات الحلفاء صفراء اللون والتي تسكنها الثعابين والسحالي. كنّا نشعل سجائر "السوبر" التي نبتاعها بالواحدة من دكّان الست "أم ميلاد"، نفترش أرض (الجُرف الكبير) وننفخ –في عشوائية صبيانية– دخانها فيتطاير نحو الشمال ونتابعه بأعيننا في انتشاء، كأنّ الغواية المستحبّة من اعتناقنا شرب السجائر تكمن في ارتسام دخانها أشكالاً يتحايل عليها البصر ويراها كلّ واحد كيفما يروقه، كنت أرى الدُخان نبضات من حلم بالرحيل، وهو يباشر طيرانه نحو الشمال في روّية، لم أكن أدري إن كان مشروعاً اقتراف جُرم التوق للرحيل! كذلك لست

أدري إن كنت أنا نفسي طبيعة صالحة لاقتراف مثل هذا الجُرم! كنّا نجلس مفترشين أرض "الجُرف"، نتربّص لألسنة الموج البيضاء القريبة التي تتكالب للوثوب علينا، نتلذّذ بإحساس "طرطشة" المياه على وجوهنا، نداعب الماء كأنّه واحد من أصحابنا، وفيما بين الغشاوة التي يصنعها رزاز الماء، وأشعة الشمس المنعكسة على زجاج أعيننا المغبّر بفعل دُخان السجائر، تلوح القباب، ففي ناحية البلد القبلية، عند آخر حدودها –تتراص جوار بعضها البعض بشيء من الألفة– "قباوي النصارى"، مجموعة من بيوت الدور الواحد يسكنها النصارى، أعلى قبة فيهم هي قبة دير الشهيد "مار جرجس" التي يستقيم فوقها صليب ضخم نحاسي يرعش العيون بتلألئه في تعامد الشمس وسط النهار، ويبدو مهيباً، حين تشعر أنّه يسبح فوق الثلاث هياكل الدائرية التي يتآلف منها كيان الكنيسة؛ هياكل تبدو كمدخل للدير، ينطلق بعدها واسعاً رحباً على مساحة عشرات الأفدنة، كنّا نتأمّل في رهبة الهيكل الأوسط الذي يقوم في منتصف الكنيسة، وهو أعرض من الهيكلين الجانبيين، اللذين يشكلان نصف دائرة، وأمام الهيكل الأوسط، منطقة "الخورس" أو الصف، المغطاة بقبة في منتصفها محمولة فوق "كوابيل"، شمالها وجنوبها أنصاف قباب، كانت منطقة "الخورس" مفصولة على صحن الكنيسة بحائط سميك به فتحة في المنتصف، تصفّر الريح فيها صيفاً شتاءً، وكنّا نحسّ أنّ هياكل "المار جرجس" و"العذراء" و"الملاك ميخائيل"؛ وهي الهياكل الثلاثة التي تقيم البناء، كأنّها ناطقة، حين كنّا نتسلّ إلى هناك مع "ميلاد" في أوقات الحر القائظ الذي تتصّف به قريتنا، وحين

يكون الأب "لوقا" قس الكنيسة غافياً هو وبقية قساوسة الدير وكهنته والشمامسة.

* * *

منتصف نهار الصخب، الشمس واقفة فوق رءوس الناس ورءوس النخيل وتمضي تتزلّج فوق صفحة مياه النيل في استجمام، تنحدر تلهو مع من يلهو في القرية، تقضي بعضاً من الوقت في مشاركة أهل القرية فرحتهم بدنو زفاف "السبع" أكبر أبناء عمدتنا، ثم تنطلق بعيداً لتُبصر من مكمنها النائي الأحداث والتضاريس، ترصد تقلقل القرية وانشغال الجميع في المجاملة والاحتفاء، بحمل "الدِكك"، أو رشّ التراب في ساحة الدوّار بنشارة الخشب المبتلّة، أو تعليق الزينات واللمبات، تُبصر الاستعدادات الحميمة وكذلك تُبصر النوايا. من أول قريتنا لآخرها بدا سقف معلّق من لمبات متعدّدة الألوان جاءت هدية من البندر مجاملة للعمدة، سوف ترعش عيون أهل القرية بحلول المساء، وفي الهواء تتسابق الأعيرة النارية نحو كبد السماء مجاملة كذلك، زفاف "السبع" ابن العمدة أوشك، والقرية لها أيام وأيام على أهبّة الاستعداد، فمنذ زمن لم يدخل الفرح عليها، وكأنّ القرية قبضت على تلك الفرصة السانحة من الغبطة والوئام ولم تكن لتتركها. "السبع" في زهو وفي تباه وفي كثير من الخيلاء يتراقص بفرسه بين المشاهدين، لم يكن أحد يستطيع –ولن يكون– أن يضاهي "السبع" براعة في ركوب الخيل، نشأ منذ صغره على الركوب، يدور بيننا

ضارباً نظراته في أعيننا كما لو يود مطالعة نظرات الإعجاب والانبهار بسيطرته على أداء الفرس، وفرسه تلتزم الطاعة في الأداء، تحمحم قليلاً، ترفع إحدى قائمتيها الأماميتين ثم تتركها معلّقة لبعض الشيء تتأرجح في الجو، فنصفّق، تقلّب تراب ساحة الدوّار المشبّع بنشارة الخشب بحوافرها وهي تتقافز بيننا في رشاقة، يميل بعضنا جانباً خشية بطش الحيوان الذي لا يفرّق بين جسد طري وبين صخرة جامدة، أعين الحريم تتابع الاستعراض من الشرفة، وهنّ يتمايلن وأنصاف وجوههنّ مغطّاة بالطُرح، وركية النار تدوّي "طرقعة" حطبها الذي يتمزّق في جوفها احتراقاً ليبسط دماغ عمدتنا الذي يشرب حجر "المعسل" في أعقاب أخيه، من دون هوادة ولا استراحة، يصيبه سعال معتاد فيبدو سينفجر وجهه من الاحتقان، إنّما سرعان ما يتمالك أنفاسه فتكركر الشيشة ثانية، كان جالساً بجلباب من صوف بنّي اللون ومن تحته "تكشيطة" بيضاء كلون الحليب، وعلى شفتيه ابتسامة تغمر وجهه رسم بعضها ردّاً محتفيّاً بالمهنئين، وبعضها الآخر غبطة واضحة وهو يراقب بعينيه ولده الكبير الذي يراود الفرس مثلما لم يراود عتاة فوارس القرى، ويصافح الناس في حرارة أساسها إعجابه بولده الفائر كفوران حطب النار، أكواب الشربات تطوف بين الجالسين، يحملها الشيخ "بسطاوي" –وهو مندوه لا جذور له في القرية لكن الأعين تفتحت على وجوده فيها– كأنّ الفرح فرحه، ويجري هنا وهناك في نشاط ليس معتاداً، يرقص مع الراقصين، ويدخّن "البانجو" مع مدخّنيه. من بوابة الدوّار يدخل العجل قربان الزفاف، يناطح بقرنيه و"يعافر"، يكابد التملّص من قبضة الجزّار

الذي بدا ساعداه أشدّ من "كلبشات" فولاذية، وهو يجذب العجل إلى الداخل بنوعٍ من مشقة، يبتسم في وجوه الجميع ويرمي العمدة بنظرة اعتذار لعدم تمكّنه من مصافحته يداً بيد، وإلاّ فلت العجل من بين يديه وهاج وماج ودار بين الجالسين نطحاً واستعسر عليه التمكّن مرّة أخرى، يستوعب العمدة فيحييه من بعيد بحرارة، وفي قلب الساحة، في حركة خاطفة، كمباراة مصارعة فريدة النوعِ، يثب الجزّار فوق رأس العجل، وفي ثوان يرديه أرضاً جبراً، ينام بصدره عليه، ويكبّله بيديه القويتين، يلتفّ حوله الناس، و"السبع" لا يزال يراقص الفرس في انتشاء، تعلو هتافات:

– مبروك يا عمدة.

بسم الله، بعد أن تهمد حركة العجل قليلاً، ينزل الجزّار على رقبته بسكّينه الحامية ويهمهم، سحبة واحدة للنصل فوق الرقبة، وخيوط من الدمّ الساخن تتفجّر في وجوه الملتفّين، تثبط عزيمة العجل المناضل الذي "يفرفط" لآخر مرّة معلناً أنّ سكرات موته أوشكت على المغيب، فتنطلق الأعيرّة النارية من فوّهات البنادق المطلّة نحو السماء، والعجل يخور، شيئاً فشيئاً يهدأ خواره، إلى أن تسكن عيناه، والجزّار يجزّ رأسه ليفصلها عن جسمه المنتفخ، فيرميها أرضاً ويبدأ في النفخ داخل لحم العجل من ثقب صنعه بسكّينه داخل ساقه ليبدو العجل مثل بالون اختلطت دماؤه بتراب الساحة. لقد تخضّبت أرض

القرية بالدماء، لم تكن المرّة الأولى التي تجري الدماء فيها على أرض قريتنا، إنّما هل كان يدري أحد أنّها لن تصبح الأخيرة؟

تتقافز الطلقات في الهواء فوق رءوس الجالسين، تمرق من أمام الشرفة فترجع النسوة للوراء مبربشات بأعينهنّ، طلقة تمرّ بجوار أذن فرس "السبع"، تنتفض هلعاً، ترتدّ للوراء وترفع قائمتيها الأماميتين، ترمي "السبع" من عليها بذعر عفوي وتكاد تهرسه تحت حافريها اللذين أخذا يجوبان مسطح الأرض في رجفات خاطفة مفزوعة، يحمل من تحتها جسده في سرعة، يتكوّم بين القاعدين، يختفي جسمه في كثافة الأجسام، في ارتياع يشب العمدة، يثب يعدو نحوه، يتزاحم من حوله الناس، لكنه يبتسم في وجوههم وهو يطمئنهم: (الحمد لله.. سليمة). لكن الجرح في ذراعه والدم الذي بدأ ينتشر في كمّ الجلباب الأبيض لم يكن ليوحي بذلك.

فجأة –عند رؤية الدمّ– تلجّم كلّ شيء، الأفواه والفرحة وارتعاشات النساء في الشرفة، وقف الجميع في طلّة مفزوعة، وثبت المشهد كما لو أنّ سهم الله رشق في الموجودين، مضى العمدة يبحلق في ولده فاغراً فاه، كان يفكّر: هذا مطلع شرّ، الدمّ فأل سيء. الهمهمات أخذت تتناثر: أستر يا رب/ اللهم اجعله خيراً/ دمّ.. دمّ في فرح! في الطريق إذن ثمّة شيء قادم لا يُدرك كنهه تحديداً، قد يشعر به العمدة بقلب الأب شعوراً كهذا الذي يتحكم بدقّات فؤاده ويدفعه لأن يرتجف، ويأمره أمراً كيما يجوس التفاصيل كلّها من حوله

في تساؤل، ترى ما الذي يحذّرنا منه القدر؟ قد يشعر، بأنّ خطراً ما يطرق المجهول، غريباً عليه، وعلى ولده. صوت ريح بدأ يحوم في الأجواء يقبض الأعصاب، صوت خافت، أشبه بأنين مكتوم، يدفعه للحيرة والترقب والوقوف منتبهاً حذراً يفكّر في القادم، أن يبدأ العرس هكذا نذير شؤم! كان نزف الدم من ولده على مشارف زفافه إمّا حسداً شديداً وإمّا رسالة إلهية، في الطريق حتماً ثمّة قلق.. خوف.. انقباض، في الطريق ثمّة خطر.

هكذا وقف الجميع يحدّقون في "السبع" الذي بدا لا يكترث فيبتسم مثل تلك الابتسامة اللا مبالية.

هكذا نبضت قلوبهم هذا النبض المحذر، هم يدركون، يعرفون هذه الإشارات، وما أكثرها! فحيال الأفق القريب بدت الريح أكثر انفعالاً وسماء تشوبها حمرة مفاجئة وخيال يرجف عقولهم، وشمس تبتعد في غياهب السماء أكثر، كأنّها استشعرت الشيء الذي لم يكن ليستشرفه أحد.

الشرّ قالوا هو الطالع عند هذا الأفق يسدّ عليهم الشمس ويقطع الطريق، الشرّ الذي بعد لم يظهر بكامل هيئته، إنّما يبعث إلى رءوسهم تلك الرسائل التي تجزم بأنّه يلبس الآتي هذا اللبس المخيف، فهناك إذن.. الشرّ.. قادم لا مفر.

* * *

أعيننا ترافق الريح الخفيفة التي تتهادى ناحية غرب النيل، حيث الجبّانة، هناك يسكن الشيخ "إبراهيم الفخّار"، كنّا أصدقاءً لولده الكفيف "حمدي"، نركب "المعديّة" ونقضي معظم النهار هناك، أكاد أذكره لم أزل وهو ينهض، أذكر نظرته إلى "حمدي" يتفحّص جسده النحيل وكأنّه يقدّم له اعتذاراً صامتاً لتلك الحياة المتواضعة التي يعيشانها، أتذكّره وهو يستقيم متّكئاً على مرفقه، ويخطو ناحية باب بيته، يسحبه على مهل بساعده العجوز، يستقبل على صدره هواء الصبح ويتنهّد، ثم يلتف وراء البيت حيث طلمبة المياه، أذكره وجرو يداعب ذيل جلبابه، فيبتسم ويصرّفه بلطف ويحرك ذراع الطلمبة الحديدي –الذي اعتراه الصدأ– من أعلى لأسفل لضخ الماء حتّى يخرّ خيط يمكّنه من الوضوء للصلاة، كذلك وهو يرنو ببصره حوله ويجول به في هذا الخلاء الشاسع المنبثقة خلاله شواهد قبور، خلاء يحاصره في تلك البقعة الجرداء من البشر، ويسعل، كان كثيراً ما يسعل، وكثيراً ما أشعر أنّ الملاك يحوم حوله وأشعر أيضاً أنّه ينتظر الموت، بإيمان وغلبة –وباستسلام شديد– ينتظره.

* * *

أول الجبّانة شجرة "الصنط"، شجرة لا تزال تحمل طفولتنا ببراءتها وفرحتها وكلّ ذكرياتها، كم كنّا نهوى تسلّقها! نمضي معظم النهار فوق

صهوتها، نستشعر دفئها اللذيذ، نتأرجح على ذراعيها واحداً بعد الآخر، ثم قبيل الغروب، إذ لا يبقى سوى نصف ساعة أو أقلّ على مغادرة الشمس لعالمنا، نؤوب لبيوتنا المزروعة بداخل الغيطان الخضراء وغالباً ما تكون غافية في طيّات سكون المساء. وشجرة "الصنط" عجوز، تسكن الجبّانة قبل الشيخ "إبراهيم" بزمن، بل تكاد تشعر –وأنت تراها قابعة أول الجبّانة تنحني انحناءتها وتخيّم على القبور بالظلّ كأنّها لا تدع الشمس التي تزحف من وراءها بمشقة تفترس رطوبة هذه القبور– تشعر أنّها قابعة في الجبّانة منذ الأزل، تحتها يجلس الشيخ "إبراهيم" جلسته الموحية بالبؤس، بين المضاجع المترامية المتفرّقة، وفى قلب الجبّانة الكئيبة؛ الأنيسة بذات الوقت، التي تطأ الثعالب والكلاب أرضها كلّ صباح تشمّم، تتلفّت حولها، يصرفها فتنصرف، أو كان كثيراً ما يتركها لتنصرف من تلقاء نفسها بعد أن تتأكد ألاّ وجبة لها هنا، في هذه الجبّانة يجلس، وكأنّه تحجّر منذ سنوات في جلسته هذه، يجلس وتشعر أنّ عزيمته وكلّ رغبته في الحياة يجلسان جواره بانتظار ما قد تسفر عنه الأيام.

تشعر به حين يبدو عليه أنّه يلهو مع ذكريات العمر الغابر، وهو يرشف الشاي بكلّ أناة وكأنّ ذاكرته ترشف معه كلّ السنوات الماضية، فيبتسم ابتسامته الواهنة ويرمى عينيه في عبّ السماء "المحدوف" ثم ينفرج فمه ويحكي لنا –وكان كثيراً ما يفعل– عن بداية عهده بهذه المهنة الموروثة من الجدّ فالأب، في وقت كان فيه طفلاً لم يتجاوز سنواته الاثنتي عشرة، وكان أبوه يصطحبه معه في كلّ دفنة

ليرى ويرصد ويتعلّم، يحكي لنا حينما تعب أبوه ذات يوم وأوكل له دفنة من الدفنات، عن الفرحة التي استولت عليه وهو يجهّز موضع الدفن ويهيئه، إلى حين يفرغ الناس من صلاة الجنازة وحتّى يأتون سيراً إلى الجبانة والجثمان فوق أكتافهم، وهو يرش الماء ويسوّي التراب بمدخل الفسقية، يهذّبه ويدوّر التجويف إلى القبر بتناسق كما علّمه أبوه، وقتئذ جسارة العهد الأول بالدفن وإحساس بالنضج تملّكاه، فوقف يلتقط الجثمان من الأيادي، ويدخله براحة إلى الكوة المعتمة، ثم فجأة؛ كأنّه لدغته عقرب، انتفض وهرول في هلع بعيداً وراح يصيح بأعلى صوته:

– عفريت.

توقّف، ضحك ضحكاً بدا كشهقات متقطّعة، جال ببصره فينا وفي المدى المحيط، ثم أردف في شيء من أسى:

– قلة الخبرة خلتني أنسى أنّ في القبر بقايا عظام قديمة كان لابد أن أكشطها قبل أن أدفن الميت، فلما تمدّدت على ظهري، ووقفت عظمة ضربتني في وجهي، جريت من خوفي.

ثم ربت على رأس ولده "حمدي" بابتسامة أليمة، وتركنا لنلعب ومضى عنّا، ليسير ببطء ووهن شديد بين الأضرحة، يرمم نتوءاتها ويقطّب شقوقها، يساوى التراب الذي يبعثره الهواء، فبدا وكأنّه

هكذا يدفن سأمه. وهو يتنقّل بين القبور كان يتلو –كعادته– آيات من القرآن بعدها يرجع للجلوس تحت "الصنطة"، كان رجلاً عجوزاً ينتظر.

ورغم سنّه الطاعن، وحيله الواهن، ورعشة يده التي انتابته منذ زمن، إلا أنّ الشيخ "إبراهيم" كان "الفحّار" الوحيد في البلدة، اعتاد الناس الطرق على باب بيته فيستجيب في أيّ وقت، كان عمله في حفر القبور لا موسم له، كان يقول دوماً: الموت "تساهيل".

يبلغه أهل الميت عند حدوث الوفاة فيبدأ في تجهيز القبر وحفر التربة انتظاراً للدفن حتّى ينتهي أهل الميت من الغسل والكفن وصلاة الجنازة، تأتى الجنازة فتأتيه قوة من عند الله، يتوضأ ويصلّي ويدعو الله العون ثم يقف على مدخل الفسقية، وحين يناوله الناس الجثمان فيريحه لداخل الحجرة المهيبة بسلاسة وكأنّ أياد ملائكية تتلقّف منه الجسد، يتلو آيات من القرآن، ويحثو التراب على الوجه في عمق الهوة ثم يبدأ في صفّ الطوب لإغلاق المدخل.

يرضى بما يُدسّ في كفّه من نقود، لا يطلب أكثر ولا يعترض على القليل، يشكر ربّه ثم ينصرف إلى بيته آخر الجبّانة بعد أن ينصرف الناس.

والناس في القرية يعتقدون في قوة قلبه...

كيف لا وهو الرجل الوحيد بينهم الذي يسدل آخر ستائر الدنيا على أجسادهم والعين الوحيدة التي ترى موطنهم النهائي؟

وكان يشعر بما يحدث في الجبّانة فيمتقع، وكثيراً ما كان يستعيذ بالله ثم يغلق بابه عليه، لكنّه لا يروى لـ"حمدي"، رغم يقينه بأنّ "حمدي" يشعر كذلك بما يحدث، ومن حكاياته أنّ امرأة طرقت الباب في ليلة، فتح لها، فطلبت منه أن يساعدها، ارتعشت شفتاه وراح يرتعد، كانت ترتدي ثوباً أسود اللون وتمسك عصا خيزران في يدها، تسمّر مكانه وأغلق في وجهها الباب ولم يلبِ طلبها رغم تساؤل "حمدي"، وقتها، لم يشأ أن يخبره أنّه يعرف هذه المرأة، وأنّه دفن جثتها بنفسه في الجبانة.

أبو القمصان

وراء بيت الشيخ "إبراهيم" يقع ضريح الشيخ "أبو القمصان"، الكبار فقط يعرفون الشيخ "أبو القمصان"، هم الذين عاشروه وعاشوا معه وعاصروا معجزاته، وإن جاز أن يكون من ذكر الضريح الذي أقيم في قلب الجبّانة وراء بيت الشيخ "إبراهيم"، فلابد وأن تكون معرفة الحقائق التي تنفي أو تؤكّد صحة موت الشيخ واردة الذكر أيضاً، ففي واقع الأمر، كلّ هذه الحقائق، ولو جاءت على

ألسنة مختلفة، في أزمنة مختلفة، مشكوك في صحتها، فرغم ذكر الحقائق من عهد لآخر، ورغم طرافة ما يُقص على ألسنة الكبار عن الشيخ، إلا أنّ واقعة موته تحديداً ما زالت مبهمة، فليس من رجل شاهد الشيخ "أبو القمصان" وهو يموت غير الشيخ "بسطاوي"، وليس من جنازة ولا سرد موثّق للمسألة، فالضريح الذي أقيم، أقيم لمجرد غياب الشيخ أعواماً طوال، ولما أفصح عنه لسان الشيخ "بسطاوي" من رواية زعم البعض صدقها عن الشيخ "أبو القمصان"، فالشيخ "بسطاوي" لا يكذب، حتّى ولو كان لسانه به خلل، وحين يروي فهو يروي وعليك أن تركّز وتمعن في الانتباه لكي تستحوذ على كلّ كلمة يقولها كيما يمكنك تفسيرها، وكان أن جاء الشيخ "بسطاوي" يوماً وقد استولى عليه بكاء عظيم، وقال:

- "آومصان آت".

أمّا العمدة "حمزة"، وهو أشدّ رجال القرية فهماً لـ"بسطاوي"، فقد كان يسمع الرواية ويترجم، ثم يبدو عليه التأثر ويصفّق كفّاً بكف، ويهمهم:

- لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وينقل للناس الجالسين حوله ما يسرد الشيخ "بسطاوي":

– كان في زيارة لمقام سيدي "أبو الحجّاج"، أنتم تعرفون "بسطاوي"، يعشق التمرّغ في تراب الأضرحة، ودائماً "هاجج" في البندر، يقول أنّه سمع صوت الشيخ "أبو القمصان" يستنجد به، كان الصوت داخل أذنه، يستدعيه في إلحاح وفي ضعف، قادته قدماه من دون وعي، وجد الناس في الشارع تلتفّ حول جثمان الشيخ "أبو القمصان" المضرج في دمائه، يقول أنّه رمى جسده فوق مولانا "أبو القمصان" إنّما الناس فكّوه من عليه بالعافية، لم يكن له يد في أن تحمل الإسعاف جثة الشيخ، ولم يكن يصدّق أنّ سيارة داهمته وأخرجوه من تحت عجلاتها صريعاً.

وظلّ "بسطاوي" يُقسم ويحلف بالله ويشير نحو عينيه اللتين سيأكلهما الدود وقد رأتا الشيخ "أبو القمصان" جثّة هامدة، غير أنّ الحكاية ورغم غرابتها، صدّقها الجميع، فالغرابة لا تستوطن موضع الحكاية بقدر ما تكون في أنّ الشيخ "أبو القمصان" بشحمه ولحمه قد دهسته "تريللا" من قبل، وأمام عيون الكثيرين من أهل القرية، والتصق بالإسفلت فعلاً لكنّه هبّ ناهضاً ثم مضى مبتعداً راكضاً مثل حصان في قمة عنفوانه، فكيف تفعل سيارة ما لم تفعله "تريللا"؟ رغم ذلك، صدّق الناس ما جاء على لسان "بسطاوي" لمجرّد أنّه "بسطاوي" وأنّه لا يعرف للكذب طريقاً، دون النظر إلى أين ذهبت جثة الشيخ "أبو القمصان" أو ماذا حدث لها؟ أو لماذا تركه "بسطاوي" ببساطة وجاء؟ على العموم ربما كان الناس في انتظار أن يظهر مرّة أخرى، بعد يوم أو شهر أو عام، فلم يظهر، وكان من

الضروري أن يقام له ضريح في المكان الذي كان يسكنه، وهو الجبّانة، وأن يتكفّل بإقامة الضريح عمدة القرية، لأنّه العمدة، والمسئول بشكل مباشر عن "بسطاوي" وعن أقواله وأفعاله، وأن يصبح هو الوحيد الذي يتحمّل الوزر إن اتّضح عكس ما روى "بسطاوي"، وأن تكون نوادره –الشيخ "أبو القمصان"– والتي تأتي على لسان الكبار، هي النوادر التي يستأنس بها الكثيرون في القرية، عندما يتذكّرون كيف كان يمزّق كلّ جلباب جديد ولا يطيق أن يضعه على جسمه لأكثر من دقائق ثم يسير في القرية عارياً، وذلك بلا اعتداد بضخامة ذكره غير العادية، أو فتوّة جسده التي لم تكن لرجل ذي قبل، والتي كن نساء القرية يتحاكين بها، الغريب أنّ الشيخ "أبو القمصان" كان موجوداً في كلّ بيت في القرية، سواء كان حيّاً أم ميتاً، وسواء كان هذا بحكايات الرجال عنه أو بحكايات النساء فيما بينهنّ عن ذكورته التي طالما أدهشتهنّ، وأن يتحدّثن عن ضريحه الذي علّم بنور لم تره القرية إلاّ عليه، نور أبيض شفاف، طلع هادئاً خافتاً ثم سرعان ما تبدّل ليغشى الأعين، فبدا ككرة بلورية تسبح فوق الضريح، قد يراها الواقف على سطح بيته من الضفّة الأخرى للنيل وقد يقعد أمامها الليل بطوله مشدوهاً، كن النسوة يتذكّرن الشيخ "أبو القمصان" ويبدو عليهنّ التأثر حين يتنهدن، في مجالسهنّ الخاصة، ويقلن:

– آه يا "أبو القمصان"، والله ولا يوم من أيامك.

صوت

قريتنا تحمل حياتنا في أحشائها، حياة لا لهو فيها سوى العوم في مجرى المياه المحتشد بفضلات القرية وجيّف البهائم النافقة، ولا ترف غير قعدتنا عند الشيخ "إبراهيم" في البرّ الثاني، أو مع آبائنا على مقهى المعلم "سوسو" القابع خلف ضفّة المجرى، الذي تلتفّ حوله قامات النخيل تلك التي تحرس قريتنا، بينها رصّ "دِكتين" لجلوس عمدة القرية وأكابرها، فرش داخلها "حُصر" من الخوص، ووسّدها بمساند من القش زُينت بقماش "دبلان" فاقع الألوان، وعلى الأرض الطينية يفترش بقية الرجال "كليمات" متّسخة من كثرة الاستخدام، يتربّعون فوقها، تتوسّطهم "طبالي" خشب، يتبادلون عليها لعب الضمنة والطاولة، ويسحبون دخان "معسل القص" من "جوزات" نحاسية، يتلاحمون بطريقة لا تصلح إلاّ للعراك، فإن خرج السُباب من الأفواه، يخرج حاداً منفعلاً، لا يتلاءم وطبيعة القعدة، وإن اشتدّت سخونة اللعب، فسرعان ما تتصلّب الأذرع وتتطاول، تكفهر الوجوه، وتنعقد الحواجب، وقد تنقلب الليلة، فتخرج كلمات حارقة من أفواه البعض في لحظات الانفعال، يعايرون بها بعضهم البعض، وكان لكلّ رجل منهم "جُرسة"، أكثرها تداولاً "جُرسة علوان"، التي ظلّت على الألسنة إلى وقتنا هذا، وهي لم تكن فضيحة بقدر ما كانت ذِلة يستخدمها البعض ضدّه، وفي بعض الأحيان كانت مجرّد نكتة مضحكة تُسرد من باب التندّر والفكاهة، أمّا "علوان" فهو رجل يحب الشرب والسهر، رغم أنّ دماغه خفيفة، ولا يستطيع

السيطرة على رأسه، فكثيراً ما تجده يترنّح في هدأة الليل ويستيقظ الناس على صوته الصاخب، وهو يمرّ أمام بيوتهم يتخبّط من جدار لجدار، ويستغرق الدرب القصير إلى بيته في نصف ساعة وأكثر، وقد يجلس قليلاً مستنداً لجدار، يرفع رأسه لأعلى، ويدندن أغنية ما، تبدو كلماتها وهي خارجة من فمه، كشريط "كاسيت" "سافف"، ولطالما تعوّدنا أن نسترق النظر له من خلال ثقوب صفحات الجرائد والمجلات التي تملأ فراغات نوافذنا، وهو يكوّم في يديه تراب الدرب، ثم يعبّئ حِجر جلبابه به، قد يشب ناهضاً فجأة، فيبدو مغبّراً بذرات الأتربة التي تحوطه كهالة رمادية، بعدها يكمل سيره البطيء غير المتّزن، وهو يصفع خدّه بكفّه، أو يلعق اللعاب المتناثر من فمه نحو شاربه وذقنه بلسانه مرّة أخرى، حتّى أنّه في ليلة —ومن شدّة السُكر– وقف أمام حائط، ثم خبط جبهته في قالب بارز عن الحائط وسقط على الأرض ووجهه قد اختفى في ثنايا اللون الأحمر القاني، وقتها لم يخرج لنجدته أحد، وبقى "علوان" ممدّداً على الأرض لبزوغ الفجر.

لم تكن له زوجة ولا أولاد، وكان يعشق أول الليل، حين تغط قريتنا في السبات عقب نهار شديد الكدح، فعالمه المحبّذ هو السكون؛ سكون الليل، حين تبدأ الحياة في التقلّص، حين ينفضّ زخم الناس المتعبة ويصبح عالمه مسكون به، لوحده، حين يضحى كبته مباحاً وفضوله بلا قيود، حين يتسلّل لأسطح البيوت ويرصد بأعين متلصّصة حركة شديدة الخصوصية والانغلاق داخل بيوت الناس

وعششهم، يتسلّل دون أن يشعر به أحد، ويرى الصبايا من وراء الثقوب الصغيرة وهنّ يتقلبن على فراشهنّ، فتبدو قشعريرة جسده وكأنّها لذّة لا تضاهى، ونشوة مختلسة يفرغها ما بينه وبين نفسه، ثم يمضي ليكمل مساءه –ككلّ مساء– في صحبة أهل الكيف على مقهى المعلم "سوسو".

ضُبط أكثر من مرّة وهو يتسلّل إلى أسطح البيوت بأواخر المساء، فيأكل مرّة علقة، يُشتم مرّة، ويُسلّم إلى النقطة مرّات، بل اعتاد المهانة مقابل إشباع رغبته، الغريب أنّه كان يصلّي، كلّ صلاة في وقتها داخل الزاوية، كان شغفه بهتك ستر البيوت والتعدي على حرماتها ولو بمجرّد النظر لا يليق برجل يدخل المسجد في كلّ صلاة ويصلّي بين الناس، إنّما ربما الداء الكامن في نفسه كثيراً ما كان يوسوس فيه بأن يتّخذ هذا المظهر المخادع، وكأنّه يُخفي عن الناس الحقيقة، أو لعلّه كان يجد المسجد مخبأ مناسباً من احتقار الخلق، الشيخ "عوض الله" شيخ الزاوية قال له في يوم:

– من تخدع يا "علوان"؟ يا عديم الفهم.

في برود ردّ عليه:

– لا تنس يا مولانا أنّني خريج ثانوية أزهرية! يعني رجل فاهم ومثقف.

– مثقف! "إخص عليك"، رجل بارد.

ينظر له الشيخ "عوض الله" في تعجّب وامتعاض وهو يمصمص شفتيه، ولا يجد لديه القدرة على تكملة حوار مع سفيه مثله، لكن "علوان" دائماً يصرّ على الصلاة المفتعلة، الجميع ينظرون إليه هذه النظرة المتحفّظة في القرية، ولكن أيستطيع أحدهم أن يفعلها في بيت ربنا!

لذلك فإنّ العمدة "حمزة" عمدة بلدنا عاقبه عقاباً رادعاً عندما نطَّ على دار "مسعود" وحاول مراودة ابنته التي لم تتعدّ الثمانية أعوام.

فقبل فجر ذلك اليوم بساعة أو يزيد.. استيقظت قريتنا مبكّرة عن عادتها.

الليل يعد نفسه للرحيل بعد أن بدأ يجرد حساباته، والقرية طريحة سبات جهد النهر بطوله، كان الصراخ غير المألوف –في مثل ذلك الوقت بالتحديد– نذيراً بتسمّر خيوط الليل في ذيل السماء، أجزم الجميع بأنّ طلوع الشمس فجر ذلك اليوم قد تأخّر قليلاً. كان صراخ بنت "مسعود" قد هيّج سكون القرية، و"مسعود" النائم في فناء الدار هبّ فزعاً، وصعد إلى الغرفة فوق، وجد "علوان" ممسكاً بذيل جلبابه بين صفيّ أسنانه، يتأهب للهجوم على البنت، عيناه

حمراوان ولعاب الشبق يسيل، كان مخموراً لدرجة أنّه لا يدرك أين هو؟ وهو واقف في منتصف الغرفة يتطوّح من سيطرة الخمر على رأسه الثقيلة، زوجة "مسعود" شافت منظر "علوان" فراحت تلطم، والمشهد لم يحدث في قريتنا من قبل، رغم علم القرية بداء "علوان"، لكنّهم كانوا دائماً يتحاشونه. أحد الخفر جاء من عند دوّار العمدة هرولة، طلع مفزوعاً على صوت الصراخ، وجد "مسعود" مصمّماً على حشّ رأس "علوان" بالمنجل، دون جدوى وقف في المنتصف ما بين "مسعود" و"علوان"، إنّما "مسعود" بلغ بالفعل أجزاء متفرّقة من رأس "علوان" ورقبته ووجهه، فكانت الدماء تنفجر من "علوان" على وجه الخفير وملابسه، يسقط على الأرض تارة ثم تجذبه يد "مسعود" المهتاجة لفوق مرّة أخرى، وكانت قواه واهنة فلم يقدر على تمالك ترنّح جسده فبدا كقطعة من مطّاط في يد لحّام، لم يكن حتّى يشعر بهذه الجروح التي خطّها المنجل على سحنته، لعلّها الخمر وما تفعل بالرأس، في الحقيقة كانت عيناه زائغتين تماماً، ويد "مسعود" تحط به وتطلع، والعيال متكورون عند زاوية في آخر الغرفة يرتعدون من الدماء التي انتثرت على الجدران، وعلى الأرض، وكان لهم نصيب منها على ملابسهم. زوجة "مسعود" لم تكف عن الصراخ، كانت تعرف أنّ "مسعود" فقد صوابه، وسوف يدخل السجن في "علوان" هذه الليلة، ولكن شيئاً في عيني "علوان" كان يستجدي "مسعود" الصفح، ربما هو الشيء الذي أخّر نزول المنجل على الرقبة، فجعل تدخّل العمدة في اللحظة الأخيرة –والذي فكّ "علوان" من بين يدي "مسعود" بطلوع الروح– تدخلاً جاء وكأنّه من السماء. العمدة

حضر متلاحق الأنفاس، وحال دون وقوع النصل لنحر "علوان"، في الواقع يد "مسعود" تردّدت قليلاً، حين تلاقت أعينهما بشكل مباشر، وتسمّرت في الهواء لثوان، كانت كافية لأن يتشبّث العمدة بساعد "مسعود"، ويطويه في حضنه، ويسقط به بعيداً عن جسد "علوان"، بل ويجاهد السيطرة على جسمه الذي "يفرفط" من شدة الانفعال، ويقول له:

– حقك عندي، أنا سأؤدبه.

"مسعود" وهو يلهث ويوشك على البكاء من فرط الهياج قال:

– يا عمدة لازم أقصف رقبته ابن الكلب النجس.

غير أنّ العمدة دفع "مسعود" بعيداً ونزل ب"علوان" رغماً عن أنفه، وقال:

– سيموت تحت يدك يا رجل، لا يستحق أن تدخل السجن فيه.

"مسعود" راح يهلّل:

– تشكر يا عمدة، تشكر يا عمدة، البلد كلّها سوف تقول مسعود "خول" ولم يحم بيته.

وبنبرة صوته الحازمة صرف العمدة كلّ الرجال الذين خرجوا من بيوتهم على صوت الصراخ، ووقفوا يتثاءبون، يثرثرون ويتهامسون، ويومئون برءوسهم كأنّهم يؤكّدون أنّ "علوان" لابد وأنّه فقد دماغه، فهو لم يجد سوى "مسعود" البهيم ليعبث معه! لكن العمدة ربطه بحبل سميك في جذع نخلة إلى أن يحل الصباح، وترك الخفر يقبعون جواره خوفاً من تهور "مسعود". كانت الدماء التي تنحدر من جروحه قد بدأت تتجلّط وتشكّل أقنعة حمراء فوق وجهه، ومع بزوغ الشمس، فكّه العمدة وجرّده من "هدومه" -بمساعدة الخفر- ثم أرغمه أن يمتطى حماراً بالعكس، وأوثق عقد ساقيه من تحت بطن الحمار لكي لا يفلت، ربط ساعديه خلف خلاف، ولكز الحمار، كانت قوى "علوان" أضعف كثيراً من محاولة المقاومة، فسار الحمار القرية من أولها لآخرها وهو فوقه عارياً إلاّ من سروال، فراح العيال يرجمونه بالزلط والحصى حتّى تورّم جسده وامتلأ بالدماء ثانية، وراح يبصق عليهم ويبصقون عليه، ويهلّلون بنقر أغطية الحلل بالملاعق، وهم يلاحقونه، كان مشهداً لم يحدث إلاّ في عهد جد العمدة "حمزة" الكبير، يعني لم نره في حياتنا، لهذا كان انتصاراً بقدر ما هو شماتة أن يزفّه الخلق لمشارف قبلي البلد، بل إلى أن وصل "قباوي" النصارى، وكان أبونا "لوقا" واقفاً أمام الكنيسة يملأ زير الماء، كان الحمار يقترب منه ووراءه سحابة من الخلق، رمى خرطوم الماء من يده وهرول، وأوقف الحمار، الذي نظر إليه كأنّه يستعطفه ألاّ يتركه مع "علوان" تحت سطوة الحجارة المقذوفة وتهليل البشر، فكّر أبونا

"لوقا" كثيراً عندما شاهد "علوان" قبل أن يحلّه، كان يخشى العمدة، ولكنّه كان يعرف تماماً أنّ العمدة ربما لن يغضب منه، فالعمدة صاحبه، و"علوان" قد يقع من على الحمار صريعاً في أيّة لحظة، بهدوء –وعقب مناقشات عصبية معه بعد أن أخفق في إقناع الناس بالمغادرة فظلّوا يتابعون ما قد يحدث مع "علوان" الذي كان الإغماء قد تمكّن منه فتدلّى جسمه من على ظهر الحمار– زفر، وقضى لحظات يحلّل المسألة ويقلبّها على أوجهها من كافّة النواحي، خصوصاً بعد أن انكفأ "علوان" على ظهر يده يقبّلها، في الحقيقة تردّد كثيراً قبل أن يفك "علوان" ويجلسه تحت نخلة أمام الدير، ويلبسه جلباباً من عنده بعد أن طهّر جروحه، وأطعمه.

رجع الحمار دونه، أحد الخفر مال على أذن العمدة هامساً فهاج، وصاح:

– والله عال يا "لوقا"!

أخذ قليلاً يفكّر، هل يترك "لوقا" ينجو بما أتى من تحدٍ سافر له؟ قعد لحظات يتناول أنفاس الشيشة ودماغه تلعب، وتصوّر له ما قد يكون لو مرّت عملة "لوقا" على خير، فطوح لي الشيشة من بين يديه ونفض جلبابه من بقايا "باكو المعسل" الذي يرص منه، وزام زومة حانقة، وقف لبعض الوقت يمسح كفّه في صدر جلبابه متنهّداً بغيظ، وبدا في عمق عينيه احمرار مليء بالكِبر والصلف، كان يحب "لوقا"

لكن ليس لدرجة أن يكسر هيبته أمام ناس القرية، لذا لمّا قرّر أن يروح للكنيسة، راح مشتاطاً، كانت خطواته أسرع من خطوات الخفر الذين يتبعونه، كانت خطوات زعيم لم يطع، بل أهين إهانة بالغة، وقف مع خفره أمام الكنيسة، استقبله أبونا "لوقا" بابتسامة عريضة ومدّ له يداً يصافحه، غير أنّه لم يكن يرى سوى "علوان" المتكوّر بجوار سور الكنيسة، فرجعت يد الأب لمكانها والعمدة يزعق:

– أتخسرني من أجل هذا الكلب يا "أبونا"؟

وضرب "علوان" الراقد تحت قدمه بسن حذائه في غلّ.

أبونا "لوقا" هزّ رأسه مبتسماً وقال:

– يا عمدة.. (فإن كنتم تغفرون للناس زلاّتهم، يغفر لكم أبوكم السماوي زلاّتكم. وإن كنتم لا تغفرون للناس زلاّتهم، لا يغفر لكم أبوكم السماوي زلاّتكم).(1)

– على الأقل استأذنني.

– كاد أن يموت يا عمدة، حرام عليك.

– حرام! أعرف الحلال من الحرام جيداً يا "أبونا".

– يا عمدة؛ (مَن جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشرُ أَمثَالِهَا).[2]

لثوان، تأمّل العمدة الأب "لوقا" بحنق، لم يقو على الرد، ها هو يناظره بآية من القرآن، فأيّ رد! جعل يجوبه بعينيه في نظرة متلفّحة بالعصبية، لم يرد، ولم ينبس فمه ولو بهمهمة، فقط أدار ظهره له والغضب يمور في عينيه، وحدج "علوان" بنظرة متوعّدة ومضى، كانت سحابة الخلق قد انصرفت عن "علوان" وأخذت تتّابع في السير من وراء العمدة وكأنّها تنتظر ألاّ يمضي يوم القرية في سلام.

لم يكن من ردّ فعل من عمدتنا إلاّ المقاطعة.. لعلّه ظلّ يتساءل: الذات أم الكبرياء أم العلاقة الوطيدة؟ أيّهم أهم؟ ثم العقاب دائماً ما يناسب حجم الخطأ.. هل لمجرّد إيواء ملعون بدر في لحظة رفق آدمية؟! لمجرّد إيواء ملعون.. إيواء تعاطفي فحسب..

لم نرّ العمدة في الكنيسة بعدها، ولم يعد الأب "لوقا" –كالعادة– يزوره في بيته.

وكان ذلك على قريتنا حدثاً جديداً.

<u>الأب لوقا</u>

"فدنا بطرس وقال ليسوع:

يا سيد، كم مرّة يخطأ إليّ أخي وأغفر له؟ أسبعَ مرّات؟

فأجابه يسوع:

لا سبع مرات، بل سبعين مرة سبع مرات."[3]

في غرفتي داخل الكنيسة أحبّذ كثيراً أن أشعل الشموع التي تؤازر وجداني على الصفاء، أرقب وهجها وأنطلق برأسي أتفقّد ما كمن من ملكوت الرب في أواخر حدود النفس، لم يكن الطعام ذا بال لي، كانت كسرة تعينني على قضاء اليوم شبعاناً، وإن كان أغلب اليوم يسير ما بين تأمّل من روحي وخشوع، وما بين تصفّح لموسوعات التراث الكنسي التي تعمر بها مكتبة الدير، وقد تمضي معظم ساعات النهار في المزامير وصلوات "السواعي"، وكان لي يوم في الأسبوع يحضرني كلّ القساوسة والرهبان الجدد لقراءة بعض كتب "القطمارس" و"البصخة" وبعض مخطوطات القداس "الغريغوري" والقداس "الكيرلسي"، كان هذا اليوم هو يوم السبت، وكانت لي حكمة فيه، حتّى يهل على قساوسة ورهبان الكنيسة يوم الأحد المبارك وذهنهم متجدّد وروحهم نقية.

"حينئذ رنّم موسى وبنو إسرائيل هذه التسبيحة للرّب وقالوا..."[4]

آه.. مال نفسي ليست صافية! الذهن غادر وظلّت الهواجس، لا يمكنني التركيز في إتيان أيّ شيء، لا استكمال القراءة في الكتاب المقدّس ولا التعبّد ولا حتّى مقابلة الرهبان، تتسارع كلمات العهد القديم أمام عيني ولا أقدر أن أقبض على أيّة حكمة أو معنى يهدئ النفس.

"يمينك يا رب معتزّة بالقدرة، يمينك يا رب تحطّم العدو، وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك، تُرسل سخطك فيأكلهم كالقش"(5)

آه يا "حمزة"، كلاّ.. وكلّما آذيتني لن تصبح لي مع ذلك عدوّاً، لن أرجو لك سخط الله قط، لكن أما كفاك تهوراً وحماقة؟ كم من المرّات عليّ أن أتجاوز عن سوء فهمك المستمر وغلظة عقلك العنيد؟ وكلّ مرّة تتمادى، وكأنّك أحكم أهل الأرض جميعاً، لابد أن ننتصر في النهاية إلى أنّ الإنسان مليء بالعيوب، وكلّ نفس لها خطايا، كاد "علوان" أن يموت، فبأيّ قلب وبأيّ دين كان عليّ أن أتركه للموت بلا أدنى عون؟

"هناك وضع له فريضة وحُكماً وهناك امتحنه، فقال إن كنت تسمع لصوت الرب إلهك وتصنع الحق في عينيه وتصغي إلى وصاياه وتحفظ جميع فرائضه..."(6)

طويت العهد القديم وانتبهت على حركة حذرة، قبالتي على مكتبي مرّت حشرة من نمل أبيض فتوجّست، وتذكّرت في الحال أنّ هذه الحشرة كانت السبب في إعادة بناء الكنيسة منذ أكثر من عشرة أعوام، حين أتت على جميع الأخشاب الموجودة داخل جدران الكنيسة. كانت الكنيسة وقتذاك عبارة عن مبنى قديم، من عروق خشب و"أفلاق" نخيل، وكلّ الحوائط والقباب يتخلّلها الخشب، فلمّا كان من حشرة النمل الأبيض أن التهمت ما بداخل الجدران والقباب، فتصدّعت الكنيسة، وبتنا نشعر بهذا التصدّع حين تمرّ في النيل البواخر والصنادل ويدوّي بوقها فتنتاب الكنيسة هزّة، كان الأمر مريعاً، وكنّا نجهل عن جحافل النمل الأبيض التي زحفت داخل الأخشاب كالتتار، استوطنت متن الكنيسة وراحت تلتهم وكادت ألا تُبقي، لولا أن جاءني أحد الرهبان الشباب وبين أصابعه نملة، مال على يدي لثمها، وملامحه ترتعش وهو يردّد:

– ها هي يا "أبونا".. ها هي.

تأمّلتها، كنت قد رأيت منها داخل غرفتي الكثير، إنّما ذهني لم ينصرف نحو ما قد تأتيه هذه المخلوقات الضئيلة. في البداية قرأت عنها تحسّباً، وكانت الهزّات التي تصيب بناء الكنيسة هذا الوقت تشعرني وكأنّ رأسي تدور في فراغ لا نهاية له، كان البنيان كلّه يتحرّك وكنّا نقف في فناء الكنيسة بكلّ توتر وهلع نراقب الأعمدة التي تنتفض.

رفعت الأمر إلى المطران الأكبر الأنبا "أثناسيوس" أسقف الإيبارشية –والذي تنيّح منذ سنوات قلائل– لكنّه قال لي تدبّر أمرك.

رغم ذلك صبرت، وألححت عليه في خطاباتي، بدا الانهيار وشيكاً، وكان عليّ أن أتصرّف في أقرب وقت، كنّا نجتمع لساعات متواصلة –نحن هيكل الكنيسة– نجاهد بلوغ أيّ حل، عبثاً كنّا نهدر الوقت، أحدنا اقترح أن نسلّمها لله، فهو راعيها وببركته يعمّ الخير والصالح، لكنّني أبيت أن نترك زمام الأمور للقدر، لم يتسّق منطقه مع منهج تفكيري، فربما كان ترتيب الرّب أن تجدّد الكنيسة ولو عن طريق الأزمة.

ثم جاء الخطاب الذي يبشرّنا بقدوم نيافة الحبر الجليل الأنبا "أثناسيوس" بنفسه وبصحبة أسقف الناحية الأب "أمونيوس" لمباشرة ما تتعرّض له الكنيسة من هجوم ضار لجماعات النمل الأبيض، ولعلّ هذا لمّا كان من إصراري –الذي بلغ حدّ العتاب والقليل من الاستجداء والترجّي– في مراسلاتي إليه كيما يحضر بشخصه ليعاين ما تمر به الكنيسة، تأهّلنا لمقدمه بالوقوف في انتظاره لما يناهز الساعتين وقد أرسلنا واحد من القساوسة الأقدمين كبار السن لاستقباله على محطة القطار في بندر الأقصر، كنّا نرتدي كامل الثياب الكنسية الكهنوتية ممّا يلاءم استقبال الحبر الجليل، وقد بلغتنا أنباء عن الأنبا

"أثناسيوس" لا تطمئن، أشيع أنّه رجل يعشق الرسمية والحزم، وأنّه لابد واجد ما يكدّر به أنفسنا وما يتحفّظ به على سير الأمور داخل جدران الدير، وقفت في انتظاره والقلق يعتمل بداخلي، ثمّة اضطراب يسبق مجيئه، إنّما لم يكن لي أن أخشى في الأصل إلاّ خالقي، هكذا قال الرّب، وهكذا عليّ أن أبث في نفسي بعض الارتياح، الرّب فاعل ما يشاء، والأمور في الكنيسة والدير مستقيمة دون اعوجاج أو تراخ، فممَّ أخاف! لكن أليست من ثغرة قد يقبض عليها الأنبا "أثناسيوس" في كيفية إدارتنا للكنيسة!

دارت في رأسي التساؤلات، ودارت حولنا أشعة الشمس بلا توان، ومن على بُعد بدأ الركب يبين كسراب من قيظ، وجسد الأب "أثناسيوس" القميء المربّع يتأرجح فوق ظهر بغل مثل هودج، وبجواره يعتلي ظهر بغل أيضاً المطران "أمونيوس"، الذي بدا وكأنّه يعاتبني من بعيد بنظراته على تجاوزي له ورفع الأمر للحبر الجليل "أثناسيوس" بشكل مباشر، بدت صرامة تندفع نحونا قبل أن نستوضح كامل ملامح الأب "اثناسيوس"، تنهّدت وقلت في نفسي: الستر من عندك يا رب. أخذ البغل يتهادى وهو يحطّ بالأب الجليل أمامنا، ونحن نهرول ناحيته ليتّكئ على أكتافنا ويهبط، تركني البقية للفح أولى نظراته المستكشفة، انحنيت على يده قبّلتها فمضوا من بعدي يقبّلون، جعل –وقبل أن يتحرّك خطوة– يتفحّص قوام الكنيسة من الخارج ثم قال في بطء وهدوء:

– عظمة الربّ بادية.

أضفت في سرعة:

– ليكن الرّب بيننا شاهداً وصادقاً وأميناً إنّنا نفعل حسب كلّ أمر يرسلك به الرّب إلهك إلينا.[7]

استوقفته الآية، ابتسم ابتسامة ذات مغزى وهو يستدير ليرمقني بنظرة عابرة بيد أنّها مركّزة، كأنّه فطن لما أرمي ومستقر حكمته، لكنه ألحقها بنظرة أخرى معناها اطمئن فمجيئي لا يعني إلاّ أمراً وحيداً، وهو إصلاح ما تسبّبت به جحافل النمل، تبعته وهو يلج إلى الداخل وعيون الناس تجوس فيه باستغراب، لم تكن عادة قريتنا استقبال مسيحيين غرباء –خاصة مع كلّ هذا الهيلمان– إلاّ في مواسم بعينها تمرّ على الكنيسة من كلّ عام، وكان الأب "أثناسيوس" يتطلّع في الوجوه المتراصة تعاينه بكثير من الاندهاش، تلك الوجوه التي اعتراها بؤس الزمن، لم يعد العالم شيئاً ذا بهجة لو تعتقد يا أبانا، مسّد جدائل لحيتك الطويلة السوداء وفكّر.. أولئك البشر صنف فريد لا أظنّك رأيته من قبل! راح الأب "أمونيوس" خلال ذلك التأمّل يحدجني بعينيه غير راض عن فعلتي، لم أوليه أيّ اهتمام وقلت لنفسي: أنت مستغرق في عراك المدينة ولا تعرنا بالك، رغم أنّك مسئول عن كنيستنا كمسئوليتك عن كافة كنائس وأديرة الزمام،

ولكن الله هنا كما يتواجد هناك، الفارق الوحيد أنّنا نرتضي مثل تلك الحياة لا غير.

وهنا لابد لي من ذكر ما كان من عون من كلّ أهل القرية لإعادة ترميم وبناء الكنيسة، أخص بالذكر العمدة "حمزة"، الذي تبرّع بشيء من ماله كما تحمّل جلب المقاول والعمّال والأنفار ممّا انطبع في نفس نيافة الحبر الجليل، وبلغ من دهشة أن قال لي في يوم:

– من الواضح أنّهم يحبونك هنا يا "أبونا".

فقلت له:

– هم يحبون الكنيسة أكثر.. نيافتك.

كان اهتمام أهل البلد كبيراً بتجديد الكنيسة، فكان لكلّ رجل – في الغالب– دور في أن تستعيد رونقها وصحتها، لاسيما الكنيسة تقع داخل دير هو الأكبر في أديرة الجنوب، وكان الدير يستقبل على مدار العام الراغبين في الرياضات الروحية من كلّ حدب وصوب.

وعندما بدأ العمل في الكنيسة، اكتشف العمّال تلاًّ كبيراً أخفته جدران الكنيسة، بادئ الأمر حسبنا كلّنا أنّه ركام قديم من فضلات الريح التي تهبط على الدير معظم أوقات السنة، أمرهم نيافته بأن

يرفعوا هذا الكوم من التراب فوجدنا أسفله مدفنة "الطافوس" الخاصة بالرهبان القدامى.

*   *

*

كان الضباب الذي يوّج مع كلّ قصفة لـ"الطورية" في بطن التل يترك على أهدابنا لونه الرمادي، وتطفو سحابة أمام بصرنا من تراب ناعم يشبه دُخان السجائر، لكن عيوننا تحجّرت في وهلة، وكانت أبداننا وكأنّ خمول الدنيا قد طالها، والشعر انتصب دفقة واحدة، ونحن نشهد خروجِ أولى العظام التي انبثقت فجأة من داخل رقعة في الأرض. كان العمّال قد توقّفوا مرّة واحدة، وتراجعوا يحدّقون في هذه العظمة التي ظهرت من بين التراب، وبدونا كلّنا كأصنام لا تتحرّك منها سوى أعين جاحظة، وكانت أوراق الأشجار التي تتساقط من أعلى حولنا داخل فناء الكنيسة قد تسمّرت في الهواء، وشعاع الشمس الوحيد الباقي من زيارة النهار قد توارى بسرعة، فلفّنا ظلام دامس، تبدّد شيئاً ما بعد قليل حين استعدنا البعض من أنفاسنا وأضئنا المكان بالشموع، التي طفق لهبها يتراقص فوق أطلال الجدران التي هدمتها معاول العمّال فيخلق عالماً من المخلوقات، أناس وحيوانات تتحرّك أمامنا على الطلل وتتداخل، ويكاد صوتها الخافت يؤجّج في روحي من الرهبة ما بدأ منذ وقعت عيني على العظمة، كنت لم أزل متحجّراً أراقب الإصبع البارز من فم الثرى بكثير من

الارتياع وعدم التصديق، توارثنا منذ أجيال حكاية مدفنة "الطافوس" لكن لم أكن أعرف أنّها في قلب ديرنا المبارك على وجه التحديد، حيث اعتقدت أنّها جُرفت مع ما جرفه النهر في مدّه وفيضانه منذ سنوات، كما لم أكن أعرف أن لون العظام التي مرّ على ولوجها التراب غامق هكذا! كان الأب "أثناسيوس" فاغراً فمه وهو يهمهم:

– بحق العذراء.. إنّها لمعجزة.

وجلس على مقعد متواضع من جريد النخل عند زاوية الغرفة المعتركة بالأتربة، ثم أردف بعد أن أستردّ أنفاسه قليلاً:

– لنكمل في الصباح.

قلت آنئذ لنيافته وأنا سائر بجواره في طريقي إلى غرفته وكانت أنفاسي لا تزال مضطربة من شدة تعجّبي:

– كنّا نسمع عن هذه المدفنة.. لكنّنا حسبنا أنّها اندثرت مع مرور الزمن.

لم يكن قد هدأ تماماً وهو يغمغم:

– هي مشيئة الربّ، ولكلّ قدر ميعاد.

وبرفق، كان العمّال في الصباح يُخرجون رفات الآباء الرهبان القدامى الذين عمروا الدير في عصور سابقة، كانت الرعدة التي تسري في أجسادهم هي ذات الرعدة التي سرت في أجسادنا كلّنا، العيون صرّحت بهذا الشعور الذي لم تتفوّه به الألسنة، كنّا نتابع بعضنا البعض بحذر مفروض رغماً عنّا، وبقايا العظام المتهالكة تطلع من داخل القبور، كان شكلها يوحي وكأنّها مجرّد أحجار سوداء لامعة تشبه الخنافس الصغيرة، ولكن كوننا نعلم ماهيتها كان يكفي تماماً لأن يسيطر علينا إحساس الرعب، رحت أفكّر: هل يوماً سوف أصبح مثل هذه الأحجار؟ يطويني التراب ويخرجونني بنفس الفزع؟ أم تكون مشيئة الرّب وأذوب في التراب تراباً؟ كنت أتساءل بلا عمد: لماذا لا تصعد الروح بالجسد طالما أنّ ثمّة مكاناً آخر للحياة؟ هل لابد من العذاب؟

رحت أتابع الأب "أثناسيوس" وهو يتمتم بصوت متهدّج مسموع مع طلوع كلّ عظمة:

– "ويكون في ذلك اليوم أنّه لا يكون نور، الدراري تنقبض، ويكون يوم واحد معروف للرّب، لا نهار ولا ليل، بل يحدث أنّه في وقت المساء يكون نور"[8]

خرجت كلّ العظام، فاقترحت على الأنبا نيافته أن نشرع في بناء مقبرة جديدة على يمين الدير من الداخل نضع فيها رفات الآباء، لكنّه ردّ قائلاً:

– علينا أن نستشير العمدة، هو كبير هذه البلد، على الأقل لما قدّمه من عون وترحاب.

اطمأننت، كنت أدرك أن "حمزة" لن يضيره بناء مقبرة جديدة داخل الكنيسة، وكان ردّه أن قال لنيافته:

– افعل ما تراه مناسباً للكنيسة، أنت أدرى منّي.

بنينا مقبرتين آنذاك، الأولى كانت لرفات الرهبان الآباء القدامى، أمّا الثانية فأوصيت أن أُدفن فيها عقب تنيّحي.

بعد أسابيع كان العمل قد انتهى في الكنيسة، ورحل الأنبا "أثناسيوس" يحمل رضا غير عادي عن الوضع في بلدنا وأذكر آخر ما قال لي –فلم أقابله بعدها وحتّى تنيّح–، كان يبتسم وهو يخاطبني بحفاوة وود لم أعتدهما منه خلال كلّ الفترة التي قضاها بيننا في الكنيسة:

– بوركت وبوركت بلدكم "أبونا لوقا".

بعدها نهضت أنشطة الدير بشكل غير مسبوق، فبدأت الخدمات الروحية تزداد والخلوات والإشراف عليها، كما كنّا نعلّم اللغة القبطية وطقوس العقيدة، وننظّم دورات تدريبية لقادة المهن والحرف المختلفة وذلك للمساعدة على إتقان الحرف وبث روح التعاون وإرساء قواعد الأمانة في الأداء داخل الحرفيين، بالإضافة إلى عمل المشروعات الخدمية مثل مشروع تربية الأرانب والدواجن والمنحل، وكنّا نستقبل الوافدين الزوّار في المواسم الدينية خاصة موسم احتفالات الشهيد العظيم "مار جرجس" والتي تكون في الغالب قبل عيد الصعود بعشرة أيام، والتي يتعذّر فيها استقبال الخلوات وقاصدي الرياضة الروحية.

* *

*

ضربت حشرة النمل الأبيض بيدي، خشيت أن أجد غيرها فيتكرّر ما كان في السابق، تنهّدت واستقمت واقفاً وأضئت الشموع حول لوحة العذراء فارتاحت نفسي. كنّا قد بدأنا في تغيير ستائر الدير إلى ستائر سوداء، فغداً يبدأ أسبوع الآلام، وسوف يمتلئ الدير بالعديد من الناس، ثم كان عليّ أن أجلو رأسي من هموم التفكير تفرّغاً، استرحت على فراشي وأغمضت عينيّ لكن ساورني مشهد "حمزة" وهو يرمقني بغضب ويمضي عنّي.

زفرت في حرارة، أغمضت عينيّ طويلاً وقد جالت بذهني بعض المواقف المشابهة بيني وبين "حمزة" رغم صداقتنا البعيدة، منها يوم أن نشب عراك بين ابنه "السبع" وبين "ميلاد" ابن "مرقص"، كانا طفلين، والغريب أنّهما صاحبان، بل يكاد يكون "ميلاد" قد تربّى في بيت "حمزة" بعد وفاة "مرقص"، ومثل هذه المسائل عادة ما تحدث بين أطفال قريتنا، وكانوا يجتمعون بعدها للعب مع بعضهم البعض. وقتها أظنّه اعتقد أنّني نصرت "ميلاد" على "السبع"؛ رغم أنّني لا أُخفي أنّ شيئاً ما من هذا القبيل قد تحكّم في مشاعري حين رأيت الولد "ميلاد" مطروحاً أسفل "السبع" بلا حيلة و"السبع" راقد عليه ينهال بالضرب، كان هذا أمام الكنيسة، وكان ساعده قد تغبّر بالتراب فاختفى الصليب الأخضر في لونه، ربما هذا ما أثارني بالفعل، وربما ضعف "ميلاد" وفقده القدرة على مواجهة "السبع" ابن العمدة. كانت الست أم "ميلاد" واقفة لا تمكنّها قوتها الواهنة –المشوبة بالحرج– من إزاحة "السبع" عن جسد ولدها، فراحت تولول، ولولة خافتة بقدر ما يبثها حيلها، إنّما في الحقيقة كان شيء من حرج بالفعل يستولي على ذراعيها وهي تعافر للنهوض ب"ميلاد" من تحت "السبع"، وكأنّها تفرّق بين اثنين من أبنائها، ففرّقتهما ونهرت الولد وعيني ممتلئة بغضب غير معهود منّي، لكنّه انصرف يشكوني إلى أبيه فجاءني مستثاراً؛ تماماً كما جاء ل"علوان"، غاضباً أشد الغضب، ومعه الخفر، وفي يده ولده "السبع"، كان "حمزة" سريع الغضب، سريع الرضا، قال لي وقتها:

– أيجوز أن تشتم ولدي أمام الخلق يا "أبونا"؟

أجبته في هدوء:

– ولدك كاذب، ولم أشتمه يا "حمزة".

– يا سلام! وأيضاً تتهمه بالكذب! عيب عليك.. ولدي تربّى في بيت أصيل يا سيّد ولم يتربَ على الكذب.

وانصرف غاضباً، لكن لم تمرّ أيام وجاء إلى الكنيسة يسترضيني، كانت له ابتسامة تمحو كلّ آثار ضغينة راكدة في أعماق النفس، طرق الباب مبتسماً لا غير، فقلت له وأنا أجذبه نحو صدري:

– صفحت عنك أول ما مشيت يا عمدة.

أم ميلاد

"شواشي" الذرة التي تتأرجح حول "القباوي" تذكّرني بك يا "مرقص"، كان أول لقاء لنا هناك، أمسكتني في يدي وقرصت عليها وقلت:

– بحبك يا "دميانة".

أيام ذاك، لم أكن أعرف عن الحب، فقط كانت البلد كلّها تعرف أنّ "مرقص" خطيبي، لذلك؛ تعصّبت عليه قائلة:

– أنا لا أحب هذا الكلام يا "مرقص".

راح يضحك، أثارني أكثر فاستدرت عنه يعتريني غضب، لكنّه اقترب وقال:

– هذه أول مرّة نتقابل بعيداً عن عيون الناس.

– ليكن.

ينطلق صوت أبي العجوز زاعقاً من عند الكنيسة:

– يا بنت يا "دميانة".

أخرج متلعثمة، كان وجهي ينضح بارتكابي جرماً لا يغتفر، "مرقص" نفسه ارتعش حين سمع صوت أبي، وسقط على وجهه داخل الغيط وهو يهرول مبتعداً، كتمت ضحكي –رغم خوفي– وخرجت إلى أبي.

– ماذا تفعلين في غيط الذرة؟

– جرى منّي "دكر" بط وطرت وراءه لكنّه اختفى داخل الغيط.

– "آمممم"....

كان الارتباك بادياً على ملامحي، نظر لي أبي بارتياب، ثم انصرف عنّي فزفرت ودخلت البيت.

الأحد؛ يوم التجمّع في الكنيسة، أجراسها تدوّي وهي تلج أذني اليسرى، وفي اليمنى، يجيء صوت الشيخ "عوض الله" مكبّراً لآذان الظهر، تحوم الدجاجات والإوز حولي وأنا جالسة على الكرسي الخيزران أمام دكّان "البقالة"، كان دكّاناً صغيراً عبارة عن غرفة مفتوحة على الشارع من بيتي الصغير، ساعدني في تموينه العمدة "حمزة" عقب وفاة "مرقص".

صوت الآذان والأجراس يتناغمان رغم تضادّهما، لا أذكر أنّني أزور الكنيسة كثيراً، حتّى أيام الآحاد، فقط من حين لآخر كنت أروح كي لا يتّهمني الأب "لوقا" بالتقصير في حق ديني، إنّما في الواقع لم أهتم يوماً بسماع تراتيل الآحاد أو حضور طقوس الزيارات، كان الطقس الأخير الذي عشته في الكنيسة هو عُرسي، ورغم أنّني كنت سعيدة آنئذ، إنّما لا أعرف وقتها ما أصابني فدفعني إلى الاختناق، ولم

أمنع دموعي من النزول حتّى وأنا جالسة على الكوشة بجوار "مرقص"، تحسّس بأنامله يدي محاولاً تهدئتي وأردف مبتسماً:

– أهي دموع فرحة أم..؟

تفرّست فيه ببطء ولم أرد، اضطررت لمبادلته الابتسام كي لا ينال من حقيقة ما أشعر، كنت وقتها أشعر بهمّ غريب، أتطلّع في الأيادي التي تتراقص في الهواء وفي الأجساد التي تتلوّى أسفلنا، في الجلابيب التي تتخالط فلا يبدو رجل من الآخر، كلّها عمائم بيضاء وجلابيب داكنة، وكلّها صدور تستقبل صدور وأفواه تلثم وجنات وأنا لا أحتمل، لم يطلني من قبل هذا الإحساس، كانت قدماي تنساقان لشرك مصنوع بإرادة لا سبيل لفهمها، ربما كذلك هي إرادة البشر أنفسهم، من يعلم؟ لعلّ تاريخ العقائد هو نفسه بدعة صنعتها رغبات ومصالح قد لا نعرف عنها أيّ شيء، هل حقاً حبس النفوس هو ما يريده الرّب لنا؟ أن نرهنها من دون مقابل حياتي ملموس؟ اليوم أشعر بأنّني أنزلق إلى تحت بلا سيطرة، كان ما يزعجني حقيقة هو فكرة الأبدية، أبدية الرباط تعني بشكل يجعلني ألتاع وأفكّر كثيراً أنّها أبدية لكل ما هو آت في حياتي، ربما أبدية النعيم، أو الشقاء، أبدية التفاهم، أو التعاسة، كلّ ما كتبه القدر لي سوف يضحى أبدياً، هذا بالطبع بغير أن تصبح لي قدرة على رفض أيّ شيء في مستقبلي.

التوتر يجتاحني، الأنفاس تخرج منّي بكلّ تؤدة، حدقتاي المتّسعتان تثيران قلق "مرقص"، فينحني عليّ ويهمس:

– لا أعرف ما بك! ولا يهمني أن أعرف الآن، إنّما لابد وأن تحافظي على ابتسامتك، على الأقل لكي لا ينتبه من جاءوا ليجاملوننا.

استوعبت منطقه، فاستعدت ابتسامتي، لكنّها باتت شاحبة، وإن لم يلاحظها أحد. عليّ أن أتملّى فيك جيداً يا "مرقص"، هل حقاً أنت الرجل الذي سأتأبّد بين أحضانه؟ من تكون؟ في الواقع لا أعرفك بشكل يجعلني أمنحك قلبي كلّ العمر، مجرّد واحد من عشيرتنا تقدّم لخطبتي ووافق أهلي بلا مشورة حقيقية، ولو.. هل هذا فقط ما يجعل حياتي وقفاً عليك؟

تتطابق كلّ الملامح ولا يبقى سوى التفكير المضطرب، على أيّ حال لقد بات ما سيكون حقيقة عليّ التسليم بها، وهو إنّني الآن زوجة لرجل مؤدب، هادئ، وسيم، لكنّني لا أعرف عنه إلاّ ما يعرفه كلّ الناس في بلدنا.

فأيّ قدر!

* * *

لي "جوزة" أختلس سرّاً أنفاسها، أختبئ خلف فاترينة من الخشب تملأها أكياس "الشيبسي" و"الكاراتيه" و"المصّاصات" و"اللبان"، وأرص "المعسل" وأشد، في الجنّة يا أبو "ميلاد"، الله يقدّس روحك، هو الذي علّمني شرب "المعسل"، فقد كان مدمناً "للجوزة"، كان يلح وكنت أرفض في كلّ مرّة، ولكن لها سحراً لا تقاومه عزيمة، كان يقول:

– يا "دميانة".. يعني بالعقل كيف تخجلي منّي؟ اشربي وجرّبي.

– يا "مرقص" اعقل، والعذراء أنت مجنون.

فكان يغمض عينيه ويضحك ضحكاً صافياً، كان يقول إنّني أشرب "المعسل" معه ولو من غير قصد.

– أتحسبني جاهلة؟ أعرف أنّني أشرب أيضاً بمجرّد جلوسي معك، أنا تركت دبلوم الزراعة لكي أتزوجك يا خفيف الدم!

– وما الفرق إن شربتيها من فمك أو من أنفك؟

صدى صوته يحيط بالمكان، "الجوزة" من رائحته، لقد كانت "جوزته"، وأشعر به يجلس معي وأنا أسحب النفس بعد الآخر، يمازحني بلطف كعادته ويسخر من قلّة خبرتي في شدّ "المعسل".

– شكلك ولا العيال الصغيرة، "هااه".

بدّد بعد زواجنا كلّ تخوّف بداخلي، دخل بي بعد قرابة الشهر، تحمّل توتّري وعدم استعدادي بكثير من المحبّة والصبر، طالما قال لي:

– على أقلّ من مهلنا، الدنيا لن تطير.

ماء "الجوزة" يكركر، والذباب كسول بداخل الدكان، أهشّه فلا يرحل، يقف فوق "كراتين" البضاعة ويبدو أنّ الحرّ قد أضعف قدرته على الطنين، كنت أعرف أنّ اصطياده ما أسهله، يكون بمجرّد ضربات ولو واهنة من كفّ يدي، لكنّني أتركه، فلا جدوى من قنصه، إنّه يشبهني، مكتئب، خامل، ومستسلم للموت كيفما ووقتما يجيء.

– ب"شلن ملبّس".

أركن "الجوزة"، أتنهّد مبتسمة وأقوم أتناول علبة "الملبّس" وأعد بضع منها وأعطيها للصبي.

– خذ يا حبيبي، كيف حال أمّك؟

– الحمد لله.

يهرول الغلام بعيداً وهو يتنطّط، أتابعه ببصري شاردة.

– "إميانة".

يلتقطني "بسطاوي" من شرودي.

– شيخ "بسطاوي"، اقعد.

فيجلس، يتناول "الجوزة" ويسحب نفساً طويلاً كعادته، هو الوحيد الذي يشاركني تدخين "المعسل" بعد "مرقص"، يرفع رأسه نحو صورته الباهتة التي تتصدّر جدار الدكان، ويهزّ رأسه بأسف، دون أن يُفلت "الجوزة" من بين شفتيه، فيحضرني طيف "مرقص" مبتسماً، يخرج من بين زوايا الصورة، يقرفص وسطنا، ويتناوب معنا شدّ "المعسل"، ف"يرغي" مع "بسطاوي"، يجاوبه "الرغي"، يلتفت "مرقص" لي، يبتسم، تغشى عينيّ دموع حارقة، ويفرج فمي عن ضحكة قصيرة أليمة.

ميلاد

لم تعد الأماكن محفوفة بالحنين، ما كلّ هذا الصمت الذي يعشّش في كيان قريتنا؟ أطياف تحوم حولي محاولة تضليلي، ويوماً لم أكن مضلّلاً، طول عمر "أبونا لوقا" وهو يقول عنّي:

– الولد "ميلاد" نبيه ومخه حلو، يدرك جيّداً هدفه من الحياة، وسيكون حاجة من اثنين، يا دكتور يا مهندس.

لكنّني بصراحة لم يرقني يوماً أن تنحني رءوس البعض في قريتنا باحترام مبالغ فيه وهم ينادونني يا دكتور، أو يا "باشمهندس"، على الرغم من تفوّقي في الدراسة، وحتّى حين طلعت الأول على المدرسة العسكرية الثانوية في البندر، يومها فرحت القرية، وكأنّ كلّ واحد منهم هو الحاصل على الشهادة، وفرح أصدقائي المقرّبون، خصوصاً "حمدي"، سألني وقتها:

– ماذا نويت؟

فلم أجبه، في الحقيقة، كنت أميل لكلية الحقوق، لا أعرف لماذا؟ إنّما لطالما شعرت أنّ قريتنا بحاجة إلى من يدافع عن أهلها البسطاء أكثر ممّا تحتاج إلى طبيب أو مهندس، وقد عزّز بداخلي أكثر هذه الرغبة، ما رأيت أمام الكنيسة من منظر "علوان" وهو راقد يفترش

التراب لا حول له ولا قوة، وجسده مثخن بالجروح، كنت أعلم عن دائه، وكنت أعلم أيضاً عن احتقار قريتنا له، غير أنّه في النهاية من بني آدم، وكان يفتقد بشدة وجود من يزود عنه، كدت أنزل على قدمي "أبونا لوقا" أقبّلها، حيث شعرت بأنّه إنسان حقيقي، عندما وقف أمام وجه العمدة ليحيل عن "علوان" الأذى، ولا يهم إذا ما كان مخطئاً أم مصيباً! في الحقيقة كلّ ما يهم أنّه في هذه اللحظة شعر بالضعيف، وسانده، ولو على حساب علاقته بالعمدة، وصداقتهما.

والعمدة "حمزة" رغم هذا الموقف، هو رجل طيب ومحبوب من جميع أهل القرية، ليس من باب حبّي أنا شخصياً له، ولا من باب أنّه –سرّاً– يساعدنا دون أن يفصح لأحد، ولا حتّى أنا الذي يعرف ولا يريد أن يحرج أمّه، لكن له وجه يرغم كلّ من يراه على الانضمام فوراً إلى عالمه الآسر، به لغز يستقر في عينيه وابتسامته، لغز لا يميّز سواه من البشر، وليس له سبب بعينه، فقط شيء غريب لا يمكن التعبير عنه بسهولة، أنا لا أعني ضحكته المجلجلة التي تنتشر في أرجاء القرية، ولا أعني هيبته بقدر ما أعني بساطته، كذلك أظنّني لا أعني عطفه وحبّه لأطفال القرية وهو يعطيهم النقود التي يفرحون بها، ويربت عليهم، ويسمع شكواهم، بل ويتداعب معهم وكأنّهم كلّهم أبناؤه، صوته الأجش وجسده الفارع الذي يضفى عليه هيبة ما يفرضان؛ ربما بطبيعة القرية وطبيعة أهلها البسطاء، الكثير من الاحترام والتوقير نحوه، وكذلك الحب، فمن يأمره يأتمر، ومن ينهره يرتعد، وفي ود شديد، إنّما كان أبيض القلب، كان بسيطاً للغاية،

يجلس قبالتنا فوق "الدِكة" واضعاً الساق على الساق، مدخناً الشيشة الخاصة والتي لا يُسمح لرجل باستعمالها، بكثير من الإباء والوقار وهو يحتوينا بعينيه النافذتين المليئتين بطيبة غير مفتعلة. وكان الشيخ "بسطاوي" يُشعل له "ركية" النار في برد الشتاء، ويرمى داخلها قناديل الذرة الجافة –الكُنبل– التي سرعان ما تتحوّل إلى "بص" يغذّي به "معسل" الشيشة، و يأتينا بالشاي والقهوة من الداخل إلى الساحة التي تتقدّم بيت العمدة، ولأنّني يتيم، مات أبي ولم أره حتّى، فقد كان لي موضع خاص داخل قلوب أهل القرية، حيث يحلو لهم أن يعتقدوا أنّهم كلّهم شاركوا أمّي في تربيتي، وكذلك كنت أجلس في دار العمدة مع أبنائه وأبناء إخوته –خصوصاً في أمسيات الشتاء الباردة لكي أتدفأ– وهو يدخّن الشيشة، أو حتّى لأنتشي بحكاياته التي لا تنفذ، حكايات أتشوّق لسماعها على لسانه من حين لآخر، عندما يرتدّ إلى الوراء، ويمصمص شفتيه بأسف على الزمن الذي طار وترك العدوى البيضاء تتفشّى في شعر رأسه، يتحسّسه بيده اليمنى، وباليسرى يسحب أنفاس الشيشة، قائلاً:

– يا سلام، قلبي كان جامداً، والله عمري ما خفت شيئاً، أحب دائماً المشي في الطريق "الوسطانية"، المليئة بالعفاريت، الطريق المظلمة، التي لا يقدر رجل أن يعتبها من بعد صلاة المغرب، لكن كم كان يحلو لي المشي فيها بالليل، ولوحدي، رغم أنّ هذه الطريق مدفونة فيها واحدة حرقوها هي وعيّلها الموجود في بطنها، أعوذ بالله، عيّل من حرام.

وما أكثر توقّفه المباغت عن الحديث، حينما يتململ أو يكح كحّاً متواصلاً لاحمرار الوجه، ونحن نثب بأعيننا نحوه لاستكمال الحكاية، ثم سرعان ما يستكمل حكايته، بعد أن يزيل بكمّ جلبابه قطرات اللعاب الناتجة عن السعال، يرجع برأسه ويضيف:

– الطريق "الوسطانية" قتل فيها المرحوم "توفيق بك" خالي، طبعاً كلّكم سمعتم عنه، والله، طلع لي أكثر من مرّة وحذّرني من المشي فيها بلا رفيق.

والعمدة "حمزة" لم يخجل يوماً من تكرار حكاية خاله "توفيق بك" كلّ حين، إنّما أمامنا فقط –نحن الأطفال– وكأنّه يخشى نظرات من عاشها من كبارنا في اتّهامه بتحريف الأحداث ولو بشكل طفيف، لصالح النسب ليس أكثر.

توفيق بك

كان أثرى أثرياء البرّ كلّه. يقولون: يمتلك زمامها غرباً وشرقاً.. باشا من الجدّ. كان يهوى ارتداء الجواهر والخواتم الذهبية الباهظة طوال الوقت، يضع على رأسه الطربوش، ويلبس بذلته البيضاء التي يحتفظ بأكثر من عشرين بذلة من نسختها، يمشي بخيلائه وسط أراضيه المتناثرة من دون أول لها ولا آخر بارماً شاربه المفتول إلى

أعلى، قيل أنّه كان يمتلك مزرعة خيول ليس في البرّ كلّه مثلها، لا يبيع ولا يفرّط في فرس، يشتري وينمو متن المزرعة يوماً إثر يوم، وقتذاك لم يكن في زمام الصعيد من يضاهيه في مال ولا عزّ، إنّما شاء الله أن يُحرم من نعمة الخلف، وألاّ يصبح وريثاً لكلّ ذلك الجاه سوى مرتزقة العائلة وأنطاعها، كما كان يستهويه أن يصفهم، يجلس مع الخدم يسامرهم من شدّة الفراغ، يرون في عينيه نظرة الحسرة وهو يقول:

– حرمني الله من العيال ورزقني بالخيل.. أرى في الخيل اكتمالي.

لكن كلّ الخيول التي امتلكها يوماً لم تعن له كما فعلت آخر "فرسة" امتلكها، كانت "فرسة" جامحة، جاءته هدية من صديق له في "تركيا"، وكان يعتز بها ويحبّها، كان يقول عنها:

– هي غالية عندي "غلاوة" الأبناء المكتوب عليّ ألاّ أراهم.

وكان بنفسه يهتم بها ويطعمها بيده، يرفع بين أنامله قطع السكر ويمدّها لها، تتّسع فتحتا أنفها وتدنو من يده فيلقمها السكر كأنّها طفل رضيع، كانت "الفرسة" جميلة، قالوا أنّها أجمل من امرأة البك نفسها ذات الحسب والنسب، صهباء ولها غُرّة بيضاء تتدلّى فوق جيدها، كرّس لها وقته حتّى لم يعد لديه وقت لبيته أو للست هانم، يطعمها بيده، ويخرج في كلّ صباح ويحمّمها شبه عار متخليّاً عن

وقاره وهيبته، قالوا أنّ "الفرسة" مسحورة وأنّ البك قد جُنّ، كانوا يرونه بأعينهم وهو يحسّس على ظهرها فتتدلّل عليه، يميل على أذنها ويتهامس معها، وقد تستدير عنه مبتسمة فيعود ويسألها الغفران، كانوا يتهامسون:

– ما هذه الخرافات؟

– ما الذي ارتكبه في حقها لكي تغفر له؟

كانت التساؤلات التي تدور في رءوس أهل القرية عن أصل السر، الذي قد يدفع بالبك إلى الجنون، تساؤلات أغلبها ساخر، وبعضها مشفق، كانوا يقولون:

– البك لم يُجن، البك نُده.

–" الفرسة" ركبتها جنية من جنيات "تركيا" وخطفت البك.

– البك ضاع يا أولاد.

وكانت "دُرّة" هانم؛ سليلة البكوات والبشوات، كثيراً ما يعلو صوتها وهي تصيح بالبك:

– أفق يا توفيق.

لكنّه ينظر لها بلا اهتمام ويمضي عنها لـ"فرسته"، التي حين تراه، فهي تصهل صهيلاً عذباً يبدو كصوت قادم من الجنة، وتتحامل على ساقيها الخلفيتين وتظلّ تحرّك ساقيها الأماميتين في وجهه تلاعبه.
علاقة مبهمة نشأت بين الاثنين، دفعت "دُرة" هانم لأن تهجر البيت، طبعاً كان هذا لفترة وجيزة رجعت بعدها حالما أيقنت ألاّ جدوى من اعتناق الغضب ولا فائدة ترتجي من "توفيق" بك، غير أنّها عادت بجنون مشابه، تقف في شرفتها وتتحدّث مع أناس وهميين، تتحدّث لساعات طويلة متواصلة، تضحك وتمشّط شعرها بأناملها، فيزداد تساؤل الناس عمّا جرى "للدُرّة" هانم؟ ماذا رأت كي تبلغ هذه اللوثة؟ هل اختلقت رأسها مثل أولئك الوهميين لتجد –على الأقل– من تشكو له حالها؟! والبك لم يعد يميّز أحد بعينيه سوى "فرسته"، بات بصره مشتّتاً باستمرار، والتساؤلات مع الوقت أصبحت تهكّمات، وتكهّنات لم تُفصح عنها الألسنة، بل دارت داخل الرءوس، هل صحيح أنّ البك يـ....؟! أعوذ بالله، وتظلّ التكهنات داخل الرءوس إلى أن جاء اليوم الذي ضرب أحد خدمه بالكرباج، في سابقة لم تكن ذي قبل، لمجرّد أنّه نسى أن يضع لها دلو الماء كي تشرب، ثار ثورة غير عادية، وانقلب إلى ماسورة منفجرة من السباب والعصبية، وأمر بقية الخدم أن يخلعوا عن الرجل المسكين ملابسه، وأن يكبّلوه بحبل متين، ثم نزل بالكرباج على جسم الرجل أمام "الفرسة"، وفي كلّ

ضربة يلتفت نحوها فيرى بداخل عينيها إصراراً على استئناف العقاب، يقول لها:

-" هه"؟

فلا تبدي حركة، فيستمر بضرب الرجل.

- "هه"؟ هل نال العقاب الكافي؟

الرجل يصرخ:

- آخر مرّة يا سعاااااادة البك.

وهو مع كلّ هبوط بالكرباج على جلده يلتفت لـ"فرسته" ويصيح:

- "هه"؟

ولم يُمسك عن ضرب الرجل إلاّ حين حمحمت "الفرسة" وبدا له أنّها اكتفت.

وكانوا يتساءلون: كيف خلبت "الفرسة" لبّه؟

بعدها بدأت الشكوك المخفية داخل الأدمغة تتحوّل إلى همسات مخفية أيضاً، إنّما داخل بيوت الخدم وعششهم، وبيوت أهل القرية، حتّى هذا اليوم، من هذه الأيام التي يختفي فيها القمر ويسيطر الظلام على أنحاء القرية، كان البك عائداً من "قعدة" مزاج –فهو صاحب كيف ويروق له السهر وشرب الخمر– من بيت أحد الأصدقاء –القريب من بيته– وارتأى أن يختصر الوقت ويعود في هذه الطريق "الوسطانية"، كانت "فرسته" تتهادى على مهل في سيرها، وكانت أعواد القصب التي تسوّر الطريق على جانبيها تتنصّت له وهو يغنّي لـ"الفرسة"، كان يدندن لها من أغنية الست "أم كلثوم":

– هل رأى الحبّ سكارى مثلنا؟

وحظّه أن يخرج عليه هذا الليل جماعة المطاريد، هذا ما قيل، لم يؤكّد أحد أو ينفي ما إذا كانت إشاعة أم لا؟ كانوا مجموعة ملثّمة من الرجال، سلبوه كلّ ما يرتدي من ذهب، ثم أردوه قتيلاً هو و"فرسته" التي راحت "تعافر" مع الرجال لحمايته من بنادقهم، لم تكن هناك سيطرة على هياجها، قالوا أنّها أصابت اثنين أو ثلاثة منهم بجروح غائرة، قبل أن تخترق طلقة بطنها فتسقط جوار البك وتصنع دماؤهما مستنقعاً ما زال حتّى الآن موضع خشية أهل القرية.

والعمدة يرى أن المطاريد لا ثأر لهم، ولا ثأر منهم، لذلك كان قضاءً وقدراً أن يقتل "توفيق" بك فى هذا المكان، وأن يقطع عفريته الطريق على الرائح والآتي، وأن تكون الطريق "الوسطانية" هي الحل لكلّ من يرغب في دفن عاره أو أخذ ثأره.

السبع

في الطريق "الوسطانية" وفى أوقات متفرّقة، كنت أركب ظهر "عزيزة" الحمارة خلف الشيخ "بسطاوي"، وهو ذاهب إلى مقهى المعلم "سوسو"، أو وهو عائد، أو وهو رائح إلى "القباوي"، أحياناً يخيّم علينا الظلام فأصرّ أن أركب قدّامه من خوفي، فيضحك ويقول بعسر واللعاب يسيل من فمه:

– "إسطاوى" قلبه "دامد".

لكنّني كنت أتلفّت حولي فزعاً، أشعر أنّ في الظلام أشباح تتربّص بنا.

و"بسطاوي" لم يخف أحد من آبائنا علينا منه، هو صديق كلّ القرية، والعين التي ترى كلّ أسرار البيوت، بلا تحفّظ أو حيطة، أمّا الحمارة "عزيزة" حمارته، فهي اسم على مسمى، "بسطاوي" يعتبرها – دون مبالغة– صديقة له، بل صديقته الوحيدة هي وكلبه "نونو"،

يعاملهما معاملة تثير تعجّبي، من طريقة اهتمامه بطعامهما ونظافتهما، وحتّى الجلوس معهما في "الجرف الكبير" نتسامر، كنت أرافقه في خلوته هناك، يتمدّد بجسده فوق "النجيلة" ويبدأ في الحكي، يحكي لنا قصصاً غريبة، بلسانه الذي لابد وأنّ يستوقفني كثيراً كيما أفهم عباراته المقتضبة، حكايات أغلبها عاطفي، كيف أنّه أحبّ البنت "فلانة" لكن لسانه مربوط ولا يمكنه البوح، يقول:

– "آرفين.. أل آجي آقول حبك تضحك وتجري بعيييييد.. إش آرف ليه؟".

فيستغرقني ضحك لا إرادي عند أن أتخيّل منظرهما وهي تّتهمه بالخرف وتهرول بعيداً عنه، يحكي لنا أيضاً عن البنت "فلانة" التي طلع عندها الجرب فقرف منها، يمتقع وجهه وهو يقصّ لنا حكاياته معها ثم يضيف:

– "أخاف ع نفسي.. إسطاوي يقعد يهرش إسط الناس.. إخ..".

وحين يكون في ذروة هياجه إثر موقف ما، يجلس يشكو لنا وجيعته، يسب ويلعن ويوجّه كلامه لـ"عزيزة" و"نونو" كأنّهما بشر مثلنا، وكم أشعر أنّه منزعج على الدوام من الناس! أظنّ لا يفهمونه، أو بالأحرى لا يفهمه إلاّ بعضهم، خلقته التي لا حيلة له فيها تضعه أحياناً نوط سخرية مجحفة وتسمعه بأسى تعليقات لاذعة، لا تمكّنه

عثرة لسانه ووهن تفكيره من الرّد عليها، فيستسلم لمزح المتهكّمين وشاغري الوقت الذين لا يجدون خلاه لتسلية عابرة أو كلمة ساخرة، رغم أنّ البعض ممّن يغدقون عليه بصدقة نقدية أو هبة عينية مقرّبون إليه ولا جدال في حنوّهم عليه، مثل أبي الذي يمعن بشكل إنساني محض في الإحسان إليه، سواء كان هذا بنصيحة محب أو نفحة كما يطلق عليها أبي، قد تكون أحياناً مبلغاً بسيطاً أو جلباباً قديماً بل حتّى أنّه هو الذي ابتاع له يوماً حمارته "عزيزة"، وكانت جلسة "بسطاوي" المعتادة إمّا في الدوار وإمّا مع أبي على مقهى "سوسو"، إذ يطيب له الجلوس معه وملازمته وخدمته والاختلاط به حتّى ولو خلا الأمر من النفحة، يجلس متشبّهاً به، ويضع الساق فوق الساق بكبر لذيذ وخيلاء محببة، يحتسي الشاي ويشاركه الأحاديث حتّى مع عُمد القرى الأخرى وكأنّه واحد منهم لكن بلغته الطلسمية الطفولية وتفكيره المحدود، فيتندرون به ويمازحونه مزاحاً لا حرج فيه ولا تجريح، وكان البعض منهم أحياناً يلعبون معه الطاولة على نهج طريقته هو المضحكة في اللعب بالنرد وصف القشط.

وكان "بسطاوي" ينهي جلسته على المقهى حين ينصرف الجميع فيتجوّل –قبل أن يذهب لينام في غرفة أعدّها له أبي في دارنا– في دروب القرية الخالية من السائرين أواخر المساء إلاّ من جرو بقارعة طريق أو هر يموء خلف نخلة أو "علوان" المترنّح الذي قضى ليلته بأحضان زجاجة خمر، فيشعر وكأنّ كلّ دروب القرية ملك له، يلهو لهوه الهزلي بضرب زجاج نوافذ بعض البيوت بمزاح فينكسر ما ينكسر

ثم يهرول يضحك بعد إيقاظه النائمين بكنف الليل، فيبدو ظلّه الهزيل كشبح يجوب طرقات القرية كلّ مساء.

ورغم أنّ كلّ أطفال القرية يحبّونه إلا أنّ شكله كان يجعلنا أحياناً؛ إضافة لحبّنا الشديد لملاغاته، نتربّص به، ثم نلقيه بحجر أو عود ذرة جاف، فيخلع ملابسه ليصبح عارياً كما ولدته أمّه، ويجرى لاهثاً خلفنا وهو يصيح:

– يا أولاد "السراميط".

و"بسطاوي" كان يقوم بكلّ مشاوير الدار، وبرضا كامل، من صحن غلّة القمح فى الطاحونة وحتّى حشّ برسيم البهائم، أرافقه في جلّ تلك الأعمال، لم يكن يشعر بأنّ له صديقاً من أطفال القرية مثلما يفعل معي، ربما لوجوده في دوّارنا نفسه، أو لارتباطي به منذ كنت أحبو، أوكل له أبي الاهتمام بي وبأحمال الطفولة، وكانت له عادة في التذمّر أمام أبي، لا يجرؤ على الاعتراض على أمر أو الشكوى من أحد ضايقه، فقط يحتقن وجهه، تنتفخ عيناه ويبرطم، غير أنّ أبي يشعر به هذا الشعور الذي لا يدركه سوى رجل يمتلك الفطنة، ف"يناغشه" حتّى دون أن يحاول معرفة سبب ضيقه، إنّما "بسطاوي" يكتم غيظه ثم يلجأ لي ول"عزيزة" و"نونو" فينفجر متبرّماً، ساخطاً ولاعناً، كثيراً ما أرى الدموع تملأ عينيه وهو يقص على مسامعنا ظلم البعض له، ثم أراه أيضاً وهو يضم "نونو" إلى صدره،

فتصيبني دهشة ما بعدها دهشة، الغريب أنّ "نونو" كان يطيعه طاعة مضحكة، يصفّر له بفمه، فيعدو نحوه ولو من آخر الطريق، ولو على صوت الصفارة، كأنّما "نونو" يميّزها بالتحديد ويعرف صاحبها، ألفة مذهلة تجمع بينه وبين "عزيزة" و"نونو"، كانت سبباً لاختفائه أكثر من يومين، ثم عودته وقد انقطع عن الأكل والشرب ولا يخاطب أحداً حتّى أبي، ذلك حين سُرقت "عزيزة".

وقتئذ كان الخبر مضحكاً للبعض –مثلنا نحن الذين نعرفه ونعرف خفّة مخه– وغريباً للبعض من أهل القرية، إنّما بالنسبة لـ"بسطاوي" فقد كان كارثة، أن يتجرأ بشر على وجه الأرض، ويقوم بسرقة "عزيزة" صديقته، أقام الدنيا، ولم تقعد، خرج ليومين كاملين يبحث عنها في كلّ القرية، والقرى المجاورة، وليس من خبر، كان يستوقف المارة الذين يتقهقرون إمّا ضحكاً وإمّا خوفاً من شكله غير المعتاد:

– "زيزة".

لكنهم يسرعون بالابتعاد عنه وهم يهمهمون.

بدا أنّ عقله خفّ أكثر، وركبه هاجس إذا لم يستعد "عزيزة" فإنّ القيامة آتية، والله لابد سوف يُرسل ملائكة للتحقيق في هذا الشأن، وخراب الدنيا قادم دون ريب. عرض على أبي أن يبلّغ عن اختفائها في النقطة ليبحثوا عنها، أبي لم يتمالك نفسه من الضحك وقال:

– يا "بسطاوي"، كلّها أيام ونعرف من سرقها.. لكن اليومين يومين فرح وأنت تعرف هذا.

قال لي يومها وهو يجزّ على أسنانه:

– "حدش خاف ع حد.. دنيا بت كلب سرموطة".

وأصرّ على الذهاب إلى النقطة بمفرده، يتملّكه حزن بليغ على صديقته، الخفر شالوه بالعافية من أمام مكتب الضابط، الذي ضرب كفّاً بكف وهو يقول له:

– يا مولانا، لازم تتّهم أحداً وسنقبض عليه لسؤاله.

كان ينظر إلى الصولات والعساكر الذين يضعون أناملهم فوق أفواههم ليكتموا الضحك، ويتغامزون، ويغيظونه بتحريك حواجبهم بكثير من استفزاز واستخفاف، ثم يحتقن وجهه، وتهتزّ عيناه، فيبصق عليهم، ولمّا انفلت أحدهم ولم يقو على السيطرة على ضحكه، هاج وماج، لم يكن ليحتمل السخرية في هذا الوقت تحديداً، راح يبرطم بكلام غير مفهوم، قلع "هدومه"، و"شخر" وسب، وكلبش في جسد العسكري منهالاً عليه بالضرب، في وجهه، وصدره، وبطنه، والعسكري لا يتمالك نفسه، فيقهقه أكثر، ربما لا يفهم "بسطاوي"

كلّ الأشياء بوضوح، لكنّه في النهاية بشر من لحم ودم، ويعّز عليه أن يسخر منه الخلق، وقد يتقبّل هذه السخرية بسعة صدر، إنّما في حرقته على "عزيزة"، أنفق تريثه، وفار الدم في رأسه وغلى، وكانت ملامح وجهه كلّها ترتعش، خرج لسانه من فمه غارقاً في اللعاب، وانقضّ على العسكري، انبطح فوقه وتشبّث به كعلقة وهو يصيح:

- "إت اضحك؟! ماشي.. اضحك يا إن الناكة".

قام الضابط حين تجاوز هياج "بسطاوي" حدّه-رغم كلّ الذين يجاهدون في فصل جسده عن جسد العسكري- وغلطته في هذه اللحظة كانت، أن يفكّر؛ مجرّد تفكير، في سحب "بسطاوي" من كمّ جلبابه بشدّة، وهو يزعق به، غلطته أنّه لا يفقه طريقة التعامل مع فئة "بسطاوي"، نبّهه بنظرة من جنب عينه، نظرة وعيد، وتحذير، ولم يحتمل أن يخدش الضابط كبريائه ويشدّه من كمّ الجلباب وينهره وهو في قمّة انفعاله، فثمّة قوة تسكن ذراعيه وتنتظر داخل عضلاته، قوة درويش يهيم في عالم غير مرئي، تربض في مجرى دمائه، تصمد، تتلافى أيّ استفزاز محتمل طوال الوقت، قوة كانت متأهّبة بالفعل، مستنفَرة، مستعدّة لأيّة مواجهة ممكنة، خاصة في لحظة الغضب والحزن التي يعيشها الآن، والتي تعفيه من أيّ لوم. غلطة كلّفته، وبسرعة لم يستدركها، دون حتّى أن يتّخذ حذره، أو يحتاط لما قد يبدر من "بسطاوي"، الذي لا يفرّق بين ضابط ورقّاصة، كلّفته سقطة على الأرض وسط الصولات والعساكر.

هرول البعض إلى الضابط والتفّ حول "بسطاوي" آخرون، فهم يعرفونه، لذلك فيهم من سقط ضاحكاً أكثر حتّى ولو أثار هذا حنق الضابط عليه، وفيهم من اكتفى بالفرجة دون تدخّل، آخر الأمر، لم يفكّر أحد أو تواتيه ذرّة من جرأة، تعد في حينها حماقة بلا شك، أن يدنو من هالة مولانا، وهو يركل العسكري، فداء الغيظ والسخط، وكان صوت أبي قد بدأ يرتفع من عند مدخل الباب، ويتحوّل في غمرة ما يحدث، إلى صوت ملتاع مندهش، وكان الوحيد القادر على تهدئة "بسطاوي"، لمّه من فوق العسكري، وتأبّطه بلوم، فسيطر عليه بسرعة، وأجلسه على الأرض:

– اهدأ.. اهدأ يخرب وقعتك.. تفعلها مع الحكومة يا ابن المجانين!

لكن الضابط اقترب من أبي وهو يقول مهلّلاً:

– يرضيك يا عمدة؟! يبهدلني أمام العساكر بهذا الشكل؟

– امسحها فيّ، هات رأسك أبوسها.

– العفو.. العفو يا عمدة.

وبعد جدل مرّة واعتذار مرّة أخرى زفر الضابط وتمتم وهو يضرب كفّاً بكف:

– حصل خير يا عمدة.

خرج أبي ب"بسطاوي" من قلب النقطة، وهمهم:

– كان لازم تسمع كلامي، ها أنت جئت النقطة، وماذا فعلت؟

غير أنّ "بسطاوي" ظلّ طيلة أيام لا يتحدّث مع أبي، يراه قادماً فيولّي عنه وجهه...

كان يعتقد أنّه قد تقاعس عن دوره في البحث عن عزيزته.

* * *

هاش شعره أكثر، وذبلت عيناه أكثر، لم يعد "بسطاوي" يحمل تلك الابتسامة الخاصة، أو ذلك المرح المعهود، كان ينام ويستيقظ مردّداً:

– "زيييييييزة..".

وفي صباح، قبل زفافي بيومين أو ثلاثة، انقلبت الدنيا بعد أن أخذت تهدأ قليلاً، طرق باب الدوّار بعض رجال القرية يخبرون أبي نبأ موت "عزيزة"، فيما بين السخرية وبين الأسف، آثر أن أنقل له الخبر بنفسي، لعلّه كان يخشى من ردّ فعله، صُعق، لم أخبره، تركت قسمات وجهي تبلغه النبأ الأليم، استشفّ بقلب جزِع وقوع المصيبة، فخرج مهرولاً، لا يلبس إلاّ سرواله، ومن دون أن يتأكّد من الخبر، أحسّ بما آت، خرجت من خلفه ورأيته يرمح في جنون، حدّد قلبه خريطة طريقه فمضى في ثقة، بغير أن يحاول معرفة أيّة تفاصيل، وراح يصرخ، ويصرخ، منطلقاً دون إرادة إلى حيث ينبئه هاتفه الروحاني، بلغ المجرى، كان الناس مجتمعين حول "عزيزة"، مضى يحملق قليلاً في عينيها المصمتتين وجسمها المسجّى على ضفّة المجرى، غاثت في عينيه الدموع، وأقعى أمام جثتها المرمية بإهمال، ينتحب كالأطفال، ويحتضنها يسألها أن تستقيم واقفة على أقدامها، ويصرخ:

– "زيزة.. زيزة".

كان المشهد كأنّه فقد حقاً أقرب الأحبّة، وهو يتمرّغ في طين المجرى ويعوي، بكلّ انفعال وألم وحسرة يعوي، ويتوعّد الفاعل حين يعرفه –وسيعرفه– بثأر شنيع، ويقسم بالله ويحلف بأغلظ الأيمان أنّه لن يفلت من عقابه المحتّم، لم يكن أحد أبداً ليسيطر عليه يومها، حتّى أبي، لأول مرّة تبجّح في وجهه حينما زعق له ونصحه أن يكفّ عن

هذه التصرفات ووعده أن يعرف من عملها، إنّما "بسطاوي" شبّ ناهضاً والطين يلطّخ وجهه وصدره العاري ورفع سبّابته في وجه العمدة نفسه منفعلاً وقال كلاماً كثيراً متفرّقاً لا يُفسر، يتّهمه علانية بما حدث لعزيزته، ثم جرى بعيداً عنه، جرى حتّى وصل إلى النيل وقعد دقائق يرمق المياه المنحدرة نحو الشمال ومشهد "عزيزة" لم يزل باقياً في رأسه، شرد بخياله بعيداً بعيداً حيث الكلّ رائح، الكلّ ميت، وراح يفكّر حائراً محزوناً في الموت هذا الذي يهبط علينا بغتة ويحملنا إلى السماء.

بسطاوي

يسمع الناس تقول:

– الروح طلعت.

إذن أين هي الروح؟ لماذا لا نقبض عليها فنؤجل طلوعها؟ ولماذا تطلع من دون الجسد؟ ما الحكمة من بقاء الجسد؟ ليس إلاّ كيما يُرهق الأحبة والأقارب بمراسم لا تعدو كونها أكثر من عبء لا جدوى منه، دفن وصلاة وجنازة ورثاء وعويل وعدّيد.

جاب بعينيه جسمه من أوله لآخره يبحث عن الروح، عندما زهق، أشاح بيده ومصمص شفتيه، تفكيره الذي لم يصل إلى راحة وباله

المليء بخيالات عقلُه لا يجد لها إجابة دفعاه أن يخلع ملابسه ويقفز إلى المياه المندفعة، فقفز "نونو" خلفه.

كان الرفّاس قد شرع في الحشرجة، رفاس ينقل أهل القرية إلى غرب البلد، يخرج منه دخان الموتور الجاز يضبّب كلّ العيون، ويسبغ على جوّه لوناً رمادياً يخنق الأنفاس، رفاس وبينما ينفصل عن العوّامة، يكاد يخلق حوله لثاماً من دخان كثيف، كما يبدو ضجيج الموتور كمطرقة تهوى متتابعة على برميل من صفيح، تتقطّع الضجّة، ثم تخفت حدّة هذا التقطع، لمّا ييمّم الرفّاس وجهه شطر الضفّة المقابلة، وتميط الريح الطفيفة المتراقصة فوق حلقة المياه لثام الدخان، ويغور جسم الرفاس رويداً في صفحة الأفق، يتحوّل إلى نقطة يجذبها خطّ الضفّة الأخرى، يرتّقها بثوبه المرفرف على أطراف البصر.
أمسك "بسطاوي" في دفّته من الجانب البعيد عن مروحة الموتور، فتحرّك به ومخر عباب الماء.

ضرب الرزاز وجهه وهو يتشبّث في الرفّاس بمشقة، دغدغته الأمواج، جدّف بساقيه النحيلتين، كان "نونو" يتبعه رافعاً رأسه خارج سطح المياه، أمّا "بسطاوي" فقد غادرت رأسه حيز هذا الكوكب وحلّقت في أعالي السماء، أعلى من السحب والغيوم، رأى الطيور تحلّق أسفل منه فلوّح لها، كان شيء يرتحل به إلى أعلى، إلى حيث لم يصل بشر ولم يحط خيال، شيء يهاتفه من داخل أعماق نفسه.. الله

قريب، قريب أكثر ممّا يعتقد بنو آدم، لكن.. لم لا يستطيع رؤيته! أين أنت يا الله! كيف تبدو؟ أشعر بك، أريد أن أراك.

وصل البر الآخر وخرج عارياً من وراء الرفّاس وهو يلهث، تعجّب البعض لكنّه انصرف عنهم بعد أن اختطف من يد أحدهم قطعة بسبوسة، مضى وهو يقطر الماء داخل غابة من النخيل على تبة أعلى المرسى كان قد اعتاد المجيء إليها.

خاض بقدمين عاريتين بركة من ماء متخثّر فداس على سن حاد غار داخل بطن رجله فطفت دماؤه إلى سطح المياه المتّسخة سوداء اللون ونشرت بقعة أكثر دُكناً كانت تتّسع أمام عينيه، ببصره راح يتابعها وهي تنفرش على المياه ويختلط لونها الأحمر القاني بلون الماء الأسود ثم تزول رويداً رويداً.

بعدها بقليل شعر بالألم وعرج حتّى بلغ حافّة البركة.

جلس ورفع قدمه فقطب جبينه وزمّ شفتيه حين رأى قدمه تفصد منها الدماء، تحوّل بصره إلى "نونو" الذي لاحت بعينيه نظرة حزن وأخذ يلعق قدمه في محاولة لأن يشاركه الألم، راح يتجوّل ببصره حوله عسى أن يكون هناك أحد يسعفه بخرقة يحجز بها خيط الدماء فلم يجد، خشيّ أن ينهض فيضغط على الجرح ويتألّم، فقبع مكانه ورمى رأسه إلى الوراء وتعلّقت عيناه بنسيج الأغصان المعترك أعلاه حاجباً

الشمس من الدخول، يزداد الغمام على بصره فلا يعلم ما باله، غريب أن يرى الدنيا بعين ثملة، لكن هذا الدوار لا يألفه، المشاهد تتراقص أمامه.

إلى أن مرّ الوقت وتوّقف نزف الدم من جرحه، ثم بحذر قام ومشى على ساقه.

كان الألم قد زال أو أوشك فاطمأن قليلاً وأكمل طريقه خارج لجّة الأشجار بعرجٍ خفيف، دنا من الشارع الإسفلتي، كانت السيارات "الكبّوت" ترمح أمام عينيه فيتمدّد ضباب عينيه المباغت، العالم من حوله مجرّد خيالات تتراقص لسيارات وأبنية وحركة دءوب، شمس النهار الحمراء تدّك صلعته الخفيفة، وقف بجسده النحيف لا يستره غير سروال يصل لما قبل الركبة.

لمح على مقربة بنهاية الطريق المقابل زرع قصب، ركض –رغم السحابات التي تكتنف عقله– لا يعتد بعدو السيارات والمركبات فعبر الشارع وكسر عودين وتربّع بمنتصف الطريق يلوك القصب مثل سكران، أخذ يمضغ فيسيل من بين شفتيه لحاء القصب ممزوجاً بلعابه فيجري على شعر صدره الخشن ويلزج، و"نونو" يلهو بين السيارات، يروح لجنب الطريق الآخر ثم يجري قادماً وهو يحرّك ذيله مداعباً إيّاه، هزّ "بسطاوي" رأسه يصرف ذبابة جذبها السائل أعلى شفتيه وكان قد أوشك على أن يفرغ من مضغ العود الآخر كأنّه ممسوس.

راحت الشمس بعد ذلك بقليل تفتل من كبد السماء أواخر خيوط فتنحدر بها لأسفل الأفق، أيقن أنّ الوقت تقدّم، فلوح لسيارة ووثب إليها فوثب وراءه "نونو"، تهامس الجالسون، حملق فيهم وهو يفرك لحيته الكثة بأنامله وكانت قد بلغت به السيارة آخر الخط بعد أن ترجّل كلّ ركابها، بزغ وجه السائق من خلف باب السيارة قائلاً:

– هنا آخرنا يا عم الشيخ!

لم يجبه، هبط يجوس المكان ثم لوّح بكفّه وقال باقتضاب:

– سلام.

– على راحتك، مع ألف سلامة.

وابتعد بالسيارة، دلف "بسطاوي" لزقاق وقد بدا أنّه يعرف وجهته، زقاق طويل تبسق من جانبيه بيوت بالطوب اللبن، وينتهي لخلاء وصل إليه فابتسم.

تقدّمه كلبه، وكأنّه يعرف الطريق، كانت شواهد من القبور تترامى أمام بصره بغير انتظام، عدا صوبها وخيوط من السواد تتموّج أعلاه على صفحة السماء، سار مسرعاً بين القبور وقصد بيتاً بسيطاً آخر

الجبّانة يقبع أسفل بساط الظلام السرمدي، طرق الباب، ظهر وجه شائخ تعرّف إليه ببهجة، خرج الشيخ "إبراهيم" يتحسّس الطريق نحوه بعصا غليظة، ابتسم وهو يعانقه:

– شيخ "بسطاوي" .

هزّ رأسه بابتسامة شاحبة، ابتسم الشيخ "إبراهيم" وتعكّز على عصاه واستغرق دقائق جهّز أثناءها طعاماً، التهم "بسطاوي" الطعام ببطء وشرود وفرغ منه سريعاً وبلا شهية، فقال الشيخ "إبراهيم":

– تشرب شاي؟

أومأ "بسطاوي" موافقاً، جاءه بالشاي الساخن فرشفه واجماً وهو يلعق بلسانه بقايا القطرات الملتصقة بجانب فمه، أعطاه جلباب ابنه "حمدي" ليرتديه وقد تسلّلت نسمة باردة من شقوق الباب الخشبي العتيق، أحسّ الشيخ "إبراهيم" أنّ به شيئاً، لكنّه آثر الانتظار حتّى ينتهي من شرب الشاي فيحادثه، وكان يداعب "نونو" بأنامله، أشار "بسطاوي" ناحية "حمدي" الراقد يشخّر على فراش فوق سرير من الخوص ورفع يديه داعياً له، ضحك الشيخ "إبراهيم" وافترش الأرض بجلبابه المتهرئ، زحف نحو "بسطاوي" ووضع كفّه المعروقة أعلى رأسه وتمتم آيات من القرآن ثم استطرد:

– ربنا يشيل عنك الهم.

عقد "بسطاوي" حاجبيه وأطرق، ربت الشيخ "إبراهيم" على منكبه وأضاف:

– مالك يا شيخ "بسطاوي"؟!

– "آومصات" مات، "زيزة" ماتت وأنا "آيف" أموت.

– لا حول ولا قوة إلاّ بالله! لكن كلّ الناس مصيرها الموت.

– "آء.. أنا آء".

– ولكنّك بشر مثلنا يا "بسطاوي".

– أنا "ليش حد".

ووثب، ثم دفع الباب وجرى خارج الكوخ، الشيخ "إبراهيم" بأسى ودهشة هرع خلفه، وتابعه يختفي في لحظات قليلة، يقفز مثل الأرنب بين الأضرحة الترابية المتناثرة على مداد بصره والتي تحفها ظلال سوداء من كلّ الأجناب، ومن ورائه يتقافز "نونو".

الشغل واقف، أين أنت يا عزرائيل!

بأسى ضحكت في نفسي واستغفرت الله، الشغل واقف، ماشى، ماذا أريد أكثر من اللقمة والستر؟ يشبعني الخبز الحاف، ويملأ معدتي، الحياة يسيرة على من يحمد الله، بكلّ ترفها وصخبها وزينتها ليست أكثر من مجرّد لقمة تسد الجوع.. هدمة تستر العرى.. وسقف يحمينا شر الخلاء.. ومن يعلم متى سوف يلتحق بمن رحلوا! إنّها زفرة.. قد لا تعود مطلقاً.

الليل فيه روح لا يشعر بها غير ساكنيه، أسكنه مع ولدي "حمدي" وأتأملّه في ثنايا ظلمتي بكثير من الألم، وأي ألم! يعيش ولدي في ليل لا يفنى حتّى لأكاد أشعر أنّه قُدّ من ذات الليل. آه يا بني، ماتت أمك وهي تلدك، لكنّها تركتك ضريراً، عيناك نفسهما كانتا خاويتين، لم يكن يملأ تجويفهما سوى فراغ موجع، وأنا رجل تعوَّد أن يجابه عظائم الشدائد بالقرآن والبسملة والدعاء ريثما ينفك الكرب، فتعود نفسي إلى سكينتها، لكن.. ما أشدُ هذا الكرب! الذي أوشك فيه على أن أتهاوى! وها أنا –رغم الانتفاضة التي لبست بدني ساعتها– أكابد التجربة وأجاهد، فقط أجاهد، هذا الجهاد المقدَّر له أن يخفق، بكلّ ما اختزنت أعصابي كلّ السنوات الطوال، من صلابة

وإيمان، أن أتحمّل وأنا أراك تكبر عاماً تلو عام، وأن أرفع رأسي إلى السماء قائلاً:

– لك الأمر يا ربّي من قبل ومن بعد.

المسبحة في يدي، ودعاء متواتر على شفتيّ بانقشاع الغمة، كان الليل قد حلّ.. والظلام، وأصوات متداخلة لا أستطيع تفسيرها تسري في روحي، انقباضة مبهمة تكتنف قلبي.

رمقت "حمدي" المتمدّد على الكنبة وقلت:

– أستر يا رب.

فتحت باب البيت بحيطة كي لا أوقظ "حمدي"، وخرجت.

الليل قد بدأ ينتصف، جست بعينيّ في الخلاء القفر الموحش الذي يحتضن بيتي، وثمّة أنين خافت يتسلّل إلى أذني، استدرت نحو مقام الشيخ "أبو القمصان"، ضرب من مستحيل أن يظهر عقب كلّ تلك السنوات، لكن ألم يعد مرّات من نفس الغيبة ذي قبل! كلاّ.. أكّد "بسطاوي" أنّه انتقل لمثواه الأخير، فأيّ تخاريف تستحوّذ على رأسي! لابد وأنّني كبرت كفاية لتجربة الخرف، وآن موعد "الزهايمر"، أهي الوحدة؟! لم تكن الوحدة مجهولاً بالنسبة لي، عشتها سنوات

عمري الفائتة من دون المرحومة. رفعت رأسي إلى السماء التي يكسوها الظلام وإحساس مخيف يستولي عليّ، اعتدت كوني بين الموتى والأرواح الهائمة، لكنّي لم أعتد هذا الإحساس، ثمّة أنين! من يتعذب هنا! من يئن في قلب هذه الأرض القابعة فيها عظامكم! فليساعدني أحدكم على الفهم.

الهواء يعبث بالسكون، حفيف أوراق الأشجار المتناثرة فوق قبورهم يؤرق مضجعهم، لابد وأنّ هذا فعل الأرق، الأنين لا ينقطع، والرهبة لا تنقضي.

هل أغلق الباب عليّ كما تعوّدت! أم أمكث على مقربة من هذا الخواء أرقب ما يتم بمثوى النفوس أمامي!

الأنين لا ينقطع، لا يهدأ، لا يفارق أذني، والدنيا داكنة.. باردة.. جوفاء، إلاّ من عذابهم.

كفاكم لهواً في خيالي وارحلوا، فارقوا عقلي العجوز، لن تنهضوا من ذلك السبات الحتمي فلمَ تلك الألاعيب السخيفة! اظهر بالله عليك يا "أبو القمصان" لو كنت أنت! إنّما لا تتركني لعبث المخ.

كان القمر الذي يترنّح ضوؤه فوق القبور يترنّح هو الآخر في قلب السماء، و"يتكرمش" وجهه فأنظر بهلع إليه، شجرة "الصنط"

تمدّدت أذرعتها وسرت على صفحة السماء حتّى طالت وجه القمر فراحت تعبث فيه، وراح يتضوّع، بعدها لمّت أذرعتها وفرشتها على أرض الجبّانة فراحت "تخروّش" وأنا لا أمتلك القدرة على الدخول إلى بيتي، كان كلّ ما يحدث غرائبي، وشجرة "الصنط" البعيدة تتراقص مع تراقص ضوء القمر، وثمّة جسم ما يتحرّك أمامي في العتمة التي تسكن المقابر، جسم لم أستوضحه فقد كان نظري نظر رجل تجاوز سنوات العافية، جسم كان يموء، أعرف أنّه هر ثقيل الدم يُشارك كلّ ما حولي إخافتي.

ولكن الجسم بدا بعد قليل، وعلى المدى المناسب تماماً لكي أستوضح، صحيح أنّه كان بعيداً إنّما كنت قادراً في الحقيقة على أن أعرف أنّ ما يتقدّم نحوي الآن، ويشرع في التحوّل إلى جسم له نفس طولي تقريباً وله نفس آدميتي.. ليس بهر.

فقد كانت، من وسط الشواهد الباسقة أعلى التراب، من آخر الجبانة والصمت يغلف أنفاسها، تقترب، بمشيتها البطيئة المفزعة، بثوبها الأسود سواد الليل الرهيب، تقترب.

ذات المرأة التي دفنتها من قبل، ذات المرأة التي زارتني من قبل.

بوجل وقفت قيد مكاني، لم أتحرّك، بل لم أستطع أن أتحرّك، سمّرت الرهبة قدميّ، ارتعاشة لا إرادية تدب في أوصالي، اتركيني بالله عليك في حالي! ماذا تريدين!

راحت بأناة تقترب، هل أستدير وأسلّم ساقيّ للريح! قضيت عمري في الجبّانة ولا أهاب الموتى، لكنّني أيضاً لم أرهم رؤية عيان من قبل، لم يزرني أحدهم من قبل، كان الخيال هو ما يربطني بهم، وليس البصر، الإحساس لا اليقين.

دنت، لفتني برودة أنفاسها، سيطرت عليّ مخاوف لم أتعوّدها، أسبلت جفنيّ، لا أقوى على النظر إليها مباشرة، ها هي تلتفّ حول جسدي، تضع يدها على منكبي، تقول بصوت عميق جلجل في كلّ أرجاء الجبّانة، صوت قادم من المجهول:

– ساعدني.

لا تسخري منّي، كيف أساعدك؟

– ساعدني.

يا رب العالمين، لا أحتمل، تخور قواي، تظلم ذاكرتي العجوز، تضبّب دماغي غشاوة مفرطة، تنحدر بي الأرض فتميد الدنيا، ولا

أحتمل وقع أنفاسها المفزع.. سواد الكون من حولها.. بالله من يصمد! انهارت قدماي، تبدَّدت عزيمتي التي طالما قبضت عليها بمخالب من قوة، فسقطت على الأرض وكأنّ كلّ جبال العالم تجثم على صدري.

كيف أنجو منها؟

بعد ذلك، ولأنّ ذاكرتي قد أصابها دون ريب عطب الخرف، فلا أذكر عدد الليالي التي انصرمت، ليحدث ما حدث مرّة أخرى، كان الجسد الزاحف هذه المرّة يزحف أبطأ، يقف قليلاً يموء، ويمصمص، فتداريه الظلمة شيئاً ما، ثم يُقبل ناحيتي وأنا واقف كتمثال، أنتظر أن يخرج صوتها قائلاً: ساعدني.

يقترب الجسد، يزحف قريباً من ساقي فأدقّق فيه النظر، يتكهرّب جسمي، إنّما أزفر بارتياح، إنّه قط حقيقي، لكن يداً تحطّ على كتفي، فأنتفض وأستدير ملسوعاً للوراء وأجدها بعينيها البيضاويين تماماً واللتين تسطعان في وجهي فتتبدّد خيوط الظلام وألمحها بوجهها الأكثر وضوحاً وزرقة شديدة تختلج في لحمه، كانت تفح:

– ساعدني.

تخشّبت أطرافي، مادت بي الأرض.. فوقعت مصدراً صوتاً مكتوماً مثل جوال من قمح.

* * *

تمر الأيام، تأتيني في اليوم الواحد مرّات، وتثير هلعي مرّات، تقول لي: ساعدني. وتمضي، تفتّت كلّ مرّة ما تبقّى في قلبي من رباطة جأش وتختفي.

تأتيني وأنا أحلّ أربطة الكفن، وأنا أبني جوانب اللحود بالطوب اللبن، أو وأنا أسقف القبور تاركاً مسافة بحيث لا يمسّ السقف الميت، أرفع القبر عن الأرض شبراً وأتلفّت حولي وإذا بها هناك تنتظر تحت "الصنطة".. يا رب.

بلغ بها الأمر أنّها في نوبة، ألهتني عن جعل الميت الذي بين يديّ على جنبه الأيمن ووجهه للقبلة، لقد تشتّت عقلي وتركيزي، فذكّرني وجه كان قريباً منّي، قلت: (بسم الله وعلى ملّة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم عدّلت رقدته، ووسدت رأسه بلبنة ووضعت خده الأيمن عليها، أخشى أن يتهمني الناس بالخرف، ولكنّي لم أعد أنعم براحة البال، فكرت أن أفضي لابني "حمدي" بما يحدث، لكنّي لم أرد شغله بهمّي، "حمدي" فيه ما يكفيه.

كيف أساعدها؟ يعجز عقلي عن التفكير، هل أصبحت يا رجل خط اتصال الأموات بعالم الأحياء! يا للعبث!

بعد فترة، كانت هالة من السواد قد كبلّت عينيّ، لا أنام.. أفكّر أكثر ممّا أنام.

أول الليل، يخرج "حمدي" كعادته، أجلس أنا أمام بيتي على الكنبة، أمسك المصحف أقرأ.

هذا المساء، هبّت ريح خفيفة فسعلت، ظهرت أمامي مجدّداً، بعصاها الخيزران وثوبها القاتم.

أطرقت قليلاً، قلت: صدق الله العظيم، وضعت المصحف جانباً ورفعت عينيّ إليها باستسلام.

* * *

لم أعد أفارق المصحف، حتّى دون أن أقرأ، فهو جواري قاعد ربما ليكفل لي نوعاً ما من الحصانة، والمرأة الحيّة الميتة التي حيَّرني أمرها، معي صارت ليل نهار، لا تتكلّم كثيراً، تقول ساعدني فقط وتجلس بجانبي على الكنبة أو حتّى بجانبي داخل البيت، لقد تجاوزت كلّ

الاحتمالات، أقرأ القرآن وتجلس هي تحدّق فيّ بعينين خاليتين من ضوء الحياة، التجربة بدايتها رهبة ونهايتها تعوُّد، طالما لا ينالني منها ضرر ولا شرّ، وكنت كثيراً ما أفكّر في مساعدتها، ولكن المساعدة تتطلّب منّي البحث عن سبب لمعاناتها، هي لا تفصح بالكثير كذلك، ساعدني وتصمت، وأنا لا أقدر بحال أن أسألها، فقط أسمع وأهزّ رأسي وأجلس، ثم أبحث بخيالي وبتفكيري عن إمكانية المساعدة.

* * *

كان يوم اثنين، حين رحت إلى السوق، كان "جودة" ابنها مقرفصاً فوق عربة كرو مشطا قدميه مدفوسان في تل من البطاطس، وصوت ندائه عال يغطي على كلّ أصوات الباعة، وكان اليوم حاراً، البائعون كلّ واحد فيهم منشغل مع زبون، ورائحة الدواجن والطيور تختلط برائحة المش والجبن القريش، كانت ساقاي العجوزان تمشيان على مهل وسط هذا الزحام والضجيج، فبدوت وكأنّي في نصف سرعة الحياة من حولي تقريباً، وكأنّي صورة بطيئة تتحرّك على شاشة تلفاز، والجميع في الجوار تخرج أصواتهم العالية التي وكأنّها محفّزة، فلا تحفزّني على الإسراع. وقفت أمام "جودة" أتأمّله كثيراً، فراستي لا تستنبط شيئاً، كما أنّ وجهه المنهمك في طاحونة البيع لا يشف عن شيء، ملامحه مستكينة، وعندما رآني، كلّ ما فعله أنّه مطّ رأسه إلى الأمام قليلاً ومدّ يده لي بالسلام:

- لك وحشة يا شيخ "إبراهيم".

ثم انصرف إلى حركة البيع مرّة ثانية بلا مبالاة، فقط كان يرميني بابتسامات مستفسرة بين الحين والآخر وأنا متّكئ أمامه على عربته الكر متفحّصاً عينيه، ما الذي قلقل روح أمّك يا "جودة"؟ ألا يوجد أحد في هذا العالم يخبرني عن سبب لخروجها من بطن القبر روحاً ضالة تنشد المساعدة؟ ولا حتّى أنت يا "جودة"؟ أنت ولدها فلابد أنّك تعرف شيئاً.

- كلّكم بخير؟

- الحمد لله يا عم "إبراهيم".

ثم مال ناحيتي وتطلّع لي طويلاً قبل أن يقول:

- ماذا بك يا عم "إبراهيم"؟

تنهّدت، خفضت بصري وتمتمت:

- ماذا بكم أنتم يا ولدي؟

- "هه"....

– أمّك يا "جودة"، أمّك غير مرتاحة في رقدها يا ولدي.

أطرق لوقت، ثم غرس نظرته داخل عيني، لعلّه يحاول قراءة ما يختزنه ذهني، وبدا لي أنّ عينيه تحبسان دموعاً لن تخرج في هذا المكان، تلفّت حوله قليلاً ثم أردف:

– عندك حق يا عم "إبراهيم".

يا فرج الله، السر إذن عندهم.

– أُعذرني يا عمي، لكنّك تعرف أنّ الوقت والمكان غير مناسبين للكلام، منتظرك اليوم بعد صلاة العصر لنشرب الشاي معاً وندردش.

مشيت من السوق وفرحة غير منتظرة تحرّك قدميّ، كنت في لحظتها أسرع من كلّ المشهد حولي، تحوّلت ساقاي بقدرة قادر إلى تروس تلتهم الطريق بغبطة تستولي على كلّ كياني، آن فضّ السر، الولد يعرف شيئاً وسيخبرني.

وحتّى العصر، كان الوقت يمشي بتلكؤ، شربت عشرات الأكواب من الشاي، وحتّى عندما استغرب "حمدي" من عدم تناولي الغداء معه، قلت له:

– كُل أنت يا بني.

كانت شهيتي تنتظر معي زيارة "جودة"، وعندما تردّد آذان العصر من حولي، نهضت شاباً وكأنّني ملسوع، ثم دفنت أصابعي في قبقابي وهرولت إلى "جودة"، لم أفكر عمّا سيظنّه "حمدي" وأنا أول مرّة لا أصلّي فرضاً في موعده، كلّ ما يسيطر عليّ الآن معرفة الحقيقة.

استقبلني وجهه وقد لاحت عليه علامات الأسى، أفسح لي طريق الدخول ثم جلست فدلف وجاء بكوب شاي ووضعه أمامي بفتور ليس مفتعلاً، وجلس جواري شارداً وكان يهمهم:

– أمّي بالفعل غير مرتاحة يا عمّ الشيخ.

وفجأة، جثا على الأرض باكياً، تسمرّت من دهشتي لبعض الوقت، ثم تركت كوب الشاي ودنوت منه ومسحت بكفّي على رأسه، إحدى الحريم قالت من عمق الدار:

– لم تسمع كلامنا يا "جودة"!

قلت:

- خير يا "جودة"، احك لي يا ولدي.

"جودة" بطرف جلبابه المتّسخ جرف دموعه، مكث يلتقط أنفاسه وكان لم يزل ينهج، أدركت أنّ السر معروف للجميع هنا في تلك الدار، هذا السر الذي قلقل روحاً وعلّقها ما بين الأرض والسماء حائرة تجوب الأرض، بفطنة عجوز وخبرة حفَّار كان لابد أن أستدرك إلام ترمي المرأة، وكان لابد أن أقرّر هذه الزيارة منذ أن حضرتني أول مرّة، كيف لم يدلّني عقلي العجوز الذي –مفترض– أنّه يزن الأمور بميزان الحكمة؟

"جودة" ارتمى تحت قدميّ وقال:

- لقد ظلمت المرحومة.

- يا ساتر يا رب.

- ليتها تسامحني.

- ماذا حصل يا "جودة"؟ أخبرني.

– المرحومة قبل أن تموت أوصتني بدفنها في جبّانة "قمولا" وأنا دفنتها في "القرنة"، خفت الناس تأكل وشي لمّا أدفنها في جبّانة غير جبّانة ناسنا وأهلنا.

– ولماذا "قمولا"؟

– أمّها مدفونة هناك، ووصية المرحومة أن تُدفن بجوارها.

وهب صارخاً:

– سامحيني يا أمّي.

بهتُ، هذا هو السر إذن؟ روحها مقلقلة لا تستطيع أن ترتاح، ولن ترتاح إلاّ بتنفيذ الوصية، والوصية هذه يستحيل بأيّ حال تنفيذها الآن، بعد مرور هذا الوقت الجثة لابد تآكلت وتحلّلت وأصبحت عظاماً، وربما نجد العظام ذاتها قد اندّثرت، "جودة" الغبي، ألا تعلم أنّ الموتى لهم الحق أيضاً في اختيار مثواهم الأخير!

والوقت يمرّ، وهي لا تكف عن زيارتي، كأنّها تدعوني –بعد أن عرفت سرّها– لإنقاذها من هذا الثرى.

ولكن الأمر لا يجوز التفكير فيه.. أم يجوز؟

ويحك يا رجل.. أجننت!

يتنازع فيّ ضميران، أذرع الجبّانة جيئةً وذهاباً، إبليس ينخر في رأسي ويوسوس بالفكرة البشعة فيسارِع ضمير الشيخ حامل القرآن قائلاً:

– لن تُغْضِب الله قسطاً من أجل راحة البال!

* * *

الفجر، هو هذه النسمة التي تهبط إلى الأرض، هو هذا الضياء الذي يتسلّق أعلى السماء ببطء وعذوبة، الفجر، هو الوقت الملائم تحديداً لفتح قبر.

ثم والشعور بالوزر وقر في نفسي، حسمت أمري رغم ذلك وقرّرت أن أفتح قبرها عند الفجر وألملم متناثر عظامها وأعيد دفنها في جبّانة "قمولا".

كنّا نفرين، أنا و"جودة" ابنها، التقى بي –على اتّفاق– عند أول الجبّانة قبيل آذان الفجر، شربنا الشاي المعمول في "كنكة" على نار

"الكانون" الموجود جنب البيت، إلى أن بانت على مقدّمة السماء ملامح ضوء يعيننا على تدقيق الحفر، "جودة" مستدلاً بتوجيهاتي والرعب يسيطر على كلّ أطراف جسده أمسك "الكوريك"، شرع في إزالة التراب عن مدخل القبر، وكان –دون قصد– يتنفس الغبار فيكح كحة عالية تقبض قلبي فأصيح كاتماً صوته:

– يا أخي، سوف تفضحنا، "حمدي" أكيد صحا لصلاة الفجر.

أُزيل التراب وكشف عن بوابة الطوب الأحمر التي تسد فتحة الفسقية، والذي أرصّه بلا تنسيق، فتبدو طوبة ناتئة تعتلي طوبة غائرة، ممّا ساعدني على تفتيت الطوب بسرعة كلّه ب"الطورية"، وبان رغم ضوء الصبح المنتشر حولنا، تجويف القبر مظلماً إظلاماً مُقبضاً.

"حمدي"! صوته يأتيني من قريب إنّما كأنّه آت من آخر الدنيا، ينادي عليّ، ليس الآن يا ولدي، سأتحجّج لك بأيّ عذر.

المهابةُ تسرع أنفاسنا وتجبرنا على الانتظار كثيراً نحملق في وجهيّ بعضنا البعض بلا تركيز، اعتدت فتح الفسقيات لدفن الموتى ولم أعتد فتحها لإخراجهم، حجم المشهد عظيم، ورهبةُ الموقف سمّرت قدميّ على مدخل الفسقية، الخوف يتحوّل رويداً إلى فزع رهيب، الفزع يبدو داخل عينيّ خيبة كبيرة، وأنا واقف لا أقوى على الحركة، ولا أجسر على النزول، وفحيح يأتي من لا مكان ومن كلّ مكان

حولي يفقدني التماسك، فحيح لم أسمعه من قبل، ولم أسمع له مثيلاً، فحيح غامض مريب وكأنّما تحذير ينصحني بالرجوع، يرجف كلّ أجزاء جسمي، وهل يشفع لي الرجوع بعد أن غُطت في الماء بقدمي! سبق السيف العزل والقبر مشقوق أمامي، فلأنجز مهمتي وأخلص، قبل أن تصيبني اللعنة التي تطلّ على العالم الآن عن كثب، القبر المفتوح فم مخيف قد يلفظ عليّ وعلى "جودة" وعلى العالم بأسره لعنته، القبر المفتوح ليل مظلم يكتنفني الآن، ويضع على عينيّ غمامة سوداء فلا ترى، ولا تميّز مرادفات الهلع التي تتّضح جليّة كذلك فوق وجه "جودة"، ضباب كثيف يحضر، نظرت حولي، كلّ المعالم مختلطة، الأرض أسفلي زلقة، نظرت تحتي ثم فغرت فاه وصرخت، ما كلّ هذه الدماء! أين أنا! ثمّة بوم ينعق في الفضاء حولي وأصوات تأتيني من الفراغ، ما هذا الهراء! غامت الدنيا، الفحيح يقتحم أسوار روحي، ويرسم حولي مشهداً مرعباً، فيتضخّم "جودة"، ويتضخّم القبر، وتتضخّم شجرة "الصنط" من عند أول الجبّانة، وأنكمش أنا أصرخ، ويخرج صوتي كأنّه خارج من قلب بئر عميق:

– لاااااااا.

– شيخ "إبراهيم".. شيخ "إبراهيم".

صدري البارز للأمام والذي يعلو ويهبط بسرعة يهدأ، وتبدأ أنفاسي في الاستكانة، وأنتبه على يد "جودة" التي تهزّني، فألتفت إليه

شاحب الوجه، مغمور بالعرق، أطوف ببصري فيه قليلاً محاولاً التركيز ثم أُردف:

– أين "القفّة" التي سنجمع فيها عظام المرحومة؟

حمل "جودة" القفّة وركبت خلفه على بغله واتّجهنا إلى "قمولا"، كانت قرية من عشرات القرى الملتفّة حول عنق النيل، غير أنّها تبعد عن قرية "القرنة" ما يزيد على الساعة سيراً بالركوبة. وصلنا الجبّانة، وكانت الشمس قد توسّدت خصر السماء، مرّ وقت، ثم رأيته واقفاً نصب عينيّ بوشاحه الأسود وطوله الفارع الذي سدّ الأفق، ووجهه الساخط المحذِّر، بعينين حمراوين، تنفذ سهامهما إلى داخل الجوف سياطاً لاسعة، يا له من فزع! يا لها من ملامح!

فهذا الذي ظهر أمامي من العدم، لا يحتاج جزماً بأنّه؛ أو ليس أنّه "فلان"، هو "فلان"، أعوذ بالله، اغفر لي يا إلهي، لو أنا أخطأت أو أخطأت عيناي، ما كان شاهده معي "جودة"، لقد رأيناه سوياً، وهو يقطع علينا طريق العودة، بعد أن غرسنا عظام أمّه المرحومة في تربة ما، وواريناها التراب، ومحونا آثار فعلتنا، كُلّلت المهمة بتوفيق من عندك، رغم غضبك علينا، لكن هذا السامق قبالتنا له طلَّة تنطلي على رهبة غير عادية، تشمل كلّ خلايا الجسم، من شعر الرأس الذي ينتصب دفعة واحدة، مروراً بالقلب الذي يشهق، والأطراف التي ترتخي مخدّرة، والترنّح الذي يصيب الساقين.

أنا أعرف كم أنت يا ربّي غير راض عن فعلتنا، لكن؛ أكان باليد حيلة! وأنت مطّلع على ما خفي من الأمر، خلصت مهمتنا وخلصت معها أنفاسنا، إنّما، ما أثار هلعي أنا و"جودة" الجبان، الذي تبوّل في سرواله أمامي، وانتحب كالولايا، وسقط متضرّعاً النجاة على الأرض، ثم لمَّا تيسّر له الفرار بعض الشيء، وأنا منهمك في قراءة القرآن والاستيعاذ بك، فرَّ، وتركني –أنا الذي أغضبتك وقبلت على نفسي الذنب لأجل راحة روحِ المرحومة أمّه– أمام "فلان" بمفردي، أتوجّس الحراك وأخشى أوليه ظهري وأركض –كما فعل "جودة" النذل والذي له عذره المقبول تماماً– فيلاحقني، وقد أُرسل خصّيصاً لي. حدجني وحدي دون "جودة"، خصّني بنظراته الرهيبة ولم يزحزحها عن وجهي، بل عن أعمق أعماق مقلتيّ، "فلان" هذا، بهيئته السماوية المهيبة –رحمتك يا رحمن– كان سارحاً هناك بطوله العجيب نحو السماء، أعلى.. أعلى، وعيناه لم تفارقا مقبعي، كانت له رائحة لا يشمها بشر حيّ، رائحة تقبض على الصدر كمتراس يكبِّل حركة سير.

تخدَّرت كلّ أطرافي، "فلان" واقفاً كان هناك، ساكناً سكون كلّ خلجاتي، ثم لمَّا –بعد وقت ليس بقليل– قرّر أن يغادر، لمَّ ثوبه "المرحرِح" على بساط التراب، وانتقل كطائر ضخم أسود إلى عنان السماء، شقّ بهيبته ورهبته صدر الأفق، وبدا لي ككتلة من غمام مظلم، حجب روعة نور الشمس، وهو ينبسط.. ينبسط.. مكفهر

وجهه، ويحلّق، كبالون منتفخ بشكل لم أره ولن يحدث لي أن أراه إلاّ في لحظة قرّرتها أنت يا عليم، يسير الهوينى، يزوم بشفتيه زوماً يصدر خافتاً فأعلى فأعلى حتّى يرنّ داخلي كبوق، بوق مفزع ملتصق بفوّهة أذني، وينطلق يطن.. يطن.. فأود لو أصرخ بكلّ ما أوتيت من عزم، لكن هيهات، ريقي جف، الدم نشف بعروقي، شحبت، حتّى كدت أهوي أرضاً جثة هامدة، وهو، يشفط في طلوعه كلّ تراب الأرض، فيدور بالهواء غبار كثيف، يحجب الرؤية، ويسدل أمام البصر ستارة رمادية، تبدو الستارة قمعاً مقلوباً مندفعاً لفوق، فأرتجف، تصيبني رعدة كأنّ جسدي انشق نصفين إثر عامود من برق، ولا أعرف هل أبكي أم أضحك؟ أجري أم أثبت؟ أنا الرجل العجوز ظللت منتظراً، فلما جاءني جاء غاضباً!

هذا من فعل القدر.. أن يهبط عزرائيل لأجلي.

حمدي

صفير الهواء خارج البيت خافت، لكنّه يؤانسني.

أتحسّس بقدميّ أسفلي ثم أنتعل القبقاب.

وحين يكون السكون قد خيّم على المكان فأدرك أنّ أبي بالخارج هناك تحت شجرة "الصنط" أو على الكنبة يتأهّب لمجيء الفجر

بقراءة القرآن، أروح بحذر أتلمّس طريقي -المحفوظ في رأسي- إلى طلمبة المياه خارج البيت، وأعرف أنّ الفجر قريب، كانت بداخلي ساعة حسّية تشعر بقدومه، ورغم أنّ المسجد بعيد، إلا أنّ آذان الفجر يبلغ أذنيّ، فأتوضأ وأجلس جوار أبي انتظاراً له.

أبي منذ فترة صامت، لم أتعوّد أن أسمع أنفاسه بطيئة واهنة ومن دون صوته المؤانس، لا أعرف هل يتمتم القرآن أم شارد يشغله شاغل! كثيراً ما أسأله:

- هل بك يا والدي شيء؟

غير أنّه لا يكلمني، فقط أشعر به يبتسم ابتسامة شاحبة وربما يتفقدني بعينيه اللتين لم أرهما قط، عينيه اللتين يستدفئ بهما إحساسي.

* * *

ولدت كفيفاً، لكن عجزي لم يحل دون ممارسة حياتي بشتّى أشكالها، أصلّي وقت الصلاة وأعرف قبلتي بالاعتياد، أقضي وقتاً من الليل في سماع الراديو والاستمتاع بأغنيات "عبد الحليم" و"أم كلثوم"، وكنت قد تعوّدت بأناملي المستشعرة ضبط قنوات الراديو

والانتقال فيما بينها بيسر وسلاسة، كذلك كنت أخرج أجلس مع أصحابي على مقهى المعلم "سوسو"، رغم عزلة مسكني الكائن في غرب البلدة، إنّما اعتدت ركوب "المعدّية"، أو كان يأتي لاصطحابي أحدهم، "ميلاد" أو "السبع" ابن العمدة، أو أيّ واحد من أصحابي، كلّهم يتناوبون المجيء لأذهب حيث المقهى الذي أجلس عليه أمزح معهم وأتبادل النكات الإباحية بكلّ سعادة، يتناولون سيرة الخلق بمحاسنها ومساوئها، وأتناولها معهم، يتنابذون ويسبون ويشخرون ويلعنون آباء بعضهم البعض وأمهاتهم، في جو من المرح والفكاهة أحبّه وينسيني لبعض الوقت إحساس العجز، بعض الأحيان ألعب الضمنة والطاولة بمساعدة البعض متقبّلاً كوني ضريراً بنفس راضية، كنت ألعب معهم بحيوية وأرفع إلى أعلى أحجار الضمنة وكأنّي أفكّر ثم أصيح مثلاً:

- "قفلة"...

فيضحكون، لم يجد أحدهم يوماً حرجاً أو ذنباً في الضحك عليّ، ربما لأنّهم يعلمون مدى رحابة صدري المتناهية، أو ربما لأنّنا أصحاب منذ الصغر، فذابت فيما بيننا كلّ الفواصل، غير أنّي؛ إذ أخلو إلى نفسي وأعاني حقيقتي المؤلمة، كثيراً ما كنت أفكّر، إنّ حكمة الله في خلقي أعمى نافذة لا اعتراض عليها، ولكنّي -دونما تجديف- كنت أرفع رأسي إلى السماء وكأنّي أرى الله فأسأله: إلهي.. أما كنت بعظمتك وجلالك قادراً أن تهبني بصيصاً من نور!

أقطن مع أبي بقلب الجبّانة، أنا لا أرى المقابر، لكنّها تسكن داخلي في عالم خلقه خيالي، من تعثرّي بشاهد أو من سيري فوق قبر طازج، من أصوات متداخلة تترامى إلى أذنيّ بعض الأوقات، من خيالات يشعر بها ذهني تطوف حول أنفاسي.

لا أخاف، تعلّمت بحلول يوم بعد يوم ألاّ أخاف، أدركت بمضي حياتي أنّ الخوف غريزة لا ينعم بها سوى المبصرين، فكيف أهاب الموتى وأنا أرقد بينهم؟ مع حلول كلّ ليل تتداخل روحي مع أرواحهم، التي تسير معي تؤازرني إذا ما غرّر بي الطريق يوماً؟ كيف أهابهم وأنا لا أعرف حتّى الفرق بين الحي والميت؟ أتعرّف إلى الأحياء بإحساس مجرّد من رؤية بصرية، كما أتعرّف إلي الأموات برابط الإحساس، كلاهما له إحساس ما يعتمل بأعماقي، بل لقد أصبح هؤلاء بمرور الأيام أكثر ألفة إليّ من الأحياء، إذ لا أجد سواهم حين أشكو همّي، فالعاجز ليس من حقه الشكوى، الضرير في هذا العالم غير المرئي؛ العالم الذي يحوطني ولا أدرك عنه سوى مشاهد يرسمها عقلي الفقير –مشاهد حالكة دوماً– ليس أكثر من محل شفقة، يخاطبه الناس فقط لمواساته، ويصاحبه البعض فقط إحساناً، غير أنّي قد أشفق عليهم أكثر ممّا يشفقوا عليّ، أتمرّغ في عالمي اللا محدود ويتمرّغون في ظلّ عالمهم المحدود، أنسج كلّ مساء حلماً جديداً وأعيشه بعيداً عن الأرض، وكأنّما أحلامي تطفر على خيالي الأملس وبكلّ سلاسة، مساء بأعقاب مساء، وتبني لي المدائن في الخيال،

فأرى ما لا يرى المبصرون، أرى نفسي عاشقاً وبطلاً وعالماً، أرى نفسي محارباً وفارساً وحالماً، أرى نفسي كما يحلو لي أن أراها.

أتممت صلاتي وجلست أقرأ من مصحف على طريقة "برايل"، تضرّعت إلى الله أن يوّفقني في امتحان اليوم، منَّ عليّ الله بصديق يعمل في مطبعة كان يوفّر لي كلّ ما أحتاج من الكتب على طريقة "برايل"، الأمر الذي تطلّب منّي السفر إلى محافظة قنا لأسابيع متتالية قبل بداية العام الدراسي وهو الأمر الشاق عليّ، إذ كنت ألجأ معظم أحيان الزحام إلى السائرين لمساعدتي حين ينشغل عنّي أصدقائي، يتلقّفون يدي ويعبرون بي المرساة ويجلسونني على مقعد الرفّاس، كذلك كان يشق عليّ بلوغ موقف سيارات قنا إلاّ بطلب العون، وكنت أشكر الناس دوماً بابتسامة مسكينة، ولا أعرف هل كان العجز في عينيّ يخيّل لي هذا الإحساس بأنّ الناس لا تحسن معاملتي غير رأفة بحالي؟ مثلما حدث مع سائق أجرة من البلد يعرفني، السائق قال يومها:

– خالص يا أستاذ "حمدي".

لكنّي قلت بجفاء واضح:

– كلاّ، ستأخذ أجرتك.

– يا أستاذ اعتبرها مدفوعة.

– أرجوك، وإلاّ نزلت.

لم أعرف ما الذي دفعني لمعاملة الرجل هكذا! أهو إحساسي بأنّ الرجل لولا أنّه ينظر لي بعين العطف لكان أخذ منّي الأجرة؟

صديقي الذي يعمل في المطبعة كان ينتظرني دائماً في الموقف بقنا، كنت أتصل به من "السنترال" على تليفون المطبعة لأبلغه بقدومي قبل أن أروح للموقف، كان ودوداً معي ويكفل لي ما تيسّر من مساعدة لتجاوز مرحلة الثانوية، فكنت أحبّه بشكل يجعلني ألقي بنفسي في أحضانه كلّما أقابله، وأبقي نفسي وقتاً، بعدها أتجوّل بأناملي في ملامح وجهه، وأقول:

– بارك الله فيك يا صاحبي، كيف أشكرك؟

فكان يلكزني في كتفي معاتباً، ويسحبني لنمضي إلى المطبعة، وفي هذا اليوم كان صاحب المطبعة في انتظاري، طلب مقابلتي بنفسه، فساورني قلق ما، خشيت أن أفقد فرصتي في حيازة كتب "برايل".

وقتها لم أعرف سبباً لإصرار الرجل على مقابلتي وجهاً لوجه؟ تساءلت: هل لأنّ الرجل لا يثق في صديقي؟ أم أنّه لا يثق في عماي أنا شخصياً؟

صاحب المطبعة صوته كان يحمل رنّة تبعث على ألفة ما، الرجل استقبلني بترحيب شديد وصافحني بشيء من ود، وطلب من صديقي أن يتركنا بمفردنا.

– آسف.. لكن بصراحة يا أستاذ "حمدي" كان لابد من مقابلتك لأسألك سؤالاً واحداً.

قلت متلعثماً:

– تفضّل.

– أولاً هل تعلم مشقّة طبع كتب "برايل"؟

سكتّ بجهل فأكمل الرجل:

– لابد أن نبتاع ماكينات وآلات جديدة لهذا النوع من الطباعة.

تنحنحت وبلعت ريقي بحرج، وهمّمت بقول شيء إنّما الرجل استوقفني قائلاً باستدراك:

– أعذرني، حديثي معك لا يعني الفلوس بأيّ شكل من الأشكال.

– أين المشكلة إذن؟

صمت قليلاً متنهّداً ثم أردف:

– أعذر تطفّلي، أرغب في معرفة حافزك لتكملة التعليم، لا أظنّك قد تجد مشكلة في مسألة العمل؟ فأنت...

وتصنّع السعال، بعدها أكمل بصوت خافت:

– أعذرني بجد.. لا أقصد..

هذه الليلة قضيت ما يزيد عن الساعة وأنا أراجع المادة دون تركيز، سؤال الرجل كان يرن في أذني فيلهي ذاكرتي عن الحفظ، لم أجبه، فالإجابة كانت مستقرة في أعمق أعماق نفسي، إنّه عجزي، عجزي حثّني أن أكمل تعليمي رغم الصعوبة، طموحي لا حدود له، أوليس من حقي –وهو حق بسيط– أن أحلم كسائر البشر!

وظيفتي في قصر ثقافة "حسن فتحي" ب"القرنة" دفعتني للحصول على شهادة الثانوية وأمّنت لي بعض المصاريف، رغم المرتب الضعيف، لكنّني هيئت نفسي عليه، هذه الوظيفة التي اقتنصتها بطلوعِ الروحِ. كلّما تذكرت ذاك اليوم كلّما أيقنت أنّ الله دائماً يدبّر لي الخير، فالعام الماضي أقيم مهرجان أدباء مصر في قاعة المؤتمرات ببندر الأقصر، وكان وزير الثقافة بشحمه ولحمه حاضراً، وقتها قلت لنفسي: فرصة.

في افتتاح المؤتمر، رحت مبكّراً، وجلست في الصفوف الأمامية، وانتظرت، الفقرات تتوالى، وأنا جالس، فقرة التحطيب والاستعراض والمسرحية، قررت ألاّ أدع الفرصة تفر منّي، ومجرّد ورقة مطبّقة بين أصابعي فيها القصد أفركها بقلق، كانت الطلب الذي سأتقدّم به لوزير الثقافة، كتبه لي "ميلاد" على "الكومبيوتر"، قال لي وهو يربت على راحة يدي لمّا أحس بتوتري:

– اهدأ يا "حمدي"، كلّ شيء بأوان.

ازدردت لعابي، الفقرات ها هي تلفظ آخر أنفاسها، والوزير يصعد إلى المنصة تصاحبه ضوضاؤه، إنّها اللحظة؛ التي فيها لن أرهب شيئاً ولن أرتعد ولن أتلعثم، سأقف وأنطق وأرفع يدي زاعقاً:

– معالي الوزير.

سواعد من حولي تكمش في كتفي لكنّها سرعان ما ترتخي إذ يدرك الجميع أنّ الشاب الواقف هذا.. الذي يطلب من وقت الوزير دقيقة.. في الواقع هو ميت العينين، و"ميلاد" جواري يكافح لكي أمرّ من بينهم، الوزير من مكانه على المنصة يلوّح لهم بيده ويبتسم ابتسامة رسمية فيترکوني و"ميلاد" يساعدني للاقتراب من الوزير على المنصة، أدنو وأحاول مستشعراً تحديد منبع الصوت ثم أمدّ يدي – بعون "ميلاد"– تجاه صوت الوزير بالطلب، الوزير يرتدي نظارته ويمر بعينيه سريعاً داخل الورقة ثم دونما إطالة أو إهدار لوقته يسحب القلم من جيب الجاكت ويزيّل أسفل الورقة بتوقيعه ويرجع ببصره إلى الصالة، بمنتهى الهدوء والسرعة، وقّع الورقة ونسيّ الموضوع، ودخل في حوار مع الجمهور، واحد من العاملين بالمكان يخرج معي قائلاً:

– مبروك يا سيدي، الوزير خلّص لك الطلب.

يا لها من أيام! كانت عزيمتي فائرة وهمّتي مثابرة، ها أنا توظّفت فقرّرت أن أدخل الجامعة، كان "ميلاد" صديقي يرافقني أثناء امتحاناتي ويكتب نيابة عنّي، تطوّع بطيب خاطر، وكان يمرّ عليّ ويصطحبني إلى البرّ الشرقي في المدينة حيث المدرسة الثانوية، ويكتب بلا كلل، يصبر على أرقي وتردّد إجاباتي، أكثر من هذا يصغر إليّ أحياناً حين أسأله التمشية على الكورنيش، كنت أثقل

عليه، لكنّني أعلم تماماً أنّه يحبّني بالفعل، فلم أجد حرجاً في طلب تمشية أو جلسة على مقهى، بل لم أجد حرجاً أن أدردش معه في أمور مخجلة، كأن أستجديه بتهريج أن يسرد لي ما يدور داخل الكنيسة، أدردش معه في أمور خاصة بالنصارى، والمراسم والطقوس، كلّ هذا ولا أجد في ميلاد ثمّة ضيق أو ضجر، بل كان يفضي لي بأدق الأسرار، وكنت أطلب منه أن يصف لي الفتيات اللواتي يمشين على الكورنيش، فكان يصف لي بدقّة، لعلّه إذ يعلم أنّني رجل ضرير وأفتقر إلى أمور مماثلة، يعلم أنّني أداري قلّة حيلتي ويأس مشاعري خلف ابتسامة فاترة وأسئلة ساذجة وفضول عليل.

قضينا معظم النهار في الشرق، تجوّلنا لبعض الوقت في الشوارع الموازية لمعبد الأقصر، تلكّأ ميلاد في مشيته أمام المعبد المهيب وهو يرمق الأعمدة السامقة لأعلى –مقبّلة سجف السماء– في رهبة وفى توقير، وهو يحكى لي عن روعتها، قررت أن أصلّي الظهر في مسجد سيدي "أبو الحجاج" البارزة مئذنته من قلب معبد الأقصر، وبعد تردّد من "ميلاد" رافقني.

أنهيت صلاتي وقعدنا قليلاً في رحاب المسجد، كنت أشعر برأس "ميلاد" تدور من حولي وكأنّه يستشرف المسجد، ثم قال:

– أمركم غريب يا أخي...!

– أمر من؟

– أنتم.. المسلمون!

ضحكت وأنا ألكزه في جنبه:

– نحن! لماذا؟

– من يراكم خارج المساجد يظن أنّها خالية لا تجد من يعمرها، ومن يراكم تصلّون يحسب أنّ كلّكم مشايخ.

– المشيخة ليست شرطاً للصلاة.. الصلاة فرض ينبغي أن يؤدّى ولو أغرقتنا ذنوب الأرض.

– ألا ترى أنّ في هذا تناقضاً مع منطق الإيمان ذاته؟!

– وسعت رحمته كلّ شيء.. الله يغفر الذنوب جميعاً يا عمّ "ميلاد".

– لنعث في الأرض فساداً ثم نتوب على فراش الموت إذن طالما الله يمرّر المعاصي بهذه الطريقة...!

– لم أقل أنّ الله يمرّر المعاصي.. لكنّه في النهاية قدير على تنقية قلوب عباده.. الله عليم ببواطن القلوب.. من منّا في الحقيقة يعرف ما يُضمر الآخر نحوه! لربما أنت نفسك تحمل في داخلك شائبة نحوي لا يمكنني أن أطّلع عليها!

لم يرد، أحسست بامتعاضه، تأبّطت ذراعه معتذراً ولكزته في كتفه، رجعنا إلى الكورنيش ثانية، سرحت قليلاً في هذا الخضّم الذي ينازع عقلي، أخذ ذهني يتساءل: ترى أيّ بهجة وأيّ كَبَد تحملهما يا مستقبل؟! ثم في لحظة تيّبست قدماي، أحسست كأنّ دوامة مظلمة تميد بي، كانت الدوّامة السوداء تجذبني لداخلها وكنت أقاوم، لا أعرف ربما خوفي من شيء مجهول أو ربما هذا النوع من الكآبة الذي ينتابني من وقت لآخر! دارت رأسي فطلبت من "ميلاد" أن نجلس حتّى غروب الشمس، وسألته بكلّ انكسار –ربما لأنتزع رأسي من هذه الدوامة– أن يصف لي مشهد الغروب.

* *

*

ولأنّ الأيام قد تأتي بما لا نشتهي، ولأنّ الحوادث تقع، والمؤمن مصاب، والمرء لابد وأن يرضخ للقدر...

فلم أحزن عندما رسبت في الثانوية، في حياتي توقّعت شروراً أسوأ وحدثت، يكفيني هذا الشرف الذي نلته بخوض التجربة، تجربة قررت بنفس يسكنها الرضا إعادتها، وتجاوز أولى خسائري فيها، لن أفقد غير حفنة من الفلوس وبعض الوقت، إنّها ليست هزيمة بقدر ما هي نكسة مؤقتة زوالها على الله، قال لي أبي بعدما رأى من إصراري على تكملة المشوار:

– يا ولدى أما كفاك؟ أنت موظف "قد" الدنيا.

– يا أبي، القضية قضية مبدأ، وليست قضية وظيفة، وأنا بإذن الله سأدخل الجامعة.

– كما تشاء يا ولدي... كما تشاء.

كنت أدرك أنّ أبي لن يقنعه اعتقادي، كرّست وقتي لامتحانات العام القادم، كنت أنهي عملي ثم أنكفئ فوق الكتاب حتّى حلول الليل، أقضي ساعات وساعات دون أن يصيبني الكلل أو الإحباط، راجعت المواد التي رسبت فيها مرّات ومرّات، كان أصدقائي يعرجون إليّ من حين لآخر يراجعون معي ما استذكره، وربما كان يدهشهم إصراري على النجاح، ورغم أنّي برمجت كلّ تفكيري في شأن الدراسة، غير أنّ شيئاً من حسرة كان يراود مشاعري، حين كنت أتخيّل أنّ لي حبيبة مثل سائر الأصدقاء، بل سائر الخلق، لي امرأة أحبّها وتحبّني، أفرغ لديها همومي وتضمّني إلى حضنها، قلبي لم يخل من مداعبة إحساس يداعب كلّ قلوب الناس، إحساس الحب الغريزي الذي ينبت في القلب بحلول أولى نبضاته، وكثيراً ما يقول لي أصحابي أنّني أحب على نفسي، أيّ عطر لأيّة أنثى كان إذ ينفح أنفي يجسّم في رأسي علاقة وطيدة عاطفية وأحلم وأسرح وأكتب الشعر، كنت أكتب الشعر منذ صغرى وكان الناس يسمعون هذا الشعر في أمسيات نادي الأدب بقصر الثقافة أو في أمسيات شعرية خارج المدينة، وكنت أجبر أصدقائي المتعلمين على قراءة دواوين الشعر، بمحبة ورضا، فتربّت نفسي على عشق الشعر فكتبته، كنت أجلس مع نفسي وأردّد القصائد التي أحفظها حين أسمعها، حفظت كلّ مسرحيات "شوقي" الشعرية، ديوان "المتنبّي"، و"أمل دنقل"،

و"الأبنودي" و"حافظ إبراهيم" و"حجازي" و"حدّاد"، ساعدني كلّ هذا على خلق عالم في خيالي من السرور والبهجة المؤقتة.

وكانت الليالي تمرّ علي وأنا أحلم بإحداهن، حتّى ولو لم أقابلها غير مرّة، كهذه الفتاة التي اصطدمت بها على الكورنيش فضحكت، كان "ميلاد" برفقتي آنذاك، ثم فجأة ارتطمت بهذا الجسد الطري وجلجلت ضحكة أخّاذة، البنت جلست بالقرب منّا فقال "ميلاد":

– ما رأيك؟

– اعقل يا "ميلاد"، عيب.

– إلى متى ستظل بهيماً؟ البنت مستوية.

ولكن ساورني شعور بالرهبة وقرّرت أن أكمّل سيري ولا أرجع، "ميلاد" زعق:

– ارتحت يا وش الفقر.

– يا "ميلاد" ارحمني.

– أنت الخسران.

– صفها لي إذن؟

– يا شيخ!

– والنبي.

تنهّد، وبعد تحايل وطبطبة، قال:

– بيضاء وشعرها سائح مثل الحرير، وجسمها أطرى من "الزبدة"، آه يا "حمدي"، والصليب البنت مثل القمر.

هذا الوصف، رسمته في خيالي لأيام وأيام، كنت أحلم بها، البنت النابضة في خيالي هذه، حتّى ولو غفوت نهاراً، فعلت معها كلّ شيء، كلّ شيء، بل لقد تزوجتها وأنجبت منها، حياة كاملة تضخّمت في دماغي، حياة من لحم ودم وروح.

بعد أيام أخرى، وأنا عائد من امتحاني معه، استوقفني وهتف:

– "حمدي"، فاكر البنت إيّاها؟

– من؟

– "الزبدة".

تشبّثت بيده وهتفت:

– مالها!

– قاعدة قدّامنا ومعها صاحبتها.

– احلف.

– وما الداعي للكذب! انتظر.. انتظر، إنّها تلوح لنا بيدها.

– والنبي.

– يا بن المحظوظ، هيا لا تكن جباناً وروح كلّمها، باضت لك في القفص يا معلم.

تمتمت منبهاً:

– يا "ميلاد"!

– و"غلاوتك" إنّها تبتسم الآن.

– خذني من يدي، ماذا تنتظر يا ثور؟

شدني بأناة من ذراعي ومشى بي راجعاً للوراء، قلبي يدق بوجل، غير أنّ غبطة شديدة تفعم كياني، سأكلّمها، لن أخجل، الحلم الذي حسبته لن يتحقّق، ها هو يفعل، وها هي جالسة أمامي في انتظار كلمة منّي، قدماي ترتخيان، تصطدم ركبتاي ببعضهما البعض، وأسناني تصطك، لكن سوف أتحدّث إليها لا شك، الموقف المهيب يدنو، لم أكلّم من قبل فتاة، ولكن هذه ليست فتاة عادية، إنّها حلم الليالي الفائتة، اقترب بي "ميلاد" ثم مال عليّ هامساً:

- انطق يا "سي حمدي"، لا تخف.

بصوت متحشرج وعضلات وجه ترتعش، قلت وأنا أزدرد لعابي متنحنحاً:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

تسمّرت وأُسقط في يدي، كان الصوت الأجش الخشن الغليظ الذي أجابني لا يوحي بوصف "ميلاد".

- أيّ خدمة يا أستاذ؟ فول ولا ترمس!

سقط "ميلاد" على الأرض غارقاً في نوبة ضحك أعقبها سعالاً متواصلاً، كشّرت قائلاً:

- سلمتني لبائع الفول يا "ميلاد"؟ شكراً يا سيدي.

وتصنّعت الغضب قليلاً ولكن نوبة الضحك المسيطرة على "ميلاد" سرعان ما اجتاحتني فانهرت على الأرض جواره ضاحكاً بأسى، ناعياً بختي القليل في الحياة.

" فقال يسوع: اغفر لهم يا أبي لأنّهم
لا يعرفون ما يعملون " [9]

علوان

ترى أين الطريق؟ عيناي تتفرّقان في كافّة الاتجاهات، وساقاي أضمّهما معاً بمشقّة، أجدهما قد انحرفتا فجأة، وأخذتاني نحو درب

آخر، في مسلك آخر، والبيوت تتمايل حولي وتصارع ثباتي فوق الأرض، تتمايل ضاحكة مستهزئة، ضحكاتها تملأ أذنيّ فتوتر انبساطي، فأجري عليها محاولاً إسكاتها، أضربها بجسدي كلّه، ولكن الحياة التي تبدو كسراب يلف عينيّ تتماهى، أجلس على الأرض، والحمرة الخفيفة التي تطمس حدّة البصر داخل عيني، هي نفس الحمرة التي تنتشر في الأجواء على مدّ النظر، ورأسي تشبه بركة من ماء راكد أُلقى فيها حجر.

ببطء، أدفع باب البيت، لا داع لأن أغلقه بترباس، فلا أظنّ أنّ بيتي فيه ما يغري لصّاً للدخول، فيه أمّي فقط وهي امرأة عجوز لكنّها كافية لحراسته بعض الشيء.

على الكنبة التي تقابلني أول ما ألج، أرمي رأسي متعباً، ويستدعيني النوم.

* * *

أزور مقام سيدي "أبو القمصان"، يخرج لي بقامته السامقة ووجهه البريء ويقترب منّي، يكبّل جسمي مبتسماً، ثم يشّق صدري ويتناول قلبي فأرمقه خائفاً.

– ما هذا؟

– لا تسل.

كان عليّ أن أخضع بلا فهم، لكنّني أغمضت عينيّ ولم أشعر بأيّ ألم.

- لابد أن تعي حدود جسدك.

أفتح عينيّ بأناة وأجده قد شرّح جسمي كلّه فلم يتبق لي سوى رأسي.

- تعدّيت على حدود ليست لك.

بلوعة أحرّك رأسي يمنة ويسرة، إنّما بلا جدوى، أجزائي جميعها متناثرة من حولي وهو يعبث بها دون أن يرفع لي عيناً، أصرخ، غير أنّ صوتي لا يسمعه سوى عقلي البائس، يهمهم:

- هل تدرك منتهى تلك الحياة التي تعيشها؟

أعد لي صوتي يا شيخ بالله عليك، لكي أتمكّن حتّى من مسايرة الحديث، وأحاول أن أجيبك. شيء من داخلي يخبرني أنّني مجرّد نفس معذّبة، وروح طال بها الانتظار لكي تحطّ بها السكينة، روح منتظرة منذ بدء الخليقة، منتظرة هكذا، تتألم، تتوّجع، وتنطوي آملة في الاستقرار. الشكل المصنوع من أجزائي يتحوّل إلى عامود من نار، ينبض بقلبي، يئن، أنيناً خافتاً، وصوت الشيخ ينساب إلى أذنيّ هامساً:

- أيّها الضعيف.

يعبث في الشكل أمامي والمصنوع منّي ويكمل:

- لا تأمل النجاة.

فأسير بلا وعي نحو حواف الزمن، وأدنو من الفناء شيئاً فشيئاً، ليس الفناء الذي يعرفه البشر، بل فناء مبهم، شديد الظلمة، وأضيع، يسوقني الشيخ بلا إرادة إلى أن أكون شيئاً جديداً، لا

بشري ولا أبدي، مزيج منهما، يتركني ويستقيم، يبتعد عنّي شامتاً، يقول قبل أن يغادر:

– هذا اختيارك.

* * *

ينبثق في رأسي ضياء، ويلقي الفجر بخيوطه الفضيّة على عيني، فأنهض، أزفر بارتياح، وأسند بيدي رأسي المقلقة. دبيب الأقدام خارجِ بيتي يسفر عن عودة الحياة إلى القرية بعد موتها ليلة كاملة، ليلة كنت أنا فيها الحيّ الوحيد الذي يجوب جنبات البلدة، أجاهد أن أقيم على قدميّ جسدي، ولكنّه لم يزل متوّرماً بعد علقة الملعون "حمزة"، حتّى ولو شرعت جروحه في الاندمال، أرفع رأسي إلى صورة أبي المركونة في زاوية شبّاك، وأتنهّد، كنت يا أبي الرجل الوحيد الذي وقف في وجه العمدة الكبير؛ "أبو حمزة"، آه يا "حمزة"، ألم يكن أبوك هو الذي قتل أبي؟ وحرّم علينا رفقته، ماذا فعل أبي لأبيك؟ هل لأنّه الوحيد الذي تجرّأ وطلب من الناس أن يتألبوا عليه، لينتزع كرسي "العُمدية" لرجل أصلح منه، كانت كلّ جريمته، وكان العقاب أن يموت ككلب لا ثمن له، يا لها من قرية هذه وضيعة جبانة! لم يواسينا أحد، بل اختبئوا في بيوتهم خوفاً من بطش العمدة الكبير. طبّ علينا يومها في البيت، وسوّره بخفره لينال من أبي، أبي حاول أن يهج، كان لابد أن يفعل، ففي أبسط مواجهة كان يمكن أن يموت.

كنت صغيراً، وأنا أراهم يعدون خلفه بين الغيطان، ونور الشفق يمهّد لهم طريق المطاردة، التي كانت بالأسلحة والرصاص والعتاد، لمجرد النيّل من رجل واحد ضعيف.

كنت صغيراً، لكنّني أجزم بأنّني سمعت صوت عيدان الذرة وهي تتمزّق تحت أحذيتهم القاسية، صوت العيدان الذي اختلط بصرخات أمّي العاجزة، وهي تمسك بتلابيب أحد الخفر وتستجديه الصفح، لكنّه نظر لها بقلّة حيلة ومضى خلف بقيتهم ليفتكوا بأبي، العمدة لم يتحرّك، وقف أمامنا وشرّ الكون بعينيه، وكان يراقب كلابه التي رحلت في إثر أبي ينتظر الإتيان به، أمّي خرّت تحت قدميه:

- الرحمة يا عمدة.

وهو يجزّ على أسنانه قال:

- وهل كان لابد أن يتمرّد ويعاندني؟ أنا الحكومة في هذه البلد يا ست.

- غلطة والله يا عمدة، غلطة ولن يكرّرها.

- خرج الموضوع من يدي، المأمور بنفسه طلبه.

كان الصخب الذي يحف بالدنيا أقوى من أن تتمكّن نفسي من المقاومة، أمسكت ساعد العمدة، وعضضته بعنف، حتّى سال منه الدم، رفعني عن الأرض ورماني نحو الجدار فسقطت على وجهي وانكسرت أسناني، أمّي وقعت على الأرض ولمتني في حضنها وراحت تعوي كمن يحترق، وصوت الطلقات الذي يرشق أسماعنا انكتم

فجأة، بعد أن صاحبه صوت أبي العالي وهو يتوجّع، كانت صرخة أخيرة بعدها سكت، وفجأة كذلك سكتت أصوات الحياة من حولنا، واعتلت وجه العمدة ملامح الظفر، قبل أن يخترق الغيط ليطمئن أنّ الموضوع قد انتهى للأبد.

كم من السنوات مرّت عليك يا أمّي وأنت خرساء حزينة جالسة في البيت شاردة؟ لا تعرفين ما يحدث لولدك هناك بالخارج! تجهّزين الطعام وتعتنين بالبهائم وتجوسين فيّ بعينيك كأنّك بلهاء.

جاءت بالطعام، وضعته أمامي وقعدت، قلت لها:

– ربنا يبارك فيك.

رغم أنّها لا تبادلني الكلام، لكن لا آبه، كنت أكلّمها وكأنّها تتجاوب معي طوال الوقت، أجلس أحكي لها عمّا يحدث في قرية البؤساء.

قلت لها في حنق: رغم كلّ ما يفعله الخلق معي، رغم احتقارهم لي، واستهانتهم بي، غير أنّ ركوبي الحمار عارياً خلف خلاف لهو عار يا أمّي، وأيّ عار!

لم أشعر في حياتي بالانكسار الحقيقي إلاّ وقتئذ، سامحك الله يا "حمزة"، فضحتني وسط كلّ سفلة قريتك السخيفة، لو أمكنني فقط، ولو أسعفتني ظروفي، لانتزعت عينيك، لعلّقتك في أعلى نخلة، لمزّقتك إرباً بلا رفق.

ماذا تعرف أنت عن شعوري؟ تحسبه ويحسبه الجاهلون مرضاً، لكنّه في الحقيقة متعة ليست بعدها متعة، لا أشهى ولا أحلى من ثمرة تفتّحت للتو.

حينما أشرب وأهيم في القرية على وجهي تحسبوني سكيراً، هذا يا أغبياء من فرط العشق، نشوة الصبايا تسكرني لا الخمر، فقط هذه النشوة التي لن يمتلكها أحدكم يوماً، ماذا تعرفون عن عطايا الله؟! النفس فوّارة والله خلقها لتتعاطى مع كلّ الهبات، لم يخلقنا الله لفرض من دون تفكير، وإلاّ لركعت البهائم مثلما نفعل، خلقنا الله لنقدّس الفرض، ونقدّس النشوة، خلق أرواحنا كي لا تُرى فيمكنها التسكّع في أرجاء الكون الفسيح بلا رقيب، وإلاّ لأمسك أحدكم بالروح...! هه! من يقدر؟!

لتمسكوا بها أيّها التعساء إن استطعتم!

الشيخ إبراهيم

أجلس تحت شجرة "الصنط" المتهدّلة وفؤادي مضطرم، ليتني أنفلت من إطار هذه التجربة، ربما، إذ أخال في نفسي القدرة على ذلك عقب سنوات العمر المنصرمة مع الجانب الآخر من بني آدم، غير أنيّ قد بدا عليّ هذه الفترة الأخيرة، رغم قصص الخلق، عن جسارة قلبي غير المسبوقة لأحد منهم، بدا بشكل طفيف، ثمّة خنوع في هذه الجسارة، فغارتا عيناي بمحجريهما بشكل ملحوظ، الرعشة

الطبيعية بجسمي صارت لها برودة مواكبة، الرعشة هذه نفسها انقلبت الآن لرجفة مرعبة لا تفارق بدني، أشعر أنّ عزرائيل لم يزل متوثّباً هناك في السماء، وسيفعلها عمَّا قريب.

ولابد أنّ رهاب الأشياء بأسرها أصابني، تلك العينان تنظران لي من كافّة الزوايا، أجلس على كنبتي في الجبّانة فألمحهما متواريتين خلف شاهد أو ضريح، ألمحهما دون شك، أصلّي فتراوداني من كلّ اتّجاه، أنام، فأجدهما مرسومتين كما هما –كما رأيتهما تماماً– في السقف.

عارمة ريبتي إذ ينسل الليل متخفيّاً من وراء قباب الرمال الراقدة خلف الجبّانة، كم عارمة! لو أحس فقط، مجرّد إحساس، بالخطر، هنا قد أرتاب في دخول الليل عليّ، وأظلّ صاحياً، لا أفعل شيئاً غير الجلوس أجوب بعينيّ جميع الأركان، أرتاب في صوت "حمدي" حين يناديني، وأحسب أنّ الوهم قد صاغه، أرتاب في حفيف أوراق متهالكة تتبعثر فوق الأرض، أشعر أنّ خطوات ما قادمة، أرتاب في وهج النجوم إذ أحس أنّ عيني عزرائيل المتّقدتين ترقباني من عل، أرتاب في كلّ شيء، وأيّ شيء، إذ أنّ الخطر المحدق قد يتمثّل في أيّة مفردة، فأعيش سواد الليل بأكمله مستيقظاً، دون حتّى أن ألفت لي انتباه ولدي.

هزيم الرعد بلا مطر مريب، حتماً هذا زومه، صراخ الكائنات المتمدّدة بالخارج هناك لا يعني غير أنّه –عزرائيل– قد لاح لهم في أفق، عيناي مالهما لا تستطيعان اليوم تحديد هوية الأشياء؟ ندف قطن بيضاء تهيم أمام بصري، لم أعد أميّز اليوم ما بين قبر وآخر،

تشابهت كلّها، لم أعد اليوم -يا لدهشتي!- أفسّر حروف القرآن المسطورة بخط واضح في مصحف كبير، أحس الآن إحساساً قاطعاً لا ريب فيه ولا زيف أنّ العدّ التنازلي قد بدأ، وإنّني لابد لي أن أنتظر.. مرغماً.

الأب لوقا

غريب هذا اليوم! حرّ من دون صيف يذكر، جسد مشتعل بلا بوادر أو دوافع، أشعر كأنّي عدت إلى نقطة بدء الخليقة، إلى الأرض الخربة التي اكتست بالمياه والجلد واليابسة ونهار وليل وآيات وشجر ونبات في أيام ستّة، فأرحني يا الله ممّا يجيش ولا أعرف له موطناً كما استرحت بعد يومك السابع، أدعوك فاستمع لنجواي وأرحني، ليس لي من بغية سواك فما ذاك الذي يشتعل؟! أهو الجسد أم روحي؟! اشتعال لا تطفئه ولا حتّى أنهارك الأربعة، لا "فيشون" ولا "جيجون" ولا "حِداقل" أو "الفرات"، لو تلاقت الأنهار في جوفي بكلّ صخبها وزبدها وهياجها ما أطفئت مثل هذا الاشتعال.

"هذا كتاب مواليد آدم، يوم خلق الإنسان على شبه الله عمله ذكراً وأنثى"[(10)]

إلى أيّ مدى قد يمتدّ هذا الاشتعال! أطيف أنثى زهدنا عنها لأجلك يا رب مرّ من دون أيّ احتمال! أم فكر عاصف لا يرسو

على بر! لابد أنّها الحيّة أحيّل جميع حيوانات البريّة والتي عملتها وسواساً يراود الهفوات، لكنّها عدوة ما طال عمر الإنسان، يجب سحق رأسها التي تنخر في رأسي، كيما يخبو اشتعالي.

أدور في غرفتي وأدور مثل عصفور تحوطه من سائر الجهات نار، من حولي نار وفي داخلي نار، أحس كأنّ نهاية كلّ البشر قد تمثّلت أمامي، وهأنذا سائر نحو الجحيم بلا رجعة، لم يكن في حياتي مثل ذاك الانكسار، إنّها لحظة البدء، عند إن كانت على وجه القمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، فأنقذني يا الله من التّشظِّي، عشت لك فأرني النور الذي قلت ليكن نوراً فكان نوراً، لا تجعل الظمأ يملأ روحي الآن، لا تجعل الظلمة تسود، بدّد بقدرتك كلّ ما تبتغي النفس اللعينة من مهالك.

أفق يا "لوقا"، أنت تراب وإلى تراب تعود، فاترك النار لأصحابها من الأبالسة وعد بروحك لا تتوغّل أكثر، يا رب.. أمطر عليّ من السماء واسقني بالكفاية والزهد الأبدي، "يسوع".. كلّمني وتمثّل، مدّ يدك وشدّني نحو الاستقرار، صلّيت لك فصلني، هدئ قلبي الذي يخفق من موضعه ويضطرب.

أدور وأدور، يحملني جسدي من شمال الغرفة ليمينها، أحاول أن أطرحه فوق الفراش دون جدوى، غاب العقل، يتحسّس جسدي كلّ التفاصيل، يلتهب إن لامسه ناتئ، أناجي الربّ أن يُفرغ معاناتي كما

فرغ في اليوم السابع من عمله الذي عمل. أفقد "لوقا" رويداً، ويتلبّس فيّ الملعون، أنازعه، أحدفه في أقصى الغرفة فيتقمّصني مجدّداً، يا "يسوع".. أنقذني من لي سواك! كثيرة هي نكبات الشرير، لكنّها نكبة بلا مقدمات، لعلّ الرواسب تكمن في النفس الأخرى المعاندة، لكنّ المقدمات ضائعة، أين أنت يا "لوقا"؟ عد، ضع روحك بين يديّ سيّدك ثانية، ولا ترتحل نحو الخطيئة، استقم أيّها الفؤاد، لا تدعني يا رب أخزى مدى الدهر، نجّني، كن لي صخرة حصن وخلّصني، خلاصي من الشرير أنت، ارحمني لأنّي في ضيق وكرب، لا تدعني أشقى فيصبح جسدي عاراً على روحي، لا تترك للشرير جسدي، لا تتركه، واخزه، اخز الشرير وأسكته في الهاوية بإذنك ورجائي. أدور.. أدور، تتلقّف جسدي جدران الغرفة واحداً يليه الآخر، تخرج من عينيّ النار ومن أنفي وفمي، أصرخ في صوت عال: أعترف لك بخطيئتي وذنبي ولا أكتم إثمي.. أنت ستر لي.. أعترف.. أعترف.. أعترف.

طرقات على باب الغرفة، وعرق يسح ليجلو من النفس بعض النار، شفتاي تنفتحان ويعتريهما التهاب مزمن، اتّجه في بطء للباب، وأقول آملاً:

– "طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيئته، طوبى لرجل لا يحسب له الربّ خطية ولا في روحه غش"(11)

بسطاوي

حين اختفى "بسطاوي"، كلّ ما قيل كان على لسان العمدة، ربما هو الوحيد الذي حكا له "بسطاوي"، قيل أنّه كان في الصحراء، "بسطاوي" خرج من عند الشيخ "إبراهيم" وسافر، ساورت رأسه مناجاة ما، خطر له أن يسافر إلى "قنا"، زهد الدنيا! ربما، ضاق ذرعاً بها وبمن فيها! اشتدّ حزنه على "عزيزة"! المهم أنّه ركب "الميكروباص" إلى "قنا"، ثم في نصف الطريق نزل، ومشى، وصل بعيداً، صحراء قفر، لا إنس فيها، صحراء في "قوص"، لا يعرف لم ركب ولم نزل! لا يعرف لِمَ مشى كلّ هذا حتّى بلغ هذه الصحراء! هاتف مبهم ألحّ على رأسه وسحبه إلى هناك، فسار حافياً، تحت حرارة شديدة، وفوق رمال ملتهبة، لم يكترث، بل سار، وسار، ولم يُنهك، ولكن الشمس كانت قد بدأت تغطس خلف تبّات الرمل المحيطة، فوقف، جال ببصره حوله، وأيقن أنّه فقد طريق الرجعة، جاس في الرمال الملتفّة على مدى البصر، التي لا بداية لها ولا نهاية، وحدّق في السماء السرمدية، لقد تاه، هز منكبيه وابتسم ببلادة، بلا اهتمام، تمدّد على الرمال وسند رأسه على كفّيه وأسبل جفنيه ونام.

ولم يعرف كم فات عليه؟ فقط انتفض "بسطاوي"، صحا على القعقعة، كان فحيح أفعى يدنو من سمعه، فتح عينيه وانتفض، ضرب الحيّة المتحفّزة برجله فطارت بعيداً، وتثاءب. كم فجراً وُلد عليه وهو نائم؟ هل نام كلّ هذا في العراء؟

استرجع حلماً أتاه فعقد حاجبيه، رأى الكون متأجّجاً بالنار والناس تتلوّى من غمرة الألم، تصرخ، تلتهمها النار بلا شفقة، كلّ الوجوه التي يعرفها مرسومة بالفزع، حتّى هو نفسه، لم يسلم من النار، كانت النار الشريرة تطويه طيّاً، تأكله أكلاً، النار لا تستثني أحداً، العمدة والشيخ "إبراهيم" وكلّ أهل القرية، حتّى الأب "لوقا" والشيخ "عوض الله"، كانت النار ألسنة تلعق وجوه البشر وأجسادهم فتصهرها، تذيبها ذوباً في لمح بصر، والشياطين كانت هناك بقرونها الصخرية ووجوهها الحمراء تصفّق، كانت تتقافز كالقرود وتصفّق، تتواثب حول البشر ضاحكة، لم ينج أحد من هذا الجحيم، ترى.. أهي القيامة!

تخبَّط بصره في بساط الرمال الممتد، راح يعدو محاولاً سبر طريق العودة، قضى ساعات في الصحراء حتّى حطَّ به الكلل، لكن بعض الأصوات كانت تشدّه فيلاحقها، أصوات الحياة القادمة من بعيد، وكان كلّما يشعر أنّها تدنو تبعد، راح يركض نحو تلك الأصوات، يركض، ويركض، سرعان ما تكشّفت له خيوط الحافلات والمركبات والسيارات البعيدة كأنّها أسراب من حمام تطير متلاحقة على المدى، هرول، كبرت الأصوات في سمعه، وتضخّم الخيط البعيد، ثم بلغ الطريق، متعاقب الأنفاس تسمّر أمام سيارة، ورغم اكتمال عدد ركابها إلا أنّ السائق لم يعترض أن يقلّه.

متأرجحاً، تعلّق "بسطاوي" بباب السيارة، يلطمه الهواء القادم من ثقب الطريق المنتهي إلى نقطة عند آخر البصر، تنغلق أهدابه وتنفتح بسرعة السيارة، السائل الذي يلفظه فمه للخلف يطير مع الهواء بعيداً وقد يصدم وجوه القادمين وراءه على موتوسيكل أو جرَّار، كانت الرؤيا في المنام لا تزال تربض بطيّات عقله، وما زالت هيبتها ترغمه على التجهّم، لم يكن بحال يعرف كيف ساقته قدماه لغياهب الصحراء ولم يكن يعرف كذلك كيف سيرجع! إنّما تفكيره المحدود بلغ به تفسيراً أنّ الرؤيا تلك لربما كانت مرتبطة بهذا المكان، ومرتبطة بما حدث لـ"عزيزة"، وربما كذلك أنّ هاتفاً جذبه إليها، المهم أنّ البشر سوف تعاني، القيامة قريبة أكثر ممّا يتخيل أحد، شيء يدفعه لتحذير هؤلاء البشر، يتعيّن عليه أن يحذرهم، لابد وأن يفيقوا من غيبة الدنيا فالمصير رآه هو رؤية عين .

السيارة تمضى به حثيثاً على الأرض الممهّدة في طريقها إلى الأقصر، تقطع أميالاً، وتطوى تحتها الطريق الإسفلتي طيّاً، تجتر النخيل الباسق على ضفّتي الطريق بذات السرعة التي يجتر بها ذعره، شطر بصره صوب الطريق الذي يبدو ألاّ نهاية له، ظلّ يراقب النخيل الذي انشقّت عنه الأرض غير آبه بمسارب الحياة، يحف الطريق من جانبيه، يشمخ حيناً يشق صدر السماء ثم ينحني تكاد تلمس أعاليه الأرض، نور الشمس أقوى من أن تتحمّله عيناه، كأنّها نار الحلم، الأفق يضم فزعه كلّما توغّلت السيارة في سمتها، ويترجم تفكيره، بدأت معالم القرية تنبت، لم يقو فأخذ يلهث، السيارة تدنو بأناة

والبلدة تدنس من عينه ويكبر حجمها بمقلتيه رويداً، تزداد دقّات قلبه ويضطرب تفكيره، يتفصّد العرق من جبينه، آه.. ليت يسمعه الخلق!

وصل والنهار يكتنف الرءوس، أول ما فعل جلس على المقهى ونادى على "سوسو"، كان يلهث فجاءه "سوسو" بكوب الماء، مستغرباً من طلعته المفاجئة، جرعه وقال لـ"سوسو":

- "آللي" بالك.

- ممّ يا مولانا؟

- "لبنا أعلان".

- ربنا "زعلان"!

- "أيوه مار.. أعلان".

- اللهم اجعله خيراً.. "رايقة" معك يا مولانا!

– "هايم.. الناس ألها هايم.. ولا آحد آهم حاجة.. أنيا ألصت، لبنا فوك إمسح أنيا وناس وأل حاجة، آر آكل أل الناس، أل الناس".

– بهائم بهائم.. اهدأ.. ولكن الدنيا كيف خلصت يعني! وأيّ نار هذه التي ستأكل الناس؟

– "أووووه"................

وقذفه بكوب الماء، لن يفهمه الناس البهائم، لا يدركون أنّ الخطر حاق والآخرة أوشكت على الحلول، انسكب الماء على جلباب "سوسو" فابتسم، لكن "بسطاوي" رمقه شذراً ونهض يصيح بكلام رجّح الجالسون أنّه مجرّد فكاهة، "بسطاوي" فاقد خط الاتّصال مع هؤلاء رمح، الوقت لا قيمة له معه، النهار كما الليل، والليل كما الصبح، والحر شديد، غير أنّه كان يمرق بين النخيل والبيوت بعصبية كالمسعور، يلكز من يلكز ويعبره، يصدم آخر ولا ينظر للوراء، الناس ضباب ما أسهل عبوره! والضباب أعين تحدّق فيه بلا مبالاة واستغراب فيه شيء من سخرية، صوته يتبدّد في بطن الضوضاء المحيطة النافذة إلى أذنيه:

– "آآآآر".........

النار؛ النار تلتهم الأخضر واليابس ولا تصفح، ولا أحد هناك يصيخ سمعه منتبهاً، النار؛ النار في رأسه الواهنة وفي رؤياه. وقف قليلاً أمام دوّار العمدة، انحرفت قدماه وجهة الباب الحديدي العتيق، إنّما أحسّ أنّ العمدة لا يزال غاضباً منه، مؤكد غاضب، ولن يسامحه بسهولة، بل وربما يخشى عليه من نار حلمه، فتجمّدت قدماه وآثر أن يُكمل ركضه، سيطرت عليه هذه اللحظة هواجسه، فكان كالمجنون، يزعق بهلاوس، يهذى، كعادته بينهم، لم يعرف أحد فيهم ما حضره أثناء نومه في العراء، لم يجل بخاطرهم مدى هلعه غير أنّ قلة حيلته أوصلته على غير العادة أمام الكنيسة، وفمه يدلق اللعاب، الأغبياء حتّى لا يكلّفون أنفسهم جهد الإصغاء، ستقوم القيامة وهم لا يدركون عنها شيئاً وهو يخاف من النار، النار هي الشيطان، والشيطان يعيش بيننا وقد يبدو في صورة أيّ واحد ممّن يسكنون الحياة.

العمدة حمزة

هل صحيح أن من يحكم الناس لابد وأن يكون أقوى منهم؟ على الأقل ربما لكي يبسط عليهم نفوذه كيف يشاء، أبي كان هكذا، إنّما لا أشبه أبي في شيء، فأنا واحد منهم، نشأت بينهم، وتربيت معهم، أنا أضعف كثيراً من أضعف رجل فيهم، أبي كان قوياً، قادراً على فرض هذه القوة، أما أنا فلست في مثل قوته، وجبروته، لن ألعن هذا السلسال من الإرث الذي سلّم لي كرسي "العُمدية"، ولن أعترف

أنني ساخط على هذا الكرسي، أو باغض له، ففي الحقيقة أحببت كوني عمدة البلد، وراعي ناسها وكبيرهم، غير أنّ هذا الإحساس الذي يأتي بلا مقدمات ويتوغّل في صدري فيفقدني هذا الحب لهذا المسمّى ازداد مؤخّراً، فلو لم أكن العمدة ما فقدت صديقي "لوقا" بعد واقعة سخيفة لا تعدو كونها أكثر من أضحوكة وسط الخلق، إنّما كوني العمدة هو فقط ما استفزّني ودفعني لقطيعة بيننا لم تحدث قبلاً، آه يا "لوقا"، صداقتنا يا عزيزي على المحّك، وعشرتنا باتت طي الجحود والكبرياء الأعمى الذي يلف عيني العمدة، آه يا "لوقا"، هل تعرف كم رغبت في أن آتي إليك وأشدك إلى صدري معتذراً حين آويت "بسطاوي" وأكرمته، لكن ساعتها خرج العمدة من داخلي، بنفس الوسيلة البلهاء للحفاظ على ماء الوجه والكرامة، وبنفس الكبرياء الأحمق، ليمنعني من الذهاب إلى الكنيسة، وأجبر لساني على أن آمر خفيراً ما لكي يذهب إليك بدلاً منّي ويحضر "بسطاوي".

أعلم عن حزنك، أعلم دون أن أراك، لا تحسب أنّني ما عدت أعرفك حق المعرفة، فمؤكد قد أطرقت وخفضت بصرك أرضاً ثم قلت للخفير بكلّ هدوء ومرارة وأنت تومئ برأسك: – خذه، فهو الآن بخير.

أكيد بخير، طالما كان معك يا صديقي، أنا نفسي لا آمن أحداً على روحي سواك.

ولكنّك بعد أن ابتعد الخفير ب"بسطاوى"، لابد ورمقته بنظرتك الطيّبة وضحكت من قلبك، لابد فعلت، وأنت تراه يسير أمامك بمشيته المترنّحة الجميلة، وعيناه لا تفارقان عينيك، ولابد تذكّرتنا معاً، ونحن نهرول وراءه، بين قسم الشرطة والنيابة، كان هذا آخر موقف جمعنا سوياً، عندما قبض ضابط مباحث أهوج على "بسطاوي" وهو يشرب البانجو في ساحة سيدي "أبو الحجاج"، "بسطاوي" كان تارة يقيم في القرية لأشهر طويلة، وتارة يختفي، يزوغ في لمح البصر، فلا يحفل أحد لمغيبه غيرنا يا صاحبي.

كلانا يعلم أنّ "بسطاوي"؛ هذا المجذوب الأهبل، بركة، وله كرامات، روحه صافية وعقله في عالم لا نعرف عنه شيئاً، أنت قلت لي هذا، ألا تتذكّر؟ يومها، الضابط المعتوه صمّم –رغم توسّلات العديدين– أن يأخذه إلى قسم الشرطة، وقتها لم يقدر أحد من محبّيه في الساحة هناك أن يتمكّن من مساعدته، فاتّصل بي أحدهم على هاتف الدوّار، وهرعنا خلفه، دخلنا للمأمور، كم تعجّب حين شاهدك تدلف له شخصياً ويدك في يدي! رجوناه أن يفرج عنه، كان المحضر قد حرّر، تعامل معنا المأمور ببرود وقال بلا مبالاة:

– الموضوع عند ضابط المباحث.

صعدنا لضابط المباحث، تحدّثنا معه في جزع وثورة وغضب، قضينا ما يزيد على الساعة ما بين توّسل ومحاولة إقناع الضابط بأن يرحم هذا الولي، لكن الضابط قال:

- وهل ينفع يا عمدة يشرب مخدرات عيني عينك في الشارع؟ ما رأيك يا "أبونا"؟

لكنك تفحصته بغيظ وقلت بهدوئك المعتاد:

- هذا رجل "غلبان" ولا يفهم.

- والقانون؟

- حضرتك هذه النوعية من الناس لا تعي القانون، هؤلاء مع الله.

- ولو.

- يعني!

- يعني تقابله في النيابة.

مسكين.. لا يدرك أنّ دعوة من هذا الرجل تنكّسه بقية حياته، كيف فرغت الدنيا من العدل والضمير! كيف خلت من الرحمة والتسامح!

كلّ ذنب "بسطاوي" شرب البانجو في قلب الشارع! ألم يأت "بسطاوي" بالمخدرات من قلب الشارِع! بالله من باعه الممنوعات!

وقتها زعقت في الضابط وكانت أول مرة أراك منفعلاً:

– فلتحاسبوا من يزرِع لا من يحصد أيّها........

ولم تكمل؛ لابد أنّ رسالتك وصلت، خرجت أنت ووجهك يكب الدم، لم تحتمل، فذهبت، وظللت أنا مع "بسطاوي" الذي بات ليلته وراء قضبان حجز "النوبتجية".

دخول سريع

سند رأسه على الجدار، أذناه تسرّبان تهكّمات بعض الأفراد والضباط، غير أنّه لم يحفل، وطاف في فضاء بعيد، رائحة البخور الطفيفة تنفذ إلى أنفه، وتسبل جفنيه رويداً.. رويداً، الرائحة بعد دقائق تتفشّى في المكان كلّه فتعبق الجو بأكمله، والدخان.. هذا الدخان الأبيض المشوب بزرقة طاهرة صافية، يلف المعالم والوجوه،

فتنغلق عيناه تماماً، ويجوب براءة الخيال بروح توّاقة، ينفصل عن الجاذبية ويتسلّل خارج القضبان ببساطة، قد غادر العالم، ومن نقطة بين الدخان والمدى ومن ناحية نهاية البصر، ينبثق نور ويجلجل صوت تردّد صداه عالياً في أذنيه: "أبو القمصان". فيهلّل ويقفز، يركض، يحتويه النور، تنساب أعماقه للا مستقر، ما أعذب الطيران في الملكوت، ثم بغتة يسقط، يشعر بتلك اليد التي تغلّل معصميه بالأصفاد المعدنية، الضابط من بعيد، من وراء مكتبه يصيح:

- صح النوم.

خروج أسرع

أسبقه لسراي النيابة، يحك جفنيه، ويصحو متثائباً، يكتمل طابور السلاسل، يسوقونه مع القطيع، يصغر، يدفعونه داخل السيارة الزرقاء الضخمة شرّيرة الملامح، عيناها تنظران إليهم بمقت، تدمي يديه الحلقات الحديدية، فيحاول أن ينبّه الشرطي المرافق كي يوسعها قليلاً، فلا يعره بالاً ويجلس بتضاريس وجهه القاتمة يحدجهم.

وصلت المركبة تتجشأ الدخان الأسود فوق وجوه الناس في شارع المحكمة، ترجّل، وتمّم ضابط "الترحيلات" على العدد ودلفوا إلى المحكمة، أساريره انفرجت حين رآنا معاً في هذا الصباح بعد أن

وجدتك من السادسة تأتي إلى المحكمة، كنّا أول من يستقبله على الدرج، رفع يديه ولوّح لنا وهو ينادي بحرارة:

– "بووووونا"..........

قعد "بسطاوي" على الأرض بعد أن صافحناه، تمدّد، وغطّ في النوم، ومن تحت الجلباب الفضفاض ظهر طويلاً وكأنّه يبحث عن فريسة؛ قضيبه الضخم، بعض المحاميات وقفن يتطلعّن لهذا المشهد وهن يتهامسن، رمقتهنّ بغضب فانصرفن، وانحنيت تسحب جلباب "بسطاوي" إلى الأسفل مخبئاً عضوه.

كنت تتطلّع إلى "بسطاوي" الغافي الذي تنسال من داخل فمه خيوط اللعاب، وهو يبتسم، قلت سبحان الله، براءة كهذه كيف تعيش بيننا؟ "بسطاوي" الأهبل المجذوب الولي الساذج أبيض القلب، كيف يحتمل التعايش معنا نحن البشر؟

أيقظ عسكري "بسطاوي" وأزال القيود عنه بعد أن طلبته النيابة.

دخلنا معه إلى مكتب وكيل النيابة، وفي الحقيقة كان مهذّباً، تفحّص "بسطاوي"، الذي كان واقفاً عند باب المكتب وهو يبتسم ببلاهة، يسكب اللعاب على رقبته ويهش ذبابة تحوم حول أنفه، وجهه الممتلئ بتعرجات الزمن وشعره الهائش فضي اللون لم يخفيا

سماحة ما تنبعث منه وتفعم المكان، ثم قال –هذا بعد أن طلب لنا القهوة–:

– قرّب يا "بسطاوي".

بخطوات بطيئة دنا من وكيل النيابة.

– معك بطاقة؟

فأسرعت أنت يا صديقي قائلاً:

– أضمنه سعادتك.

وكيل النيابة حكّ ذقنه مفكّراً لحظات ثم ابتسم ورمق "بسطاوي" وهو ينهض مصافحاً إيّانا باحترام شديد:

– خذه معك، مجيئك هنا يا "أبونا" ضمان كاف.

حمدي

السماء لا ترتضي سوى الإغراق في التوسّل، الأكف الضئيلة التي ترتفع طلباً للرحمة باتت ترتعش من بطء الاستجابة، لو أنّ الله

مشغول عن الخلق لاكتفى منهم بالقليل وما امتلأت الأرض منذ ملايين السنين بهم كطوفان هادر، وليس على وجه البسيطة من لا يلوذ بك يا ربّ، حتماً سيفعل، تحت ظرف ما، في لحظة ما، سيفعل، وأظنّك لن تملّنا قط.

أرجوك يا إلهي سماعي، ألم يكن من رحمة تسبغها عليّ غير رهافة الفؤاد! هل تلك رحمة؟ أنا الذي لم أصب من الدنيا إلاّ الإحساس، ولم أغترف ملذة ولم أجِد، الغرباء حولي في كلّ مكان، ولي قلب يقول المقرّبون هو من ذهب، لا أعرف لون الذهب ولا أدري عن قيمته، كلّ ما أعرفه أنّ الذهب من نسيج الشمس، والشمس حامية، لا ترف فيها ولا بهجة منها، تلسعني أشعتها، ولا يمكنني حتّى تحسّسها عند نزولها فوق وجهي، يقولون أنّ ضوءها مزعج، إنّما لن نعيش من دونه، مزعج غالباً، دافئ أحياناً، تماماً كدفء لمسة بكر مستكشفة، الضوء يمكّن الأعين من رؤية التفاصيل، من غير الضوء لن يرى البشر، فما قيمته لي؟ لا أحتاج حتّى الإحساس به، في النهاية الظلام رفيقي الأوحد في الحياة، من أنا بغير الظلام؟ وفي غالب الأمر ليس من أحد بغير الظلام، بدونه لا تهجع القلوب ولا تغفو الأجساد، هكذا عليّ أن أفكّر، أليس كذلك يا رّب؟! أن أحمدك وأشكر فضلك وأقول في نفسي ثمّة نِعم أخرى أستعيض بها عن نعمة كبيرة مهدَرة بأمرك، لكن أيّ نِعم تلك أعطيتها لي عوضاً عن البصر؟! ليس عليّ أن أفكّر إذن.

علوان

يا لها من ضحكات! نفس الضحكات تتسلّل من وراء جدران البيت، ألتفت حولي متنهّداً، هذه الضحكات تأتيني كلّما أفقت، كانت ضحكات "صابرين".

تلك التي كشفت عن طبيعة شغفي.

كانت غريبة لا أصل لها، ولا أهل، بنت جمعة "العجلاتي" الذي يسكن أول القرية، هذا الوافد الجديد الذي حكا للكلّ حكايته في "قعدات" المزاج. ابنته الصغيرة ذات الأعوام الثلاثة عشر، بيضاء وبها لفتة من جمال أمّها الغازية التي رمتها وهجّت، أردافها تنمو نمواً لابد يثيرني، "صابرين" حدوتة، البنت عينها بيضاء مثل أمها، وتتفحّص في الروحة والجيئة مواطن أعضاء الأولاد والرجال، بنظرة غير عادية.

"جمعة" مجرّد واحد من متسوِّلي الكيف، يجري على المعلم "سوسو" ويبوس يده فيعطيه شريط برشام أو طلقة "بانجو"، "جمعة" دماغه ملحوسة، ولم يعد شيء فارق إليه، والبنت لا تعنيه، ولا يهمه إذا رغبها رجل أو ركبها أو حتّى فتحها، كلّ ما يهمه شريط البرشام وسيجارة "البانجو"، والبنت رغم أنّها صغيرة فهي فاجرة، تصرفاتها لا تهمّه مطلقاً، وقاحتها أمر طبيعي لا يغضبه بقدر ما يذكّره بأمّها

المومس التي أنجبتها من ليلة مزاج معه بأجرة ورمتها له وسافرت، والبنت مثل أمها، جمعة يعرف هذا ويقول لنا:

– في كلّ الأحوال هذه بنت حرام.. اكف "القدرة" على فمها تطلع البنت لأمّها.

كان استعداد "صابرين" لتبادل اللذة استعداد غريزي، تقف أمامي، طيلة النهار هي بجوار أبيها في دكان العجل تؤجّج ناري، ولا تفارق عينيها نظرة النداء هذه، لذا قررت أن أحتسيها على مهل، فالهجوم المباغت قد يُفقدني حلاوة اللحظة، بمزاج شديد، سوف أنزل وأطلع بنظري على جسدها، وأفتّش بإمعان عن مواطن اللذّة، كم أحب الفتاة كثمرة خضراء! ناشفة، تقضم بصعوبة، ناشفة وكلّ ما فيها ناشف، و"صابرين" ثمرة غير عادية.

أتى "جمعة" فرمى له "سوسو" طلقة "البانجو" وشريط البرشام دون اهتمام، وظلّت عيناي تجوبان جسد الابنة وتخطّطان لمداهمة قريبة حتمية.

دخان الشيشة داخل غرفة الكيف يصنع حولها مشهداً مميّزاً، والهواء حول وجه "سوسو" يتلوَّن بلون أزرق، ويحيط به تماماً، حتّى لا يكاد يظهر من وجهه ملمح، فلا يبدو منه سوى جسده النحيف

وجلسته المقعوصة للوراء التي تريح ظهره من عناء ألم الفقرات الذي بات يشعر به منذ قريب.

"صابرين".. أبوها جالس يلف البانجو، ثم وهي تمثّل الحياء جلست جواري، فحطّطت بذراعي على كتفها، شهقت شهقة الغنج فابتسم أبوها ابتسامة ذات مغزى وقال:

– يا بنت الكلب مالك؟

كان عقله مغيّباً، تنهّدت هي وراحت تتمسّح في جسدي فلم أحتمل، نهضت بها، ومن باب الغرفة الذي يطلع على الزرع ناحية الطريق "الوسطانية" خرجت، بغير أن يراني من الأوغاد رجل، وفي الطريق "الوسطانية"، فاتت لحظة بيننا من سكوت، ثم عيناي اشتعلتا، وطفقت أزحف بلسان امتلأ لعاباً ساخناً على رقبتها ووجهها، البنت أسبلت جفنيها وتركت لي زمامها، ولم يبدُ عليها سوى هذا الاستسلام المطلق الذي يتّضح كأنّما مرتب له ومخطّط، أحسست أنّ البنت ملتصقة بكلّ أجزاء جسدي، وكأنّها عجينة طرية، تسلّلت بيدي بين ساقيها وحككت بعنف ثم لويت بين أصابعي فرجها وقرصتها، فصاحت:

– "لأ"...

– ماذا حصل!

– أنا بنت "بنوت".

– "نشّفتي" دمّي، بنت "بنوت"، بنت كلاب، ولا يهمك.

رفعتها بذراع يكاد الدم ينفجر منها، رميتها بين أعواد القصب، كان جو من العتمة يسود، تمدَّدت جوارها، تبدّت رغم ظلمة الجو مؤخّرتها البيضاء المرمرية، لهثت وأخرجت بيسر من تحت الجلباب؛ كامن شهوتي.

* * *

في الظلام، تتماثل التفاصيل، يصير الفم عيناً والعين فرج، وفي الظلام، يصبح أنين "صابرين" أسفل جسدي عاملاً أساسياً على الرحيل المحتّم خارج أسوار السأم، باشرتها خلال كلّ الأنحاء عدا ما حرّمته عليّ، هنا فوقك يا "صابرين" تولد أشياء لم يكن لولادتها أيّ احتراز، تولد معان للدهشة واللذّة والانقسام، أكون نبيّاً أو لا أكون، قدّيساً يرمح في شتات عالم مواز، أو حتّى لاهياً لا يحتسب من أمر الدنيا غير الاشتهاء، لا يهم، ما يهم في مجمل المفردات المحيطة التلاشي، التلاشي فحسب، كلّ أعواد القصب من حولنا تود لو تقتحم منافذك واحداً واحداً، كلّ ظلمة الحياة تسكن جوانب اللذّة

الممكنة، فتصبح اللذّة عمياء، والنفس توّاقة لنسيان حدود العالم بأسره، اتركي جميع تلك الأشباح التي تراقبنا –والتي يحفل بها الطريق– تراقبنا، ليكن.. ما الفارق إن شاهدتنا أو شاهدناها! في النهاية كم شبح يعيش بهيئة بشر! أراها تشير ناحية السماء وتصيح: اهرب.. هيا اذهب.. اترك كلّ بؤس تلك الحياة واصعد. لا تكترثي يا "صابرين"، خذيني بداخلك أكثر، سأرتحل على أرضك من طبيعة لطبيعة، ولننس "علوان" قليلاً، ابدئي في تشكيل ذاك الرجل الآخر الذي يلوح من بين طيّات العتمة، ذاك الرجل الذي يندفع نحوك بلا مكابح، وتندفع معه كلّ الشرور وكلّ ما حُبس في أعماق النفس وكلّ الدهشة.. كلّها، انطقيني لفظاً لا يحتمل إلاّ الاندماج في سائر أحاسيسك، هيا، العشق كلمة لا بأس بها في الحقيقة، ولو كانت حتّى كلمة عابرة في لحظة مختَطفة، إنّ العشق فعل مرض، إنّه تنويم لكافة الأعضاء الحيّة بداخل جسم بليد كجسمي، هيا، لتسوقيني إلى ما لا نهاية، وإن كانت تلك اللحظة هي النهاية.

* *

*

بعدها مرّت عليّ أيام كان الندم فيها يغير على قلبي، وكنت أجلس في ظلام بيتي أنهنه وأستغفر ربي، دائماً ما كنت أفعل، حتّى عندما أستيقظ في الصباح بعد ليلة من احتساء الخمر أظلّ أستغفر الله كثيراً، وتقريباً في كلّ صباح، ولا أعرف لمّ الاستغفار وأنا لا أرجع

عن سلوكي؟ أجدني مرغماً، في كلّ مساء، حاجة مستبدّة تدفعني نحو زجاجة الشراب، ربما يجذبني شكلها أو رائحتها، يجوز أنّهم صنعوها لكي تكون بمثل هذا النوع من الإغراء، إنّما لا يوجد فينا فاضل، ولا كامل، كلّنا لنا أخطاؤنا، وكلّنا في النهاية من نسل نبي كريم أخطأ مرّة وغفر له الغفّار، أليس كذلك؟ ربّنا رّب قلوب، وأنا قلبي مليء بالإيمان، حتّى ولو سخر الساخرون، قلبي مؤمن، يكفي أنّني لا أحب أذية الخلق، لكنك تفعل يا عمدة، أنت تفعل دون حتّى أن تتروّى وتفكّر، رغم ذلك فإنّ الجميع يقدمّونك عليهم في الصلاة باحترام مبالغ ولكنك تتمنّع عن أن تؤمّهم فتقف في الصف الأول، وراء الشيخ "عوض الله"، ما هذا التواضع يا "حمزة"؟ هل فكّر هذا المنافق أن يقول لك من تخدع يا عمدة؟ طالما يقولها لي، من تخدع يا "علوان"؟ لو يعرف أنّني لا أخدع أحداً، أنا فقط أجد نفسي – منساقاً– أهرول إلي الزاوية حينما أسمع الآذان، الله كبير يا عمدة، أكبر منك ومنّي، الله يعرفني أكثر ممّا يفعل أيّ واحد فيكم.

جمعة

"الكبّاس" الذي يملأ إطارات الدراجات بالهواء يملأ كذلك روحي قرفاً يوماً يليه يوم، كم كنت أشعر أنّني في حاجة ماسّة إلى الرحيل! ولو بشكل مجازي، كنت أروح للمعلم "سوسو" فيعطيني من البرشام والبانجو –بقدر– ما يعينني بعض الشيء على هذا الرحيل، تصبح

رأسي كأنّها مسطح أجوف لا تعاريج فيه، فينقضي يومي، ككلّ يوم، ولا أعود إلاّ في الصباح.

ولأنّ كلّ طريق له بداية، فإن "الكُلّة" التي ألحم بها "كاوتشات" الدراجات، كانت بداية مناسبة؛ ووثيقة، بعالم الانبساط، حين كانت دماغي تتذبذب وعقلي يطب خارج جمجمتي، فتزدوج "الكاوتشات" أمام بصري، وأجدني أضحك، اليوم كلّه أضحك، إمّا كمجنون، أو "زهقان"، في النهاية، كان الضحك الذي يكتنف يومي من بدايته قد توطّد بعامل السطل، فعرف الجميع في المدينة –قبل أن أنتقل إلى القرية هنا– إنّني مسطول، دائماً مسطول.

الأولاد يناولونني "الشلنات" و"البرائز" فأرميها بإهمال إلى جوف العلبة الصفيح بجواري وأُكمل بلساني لعق بطن "الكاوتش" للحْمِه، ثم أشد أسلاك الإطار جيداً فتنفرد وتستقيم العجلة. كانت فرحة الأولاد الذين يخرجون من الدكّان في القرية هنا وقد طبّبوا دراجاتهم، هي نفس الفرحة التي كان أولاد المدينة يخرجون بها، ولكنّني كنت مجرّد صبي في دكان عجلاتي، حتّى عندما بلغت الأربعين، كنت لم أزل صبياً يؤتمر، لم أعرف لي أيّ أهل، نشأت في دكان "العجلاتي" وتربيت فيه، وكان بيتي، كنت أُغلق عليّ بابه كلّ مساء، وأفترش الأرض غير المستوية فوق بطّانية تشبّعت برائحة "الكُلّة" والزيت، وكانت الدراجات المعوجّة تؤانسني عندما يجيء الليل، وتصنع حول جسدي "ناموسية" من أسلاك حديدية.

وكانت الأيام تجري، دون أن أعتدّ بها، وغبار السنوات لم يُفصح لي عن الشعر الأبيض الذي جرى في رأسي، أول الأشياء التي أشعرتني بركض الزمن، كان المعلم "شحاتة" صاحب الدكان، فقد بدا لي فجأة طاعناً في السن، وقتها كان قد تجاوز الستين، وكان الوقت نهاراً، وأنا أرش المياه أمام الدكان لخلق طراوة في الجو، كان هو منكفئاً فوق دراجة، وياقة الجلباب منحسرة إلى ما بعد الرقبة، فجأة رحت أتأمّله، وقد ظهرت حول عنقه تجاعيد متشابكة، طلعت بعيني التائهة نحو خدّه، وكان قد "تكرمّش" وتعبّأ ببقع بنية داكنة كعلامات للشيخوخة، تسمّرت أمامه لبعض الوقت، ولم أنتبه لخرطوم المياه الذي تتدفّق من فمه نافورة مزبدة أغرقت أرض الشارع، إنّما انتبه هو لوقفتي غير المفسَّرة واستدار نحوي وزعق بصوت مبحوح:

– مالك متحنّط؟ اخلص "سيب" الخرطوم من يدك، الشارع غرق يا حمار.

وربما لأول مرّة حينها رنّت في أذني نبرته الآمرة المستخفة، أقفلت صنبور المياه، وتوجّهت إلى "محمود" الحلاّق، كان دكانه ملاصقاً لنا، وكان المعلم "شحاتة" ينادي عليّ بصوت مستغرب:

– أين ذاهب يا بهيم؟

لكن بوعي سيطرت عليه رائحة "الكُلّة" تجاهلت صوته، ودلفت إلى دكان "محمود"، لا أعرف أيّ هوّس لفّ عقلي حينها؟ أحد الزبائن جالس تحت يد "محمود"، وأنا أتحجّر بكلّ برود أمام مرآة أتطلّع إلى وجهي، خرج صوت "محمود" مستهزئاً:

– الظاهر "الكُلّ ّة" اشتغلت!

ابتسمت بطرف فمي دون أن ألتفت إليه، كانت تفاصيل وجهي تسبح داخل المرآة وتنظر لي عيني بنقم، وكأنّما تسألني:

– ماذا فعلت بنفسك؟ كيف أهدرت سنوات حياتك؟

هل تجاوزت الأربعين حقاً؟ وماذا صنعت لنفسي؟ بل ماذا صنعت بها؟ كيف يتغيّر كلّ شيء وأنا مجرّد صبي أنام في دكّان ليس ملكي؟ وما كلّ هذا الشعر الأبيض في رأسي؟

بإرادة مشتّتة، خرجت شبه منكسر من عند "محمود"، حدجني المعلم "شحاتة" بغضب فبادلته النظرة ومضيت عنه، كان "المزلقان" على بُعد شارع، وكان صوت القطار المتأهّب للمغادرة يدعوني أيضاً للمغادرة، غير أنيّ لم أحدّد إلى أين؟ كان هاتف يسحبني إلى "سعيدة"، طالما وقفت على بابها وأنا أتنصّت إلى صوتها هي والمعلم، وطالما اكتفيت بدور المتفرّج، لكن اليوم، سأنفق آخر مليم في جيبي

لكي أصبح أنا المعلم، وأنا الرجل، وأنا الذي سيتذوّق رحيق المدينة قبل أن أتركها، لا أعرف إلى أين؟ إنّما لابد سأتركها.

صفير القطار يصم الآذان، والناس تتكدّس أمام "المزلقان" المغلق، يدي تنبش عن سيجارة كنت قد أخذتها من المعلم، لكنّني رمقتها قليلاً ثم رميتها على الأرض في حنق وقلت لنفسي:

- كفاني من المعلم.

صفير القطار شلّ قدميّ، وأنا أنظر للوراء حيث تجمّع الناس وتعالى لغطهم، وضربت عيني مرّة أخرى إلى شريط السكة، ثم فجأة تزايد الهرج، وتداخلت الأصوات، وأحد الرجال ينازع خروج كاحله الذي كلبّش عليه خط "التحويلة".

القطار القادم لا يكترث، والطريق يتضاءل أمامه، والرجل عيناه متّسعتان اتساع الأسف ذاته، وأعيننا تتّسع مع قدوم هذا العملاق الهادر من آخر شريط السكة، ثم تحوّل كلّ شيء، إلى لحظة معتمة، والوحش يشق الطريق نحونا مغمض العينين، وبغضون ثوان مرّت بطيئة بطء الموت، كان الزمن قد تفتّت بذهني، وصارت الصورة أمام ناظريّ عاصفة، حين حوّل الرجل رأسه بأكملها واستقبل في فزّع هرولة القطار الداهم إليه، وجال برأسي في لحظة إنّني سأداهم "سعيدة" كالقطار تماماً، ثم في لحظة أخرى، توّقف الزمن، توّقفت

الحياة، في لحظة ظفر عزرائيل بغنيمة جديدة، في لحظة، أضحى الموت بعينه حقّاً لا يفترض أن يُنسى، وحقيقة مؤسفة، مؤلمة، إنّما علينا التسليم بنفاذها شئنا أم أبينا، صار للموت "ماستر سين" المشاهد الحياتية، إذ دفع القطار جسد الرجل ليتناثر علينا أشلاءً، وتستقر على وجوهنا وملابسنا دماؤه وأجزاؤه.

زحفت أنفاسي زحفاً بطيئاً مرتعداً، مرّ القطار مروراً –كعادته– سريعاً، ومضى، غير أنّه ترك على وجوهنا مئات القطع الموزّعة، وترك أفواهنا فاغرة من الرعب، وفي دقائق، ازدّحم المكان، واصطفّت طوابير من البشر تشهد ما حصل، ولكنّني كنت قد عدوت بعيداً، ووقفت لاهثاً أمام عتبة بيت "سعيدة"، التي نظرت لي باستغراب وتفرّست قليلاً في وجهي الذي تملأه بقع الدم، ثم أفسحت لي طريق الولوج حين أبرزت من جيبي الجنيهات القليلة التي أملكها، كان سحر المال لديها أقوى من الاستفسار عن هذه الدماء التي تتناثر فوق سحنتي، ولم أعرف أنّ الرحيل سهل هكذا، إلاّ حين أخذتني "سعيدة" من يدي وصعدت بي إلى أعلى، فاطّلعت على أماكن لم أزرها من قبل، وكنت أنتبه على صوتها وهي تصطنّع التأوه، إنّما لا يهمني، فلم أصطنع أنا هذه الحرية التي انطلقت بها لأعلى، ما أصغر الدنيا! وما أعذب الرحيل! لا مكان للمعلم هنا في الأعلى، فقط أنا وهي، وثالثنا غياب شهي.

تردّدت عليها مرّة أو اثنتين وكنت قد قرّرت البُعد عن المدينة.

قالت:

– خسارة، المدينة يا "جمعة" هي الحياة.

– ولكن البعد عنها غنيمة.

– سبحان الله؛ تتركها لتعيش في قرية "محدوفة"؟!

– الناس هناك بسطاء، ويكفي أنّه لا أحد يعرفني.

بعدها لم أرها سوى مرّة وحيدة، كانت قد تمكّنت من الوصول لي، وكانت طفلة على يدها، لم أصدّق حين قالت أنّها ابنتي، قلت مستنكراً:

– جئتِ تلبسينني الطرحة! كيف أضمن أنّها ابنتي؟

– ولماذا أكذب؟ ربيها وخذ ثواب.

– "أحّه"! ثواب! يا بنت الملعونة والله أدفنك مكانك، غوري ببنت الحرام هذه ولا تريني وجهك مرّة ثانية.

غير أنّها رمت لي البنت وفضحتني أمام كلّ ناس القرية، كان لسانها يقذف السباب بمنتهى اليسر، ثم اختفت عن بصري في ثوان، جست بعينيّ حولي وكان الجميع ينظرون لي بتساؤل، دخلت بالبنت في الغرفة التي اقتسمت فيها مكان نومي والدكّان بباب خشبي صغير، وكنت أرى فيها "سعيدة"، وليلتي الطارئة معها، لم أشعر يوماً أنّها من صلبي، حتّى عندما كبرت، لم ألمح أيّ تشابه بيني وبينها، ولا حتّى بينها وبين أمها، فاستوطن نفسي أكثر هذا الإحساس بأنّها لا تمت لي بصلة، ومع الأيام، بانت فيها خصال الأم، كانت البنت وقحة بالفطرة، وكنت أعرف عن الرجال الذين يتناوبون إتيانها، لكنّني غضضت كرامتي عمّا يحدث، وقلت لنفسي الكلّ يعرف أنّها ليست ابنتي، اكتفيت بلعن "سعيدة" واليوم الأغبر الذي نمت معها فيه، وتركت "صابرين" —الاسم الذي اخترته لها لأنّني صابر على شقاء الدنيا وبلاءها— لأهل القرية تتمرّغ بينهم، وكان المكان الوحيد الذي يجمعني والرحيل هو مقهى "سوسو"، أجلس وحيداً بين الرجال، أو أمام دكاني، أبتلع برشامة "الترمادول" أو "الأبيترل" ثم أعقبها بنَفَس "البانجو"، فيسلبني الرحيل من هذا العالم، وقد أعرِج على ساقي حتّى أصل إلى النيل؛ تلك الساق التي دهستها فرس ابن العمدة "السبع" بغير قصد، يتلوى بصري مع المياه، وأتنهّد، أتذكّر يوم جاءني العمدة ودفع لي تعويضاً مناسباً عن ساقي التي انحرف عظمها، يومها ابتلعت البرشام بشراهة، وقعدت عند الجرف الكبير، ورحت أضحك، وأنا أراقب بعينيّ أموال العمدة، التي تتطوّح مع نسيم الماء، لست أهتم، لم يكن المال ذا نفع، طوحته بيدي فراح شيئاً فشيئاً يستقر على

صفحة الماء الراحل للشمال، كنت أتتبّع بعيني أوراق المال المبعثرة على وجه المياه، قائلاً لنفسي: ارحل، فكلّنا راحلون.

بسطاوي

يا قطب دائرة الأفلاك خذ بيدي
وكن أمانيّ في الدارين يا سندي(12)

يتردّد الترتيل في شوارع المدينة، الخامس عشر من شهر شعبان، آخر أيام مولد سيدي "أبو الحجّاج"، صفوف من عائلة "الحجّاجية" يلبسون الأردية البيضاء، الجلابيب و"الشيلان" و"الطواقي"، يستمسكون بأيادي بعضهم البعض ويتقدّمون الناس، هم دلائل "دُورة" المولد، التي تنطلق آخر أيامه من قلب المسجد وتفنى في رحابه.

في المولد يعود الجموح للمدينة والصخب؛ جموح تنتظره المدينة من عام إلى عام، وكذلك ينتظره "بسطاوي". في أول أيام مولد سيدي "أبو الحجاج" –مولد كباب الأقصر والفتّة.. مولد الذكر والأنس في حرم المسجد العتيق– ينطلق نحو المدينة، لم يكن في الحياة ما يوازي لمعة الفرح التي تطلّ من عينيه في هذا المولد، يتخيّر له ركناً في رحاب المسجد، يفرش فيه بطّانية وملاءة، ويتنقّل بطواف سريع بين حلقات "التحطيب" و"المرماح"، يهتّز مع اهتزاز الخيل، ويتراقص خصره

بتؤدة كما أحسن راقص والخيل أمامه تنبسط قليلاً لليمين ثم للشمال، ثم ترفع إحدى قوائمها وتقفز قفزتين أو ثلاث فتعاود التمايل والرقص، والمزمار الذي يداعب جوارحها ينبض بالحياة وبالسعادة. من فوق الحصان ابتسم له "عرفة" الجزّار وصاح:

– مولانا.. معي اليوم على "الكارتة".. "خلاص"!

هزّ رأسه وهتف:

– "آشي أرفة".

المسجد في المولد لا يخلو من المريدين، تتشابك وجوه الناس كما السحب الكثيفة في قلب السماء، فلا تعرف ابن البلد من الغريب، فالكلّ يأتون جماعات من كافة أطراف الأقصر، من قراها ونواحيها النائية، يأتي المشايخ إلى قلب الجامع يقرءون ويبتهلون، يتكدّس الناس من كلّ حدب وصوب يجلسون في الساحة، تتناثر الخيام المنصوبة حول المسجد بدقّة وترتيب، خيام تعلق على مداخلها لافتات ذويها، الطريقة البرهامية، الأدارسة، آل رضوان، وغيرهم كثيرون. وعقب صلاة المغرب، مغرب أول يوم، حينما يحط الظلام بهدوئه الانسيابي، ويصير الطقس بأكمله طقساً تختمر به الأدمغة، وتحلق فوق الرءوس مئذنتا مسجد "أبو الحجاج" ومسجد الشيخ "أحمد النجم" الواسع المهيب الواقف عن يمينه بشموخ، مكلّلة

أولئك المحبين بالبركة، وتدور الأنوار في السماء كطواحين لا تتوقف، بعضها يومض فيشد العين، وبعضها يرجف فيسحب الخيال، هنا.. يتحوّل فناء المسجد، وحديقته المتمرّغة أمام درجه الممتد لأعلى يشق قلب معبد الأقصر بحجارته الجامدة الرابضة بحذاء المسجد المقام في وسطها كضياء يضرب في ثنايا ظلمة حالكة، يتحوّل.. إلى لجّة صاخبة نابضة، تمتزج الأجساد ويحيط بالمسجدين نسيج كثيف صفوفاً وصفوفاً، نسيج متبلور برائحة الذكر والقرآن وأناشيد مدح الرسول ﷺ، يضج بحياة سنوية.

تمتدّ أيام المولد حلقات الذكر، من صلاة العشاء حتّى مشارف الصباح، وتخرج في آخر أيامه بعد صلاة الظهر "الدُورة"، وهي احتفالية مأثورة يدور فيها ركب من أهل البلد على كلّ أنحاء المدينة ويستقر في المسجد، يهلّلون ويقرعون الطبول ويصدحون في "الميكروفانات"، تزفهم الزغاريد ورمي الحلوى من شرفات المدينة، يقف الناس على قارعات الشوارع في انتظار القافلة، يصفّقون مع الغناء ويهلّلون مع الصدح، يخرج "بسطاوي" بينهم يلم الملبّس من تحت أقدام القوافل ويعرّض في سبيل ذلك جسمه للدهس، ويتصارع –كلّ عام– على نيل بركة الهوادج والحبال التي تربطها بظهور الجمال.

يخرج مع القافلة أناس يمتطون الخيول والجمال، يركب أناس على ظهر سيارة أو "حنطور" أو عربة كر. "بسطاوي" ركب هذا العام

جوار "عرفة" الجزّار على "الكارتة" وقلّده بارتداء ملابس امرأة واضعاً فوق وجهه كلّ مساحيق الزينة والتبرّج .

النساء اللواتي لا يعرفن "بسطاوي" –وهنّ غالباً القليلات من نسوة المدينة– كن يشرن إليه بانبساط، ويقعن داخل شرفاتهنّ ضحكاً أو يرمينه بأكياس الحلوى بتبذير، "بسطاوي" يتلوى بجسده ويرقص على أنغام الكف؛ وهو فلكلور موسيقي شعبي، والصبية والأطفال من حوله يداعبونه بأن يلامسوا مؤخرته بأصابعهم الوسطى، فتجده مرّة واحدة قد توّقف عن الرقص ووثب من "الكارتة" وعدا خلفهم:

– "ابن البهيم... إت وهو"....

وببساطة حينما يختفي هؤلاء من أمام وجهه، يعاود مسرعاً امتطاء "الكارتة" جنب "عرفة" ويفتح فمه لآخره مبتسماً راقصاً يتلوّى مع النغم.. فهكذا ينعم بسعادة ما بعدها سعادة. يمسك الميكروفون، "عرفة" دون اعتراض يعطيه له، "بسطاوي" مقلّداً امرأة عاهرة يهتف في الميكروفون:

– "أف.. أف"....

ويلعب في جسد "عرفة" هازلاً، "يهيّس" "عرفة" من فرط الضحك ويناول "بسطاوي" سيجارة "بانجو"..

– "أوا يكون إضروب"؟!

– يا مولانا، أنا كيفي عمره ما يكون مضروب.

– "لاص.. آت".

"بسطاوي" شدّ النفس الأول والثاني وداخ، في النفس الثالث اختفى من جوار "عرفة"، سقط متكوّماً تحت عجلات "الكارتة" وتحت أقدام السائرين، "عرفة" ابتسم، كان يعرف أنّ "بسطاوي" سوف يقوم الآن مهرولاً، ففي كلّ "دُورة" يسقط تحت الأقدام وينهض مهرولاً، عينه ظلّت تتابعه حتّى شبَّ من بين الأجساد بالفعل، شبَّ عارياً، وهو يرمح خلف ولد مسّ مؤخّرته خلسة، ويخرج صياحه الممزوج بلعابه على وجوه الناس:

– "أسع.. أسع".

الناس وهم يوسعون له الطريق؛ كانوا يضحكون.

المدينة.. يخيم عليها تلك الأيام جو معتاد، منتظر من عام لآخر، محبب، تتجمّع الأسر ويتجمّع الجيران داخل البيوت يطبخون الفتّة ويصنعون الكباب؛ وهو عبارة عن كرات من القمح والبصل لقّحت باللحم المفروم، لا يؤكل إلّا أيام المولد، ولا يُصنع إلّا في الأقصر.

يفترش الساحة باعة من شتّى الأنحاء، يبيعون سندوتشات "الكبدة" وعصير "التمر" و"السوبيا"، يبيعون مسدسات الأطفال والبالونات و"البمب" والصواريخ، يبيعون حلوى المولد، الهريسة والملبن والعرائس الوردية، والأحصنة الصلبة المصنوعة من السكر والشربات، و"الفولية" و"السمسية" و"الحمصية"، كما تقام في مناطق متفرّقة من المدينة المراجيح والملاهي.

يجلس "بسطاوي" على مقهى جوار الساحة، يضع ساقاً على ساق ويطلب شيشة وهو يشفط سيجارة، نسيم الفجر هذا والمدينة تتثاءب فاتحة ذراعيها لمقدمه يسطله، يردف صبي المقهى:

– يا مولانا لماذا تشرب سيجارة؟

يشيح "بسطاوي" بيده، يقطب جبينه ويبصق عليه، يبتسم الولد ويقول:

– أنا غلطان خائف على صحتك، خلط الدخان خطر عليك.

- "مار"!

- أنا حمار، شكراً يا مولانا.

"بسطاوي" طوال أيام المولد يتنقّل بين المراجيح، ينسى ما كان أيام فقده "عزيزة"، كعادته، فلك الوقت لا يدور فيه إلاّ كوكب اليوم، ينسى مع كلّ فرحة يعيشها أيّ حدث مضى، ويشرع في مواقعة الحدث الحالي حتّى يفرغ منه أو يسئمه، يركب المركب ويلعب "النشان" بالبندقية، يلهو مع العيال، يتنقّل بين بعض البيوت؛ حتّى البيوت التي لا يعرفه أصحابها، في فترة الظهرية، كلّ ظهر من أيام المولد، ويأكل، يملأ جيوب جلبابه بالفلوس والحلوى، يوّزع دعواته على الناس، ويجري في الشوارع، بين الزحام والتكدّس يجري، بمرح وسذاجة وبدائية يجري، فالمولد، مولد السعد والفرحة بالنسبة إليه، يصبح بحلوله عالمه غير المحدود هو كلّ المدينة، بشوارعها وحواريها ودروبها، ببشرها وحرّها وزحامها، بكلّ قسوتها وحزنها ومآسيها، عالمه الذي يحبّه حبّاً مؤقتاً ويرتبط به ارتباطاً لا يتجاوز أيام المولد.

ثم يأتي المساء، فيجلس قليلاً ممدّداً على بطانيته، إلى أن يؤذن العشاء، يدخل مع المصلين، قد يهمز بإصبعه أحدهم فيحدجه بجنب عينه منذراً، لكنه يستمر في مداعبة المصلين، حتّى ينطلق إلى الساحة

ويشارك المشايخ رفع "الدايم"؛ كرب يرفعه مشايخ "الحجّاجية" بأياديهم إلى أعلى في حلقة متّصلة، ويهتفون:

"يا الله يا دايم
رسول الله.. رسول الله"

وتبدأ حلقة من ذكر، ينضم لها، صفّان على الأرض في غرفة بجوار مقام سيدي "أبو الحجاج"، يقبع بينهم ويسبح في رائحة البخور التي تعبئ الجو، يسبح في ابتهالات تسحب روحه لأعلى، تحوم روائح "القرفة" و"الزنجبيل" و"الينسون"، يصرخ بين المشايخ:

- "أي".........

فيردّدون معه:

- حيّ يا الله.

يهز رأسه يميناً وشمالاً في تواتر، يهز جسمه معهم في هيام، ويسقط على الأرض ضاحكاً مغرقاً في الضحك، فلا يشيله نفر.

الكلّ مشغولون عنه في هذا الزخم الروحاني، "دوشة" و"دربكة" غير عادية تنقلها الساحة إلى داخل حلقة الذكر، لكن أحداً لا ينتبه،

الصفوف ترتّل ببهجة وتمدح بانبهار وغياب الوعي رسول الله عليه الصلاة والسلام، انتظام في الأداء لم يُتفق عليه، كموج يتلاطم جيئة وذهاباً، يتدفّق من طيّات الحلقة هواء ينعش الروح، كأنّ ملائكةً تخفق أجنحتها فينفرد النسيم على الوجوه.

إحساس له مذاق حلو يستولي على جسده، شذى قادم تواً من جنة المولى، لا يلفه على الإطلاق سوى في حلقات الذكر هذه، رحيق المسك يعبر بين الأنوف، رحيق كأنّ أحداً قد أطلقه بسخاء، "بسطاوي" ينهض ويكمل الحالة الروحانية التي تسيطر سيطرة بالغة عليه، تقع عينه على العمدة "حمزة" وهو يدلف إلى الساحة من بين المتزاحمين، لكنه ينسى القرية والعمدة وكلّ الناس وحتّى نفسه في تلك الحلقة، يصرخ:

– آآآآآآآآآآه... آآآآآآآآآآآآآآآآه.....

وبهستيريا لا شعورية "بسطاوي" يخبط بذراعيه رجال الحلقة المجاورين، فمه المهتز مع رأسه الرائحة لأقصى اليمين ثم أقصى اليسار بسرعة لا إمساك لها يبعثر اللعاب على من حوله، جسمه يرتج، روحه تطير بعيداً، ودوائر الدخان الكثيفة التي ينشرها البخور الراقد في أجواف المبخرات النحاسية –المتدلّية من حوامل بارزة في جدران المسجد– تخطف العيون وتأخذ العقول.

يصرخ ويصرخ، تمضي به الساعات وتمضي بهم، حتّى ينبلج الليل؛ وينفّض المجلس.

ميلاد

وأخيراً "بسطاوي"! أين كنت يا رجل؟

في عُرس "السبع" فوجئ الجميع به –وقد ظلّ مختفياً لبعض الوقت– على عزف "الرباب" يقلع "هدومه"، ولا يبقى إلاّ بسرواله، ثم يندفع يرقص. الليلة فرح سيأكل فيه "بسطاوي" ويشرب حتّى يتجشأ، ويدخن "البانجو" حتى ينسطل، ويدور بين القوم كالعهد به يمازحهم ويمازحونه.

هذا "بسطاوي"، وهؤلاء يلتفّون حول منه يصفّقون، دائرة توسّطها مع "السبع"، وأخذ يرقص، بكل هياج ومرح وغبطة، يقبض بيديه على كفّي العمدة ويلف به في منتصف الحلقة، والسائل من فمه ينزلق على صدره فيبرم شعره ويبدو ضفائر مصغّرة، تطربه "الربابة" وتطربه الأيادي المصفّقة بانتظام، الأكل يكبس على معدته، يهضمه برقص متواصل ركيك، مع ذلك يسلينا ويجعلنا ننفلت في الضحك.

"الكوشة" عربة "جرَّار" انبسط عليها حصيران من القش فوقهما كرسيان من خشب، مع بعض الزينة التي لا تخلو من طابع قريتنا،

وعادتنا –أهل الريف– في مثل هذه الأفراح، أن تمتلئ ساحة العرس بلمبات ملوّنة بجميع الألوان، ترعش فوق الزوّار، وتمتدّ ما بين البيوت الواطئة الطينية بحبل مجدول من أسلاك كهرباء، تتدلّى منها اللمبات قريبة من رءوس المعازيم، تتراقص على رقصهم، وترهج على نحو يدوّخ الأعين، عادتنا أن يلبس العريس جلباباً أبيض اللون، ويلف حول رأسه عمّامة باهية المنظر، تستغرق في صنعها وقتاً، ويدور على المعازيم، يحييهم بالسجائر جبراً، وويل لمن لا يقبل التحية، تطارده الأعين باستنكار، وتدعوه بشكل مباشر لأن يتناول السيجارة حتّى ولو اكتفى بأن يلقيها بجواره، العريس يجلس معهم، يجرع "البيرة"، يشاركهم شرب الدخان، ويقوم يرقص، عادة الأرياف أن يحيي العرس "زمّارة" أو "كف" أو "ربابة"، مجموعة من الرجال لها مجلسها الخاص ومشربها الخاص وأكلها الخاص وكيفها، غالباً ما يكون "البانجو" و"عرق البلح" و"الزبيب"، يبدؤون العرس بمدح رسول الله:

– ونبدأ بسيرة الزين عليه الصلاة والسلام، جامع الدنيا والدين.

ثم يشرعون في لَمِّ نقوط لهم نسبة فيه. أفراح كهذه لم تكن تخلو –في العادة– من "بسطاوي"، وها هو يرجع كما كان، الرجل الذي نحبّه ويملأ حياة قريتنا بالفكاهة والضحك، لم يكن يشعر إلاّ بالألفة وسطنا، ألفة كهذه التي تدفعه لخلع ملابسه والرقص على موسيقى "الزمّارة"، يرفع عينيه لأعلى ويدور مبتسماً ابتسامته العبيطة، ويرعش ساقيه ويتلوى بمؤخرته، ويشرب في السجائر و"البانجو" والخمر،

يهبط جفناه، يروح عقله، يشعر بغثيان ودوار، يقف وسط الناس يخرج عضوه ويتبوّل على المعلم "سوسو" الذي يكفهر، فيضحك الناس، يضحك لضحكهم ويجري مبتعداً.

أميل على "حمدي"، أقول مداعباً:

– هيا نرقص..

يبتسم من دون أن يرد، وهو يهزّ يديه أعلى رأسه في تهريج، تتصادم عيناي و"سوسو"، أتطلّع فيه بقليل من شرود، مؤكد لم أكن لأنسى يا معلم! يرميني بنظرة من بعيد، نظرة أفهمها، وأستوعبها بشكل يجعلني أسبح قليلاً في تيار الماضي، لم يكن أحد يعرف تاريخ هذا الرجل تحديداً، كان غامضاً، لعلّ هذا ما أكسبنا فضول التقرّب إليه، فحين كنّا صغاراً، كان شيئاً يجذبنا نحوه، كذلك ربما لطفه المفتعل أو ابتسامته المداهنة الذئبية، ثمّة شيء يجعلنا نشاركه ألعابه التي يلعبها معنا، عندما يضعنا على حجره مداعباً. أول مرّة وضعني على حجره وأحسست بالشيء الصلب التفتّ إليه محتجّاً بغير استيعاب فقال لي:

– "باكو المعسل".

كنا صغاراً على أن نفهم هذه الأشياء، وكنا نهوى المرح في مقهاه الذي يلم كلّ أهل قريتنا، والليلة عند "سوسو" دائماً ما كانت تنتهي بابتسامات الوداع وسلامات حارة رغم ما يتخلّل هذه الليالي من مشادات وخناقات، لكن في النهاية، ينصرف كلّ رجل إلى بيته في سلام فطري، ولا يبقى في المقهى إلاّ "سوسو"، ينام في مقهاه الذي لا مأوى له سواه، في غرفة من طين سقيفتها عبارة عن جذوع نخل، وفي بعض الأوقات، إذ يخلو له المكان، يحلو له العبث.

قيل أنّه قد جاء منذ سنوات من برّ "سوهاج" فاستقر في برّنا، جاء سعياً وراء الرزق، والأغلب –ما ظنّه رجال قريتنا ذوو الفطنة– أنّه جاء هارباً، من ثأر ربما، وربما كذلك من جريمة ارتكبها، إنّما في الحقيقة، الرجل لم تر منه قريتنا غير الالتزام بمجانبة مشاكلهم رغم تجارته سراً في البانجو والحشيش والبرشام، ورغم ميوله التي لم يعرفها سوانا –نحن الصغار– غير أنّ علاقته بكلّ رجال البلد علاقة فاترة لم يبد أنّه يوماً رغب في توطيدها، وكأنّ موطنه هنا بلا جذور فرض عليه حالة الانعزال، كذلك أخاله انسجم معها، حيث لم أكن أراه كثيراً قريباً من بيوتنا أو رفيقاً لأحد رجال البلد، وفي الحقيقة، حالة الانطوائية التي عزل بها نفسه عن أهل البلد، لم تكن تحديداً انعزالاً عن الناس بقدر ما كانت ستاراً لرغباته، وثوباً يرتديه ليتحكّم في عقول رجال قريتنا بالكيف، غير أنّ هذا الغموض الذي يبدو عليه، وهذه الرهبة، يتناقضان وهيئته، فهو طويل، نحيف، شاربه مجرد خط يعلو فمه، يتناسب للغاية وحاجبيه الرفيعين اللذين يخفّفهما بالفتلة،

ورأسه صلعاء تماماً يعتمرها بعمامة الأرجح أنّه لا يتخلّى عنها إلاّ وقت النوم، عيناه منتفختان بسبب مرض السكري، إذا تكلّم، فصوته يخرج هادئاً خافتاً، لكن مع "بربشة" بالعين، كثيراً ما كانت تجعلنا نفطس من الضحك عليه، فقط كان يحملق فينا، ويرتد إلى الوراء، ويضرط ضرطة طويلة غير متقطعة، ثم يضحك ضحكة عالية ويجذبنا نحوه.

وهل كنا نعرف عن مزاجه شيئاً؟

هل كنا نعرف حينما يحضن أجسادنا وتحمّر عيناه، ثم تتقطع أنفاسه، ويبلع ريقه بعسر شديد، أنّه يرغب في كيف غير مسبوق وربما لم تعرفه قريتنا من قبل؟

ساقني القدر عفواً نحو المعرفة، ففي مساء خلا من ضوء قمر، بنوعٍ من أنواع المصير المحتّم، أو الصدفة التي تلقي بنفسها في طريق المرء، لمحت أحد الأولاد يتسلّل إلى سطح "عشة" "سوسو"، ووراءه بعد قليل يتسلّل من بيننا بخفة قط وحذر ثعلب "سوسو" نفسه، بخفة أكبر تبعته، كان شكله يوحى بالريبة، وكنت أرتّب لشيء من لهو صبياني، كأن أنقّض عليهما فيفزعان وأجري ضاحكاً، لكن الفضول الذي ساقني نحو المأساة كان فضول طفل لم يتجاوز سنوات عمره الإحدى عشر، كان "سوسو" ينظر وراءه بنصف عين ويسير مجاهداً يخشى صدور أيّ صوت فيلفت نظر القاعدين على المقهى. طلعت

وراءهما، كتمت بيدي ضحكة كادت تنفلت لتخيّلي ما قد يحدث حين أقفز عليهما، وقفت وأرهفت السمع، همهمات، تتباعد، تتقارب، يحل مكانها سكون نسبي، ثم برهة وأنّات خافتة تميزها أذناي، أنّات "سوسو".

دخلت عليهما وهممت بصيحة عالية، إنّما صوتي انحبس في حلقي، فهناك، فوق حصيرة على أرض السطح، كان "سوسو" مخرجاً قضيبه، يدعكه بسرعة، أول ما رآني جحظت عيناه، وداري بيده قضيبه وهو يتنفس بسرعة وخوف، والولد جواره على الأرض لا يبدو عليه أنّه يدرك ما يجري إلاّ هذا الإدراك القاصر المشوب بحيرة وبعض الخوف، هذا ما لاح في عينيه، غير أنّ "سوسو" سرعان ما ابتسم وقال:

- تعالى يا "ميلاد".

تسمّرت عيناي قليلاً فوق قضيبه غريب الشكل، ثم هرولت بعيداً ورحت أعدو حتّى بلغت بيتي في "القباوي".

قالت لي أمّي:

- مالك يا "ميلاد"؟

اقترب لساني من البوح، لكن شيئاً ما جعلني أبتلع ريقي بعسر وأهمهم:

– لا شيء.

بعد أيام، كنت خلالها قد انقطعت عن الذهاب إلى المقهى، غير أنّ المقهى كان المنفذ الوحيد لنا لكي نلهو ونلعب "الحجلة" و"السيجة"، رآني "سوسو"، إنّما ابتعد بعينيه عنّي وكأنّ شيئاً لم يحدث، آثر أن يتجاوز عيّل مثلي لعلّه يعرف تماماً أنّه لن يتفوه بحرف، عيّل كان جباناً.

أكثر من مرّة يقول:

– تعالى يا "ميلاد" يا حبيبي ساعدني في رصّ "المعسل".

أو يقول:

– روح افتح لك زجاجة "كاكولا".

ولكنني كنت أنصرف عنه مسرعاً، كنت خائفاً وكان المشهد يلازم خيالي، الولد أكثر من مرّة ألتفت إليه فأجده يتأمّلني بشيء من

استجداء، أقبض على نظرته فيرميها بعيداً وينهمك في أيّ شيء محاولاً تناسى ما حصل.

وفي يوم، انحرفت قدماي دون قصد جوار مدخل "العشة"، جريت وراء كرة "شراب" كنّا نلعب بها على شطّ المجرى، لمحت "سوسو" فارتجفت لكنه في لحظة خاطفة نهض وولج للداخل، سحبني معه، كم كان ساعده أسرع! وهو يجذبني إلى جوف "العشة" ويكتم بيده فمي ويلصقني بالجدار، ويباغتني بتشبثه على مؤخرتي هذا التشبث، مضيت أحاول أن أنفلت من بين يديه، وأنا أئن أنّات مكتومة، كان جسدانا متواريين عن الأنظار، وبدا لي أن محاولة التملّص ليست ذات جدوى، فهدأ شيئاً فشيئاً جسدي رغماً عنّي، وابتلعت لعابي بعسر كمن يأتي جرماً سيُرجم لأجله، فاستسلمت قليلاً لتشبّثه وأنا لا أتمكن من التفكير أو السيطرة على مقاومتي، في الواقع لم أعرف لماذا لم أقاوم وقتها هذا الإحساس؟ ولماذا لم أعترض على ما يفعل "سوسو"؟ هل لأنّ أحاسيس ما أحسست بها ساعتها شتَّت مقاومتي؟ أم أنّ ذعراً أصابني فلجّم لساني الذي سابت من عليه كف "سوسو" وهو يرتعد من النشوة خلفي؟ لكن لم يتعد حدوده، فقد أتى أحد الأولاد خلفي بحثاً عن الكرة، سمعنا صوته وهو ينادي عليّ، فاستدار "سوسو" وكحّ كحّة عالية وخرج، فخرجت وراءه وأنا أتنفس بعسر شديد.

كان بعدها يتطلّع لي بظفر، وكانت نظراتي تنثني تحت قوة نظراته، هل انتصر حقاً على جسدي؟ وإن كنت أبغضه لمثل هذه الدرجة فلماذا ساقتني قدماي بإرادة غير مفهومة إلى داخل "العشة" مرّة أخرى؟ هل هي نشوة التجربة الضالة؟ أم محاولة لإثبات أنّني أقوى بل وقادر على مواجهته؟ إنّما عندما واجهته، أصابني نفس الذعر، عيناه كانتا تشعان سطوة غير عادية، فابتسم حين انتفض جسدي أمامه، لم يكن ثمّة داع لاختلاق أيّة مداعبة، دون خجل، أو تنويه، سحب جلبابي لأعلى كأنّما يخبرني أنّ مداعبة الوقت الفائت ستتبلور هذا اليوم، وتصبح مواقعة مباشرة، رحت أتضرع منتحباً، وأنا أحاول إبعاده عن جسدي بيديّ، قبض على ذراعيّ وجاهد أن يجعلني أولي له ظهري، خاب، وأنا أتقلقل وبكائي صامت، كما طائر ضلّ السرب فالتقفه صياد شرير، وكم يكون الشرّ هذا الوقت شيطاناً متمثّلاً! حاول رفع جلبابي ودفعي على الأرض، ثم استقام ورائي وبدا أنّه سيهجم، أزحته عنّي وهو بين مخدّر من النشوة وبين واع، ثم طوحت يدي لا إرادياً لتصيبه في فرجه ويقع يتلوّى تحت قدميّ.

وقفت على رأسه وأنا أرى من احمرار عينيه ما دفعني للابتسام متشفياً، ها قد انتصرت على الصياد؟ وخرجت من بين شباكه حياً، وكراهيتي وحدها تجعلني أرمقه ولا أكتفي، أشلائي التائهة ستُسترد الآن. دون أن يكلمني نهض، عضّ على شفتيه وخرج، جلست قليلاً وتقرفصت جوار موضع الواقعة، رائحة عرقه لم تزل عالقة بأنفي، وشعرت بمقت استولى على بصري، فأحسست وكأنّ جدران "العشّة"

تبتسم بحسرة، والدنيا من حولي تهتّز، وشيء من داخلي يستصرخ الغيث، ماذا حدث؟ كانت الدموع تملأ صدري كجرح لا تنقطع دماؤه، أستغيث، أستغيث فكرة أنّني أوشكت على التلوّث به، قليل من المقاومة فصل بيني وبين الضياع النهائي. ثوان بطيئات تتراكم فوق محيط الوقت وتثقله، صرت مفتوحاً على المعرفة السافرة، لم أعد صغيراً أكيد، ولم يعد "سوسو" أكثر من وضيع سيُنسى.

خرجت والعالم يتطوّح، الحياة أضحت أطياف لا حدود لها تشبه الضباب، وكنت صامتاً، وأنا أدخل البيت، وكأنّني مغيّب، ارتميت على السرير والحيرة تقفز من عينيّ أمي، وغبت في نوم.

بعدها، لمّا استيقظت، هزّزت رأسي وانتابني شيء من الندم وشعرت كذلك بنوعٍ من الخزي أقلّه ما بيني وبين نفسي. كيف سمحت لنفسي بالذهاب له مرّة أخرى؟ أدركت أنّ السرّ في غرابة الموقف، ليس ضعفاً أو حبّاً لما جرى، بل نوعاً مغايراً من أنواع الاستكشاف التي تمتلئ بها روح صبي مراهق مثلي، لعنت "سوسو"، واليوم الذي قابلته فيه وتساءلت:

– من غيري من أطفال قريتنا تمادى معه "سوسو"؟ وكم عدد الذين انتصر عليهم؟

كان كلما يراني يحدجني بهذه النظرة التي أفهمها تماماً، وقد يردفها بلفظة: دكتور. فأوشك أن أنفث في وجهه غضبي وأنقّض عليه، كم كرهته بعدما نضجت مشاعري وأصبحت رجلاً، أو نصف رجل! لا أعلم؟ كانت نظراتنا تلتقي فتتصارع مصطخبة كموج بحر، لم أكن أعرف بعد كلّ هذه السنوات.. من منّا حقيقة انتصر على الآخر؟

السبع

قال لي الأطباء إنّ الذين حاولوا أن يدركوا سبباً بعينه للعجز؛ قد حاولوا وما فلحوا، فالعجز لا علاقة له بالجسد، هكذا يقولون، فكثيرون قد غرقوا في لجّة العجز، أجسادهم كانت تماماً مثل جسدي، لا ينقصها شيء.

يقول الأطباء كلّه سليم، فابحث بداخلك عن أصل المشكلة، لكن العجز يدفع إلى التيه، والاضطراب، ومحاولة إيجاد ألف سبب وسبب لخلق مشكلة، لولا العجز ما استمرت هذه المهزلة الدائرة في كلّ يوم منذ تزوجت؛ مهزلة يخجل منها وجهي فأجدني لا أحتمل أن أطيل النظر إليها، تتفتت نظراتي كما أتفتت، صار لي وجه آخر أمامها؛ وجه يمتص كلّ شيء سيء من داخلي ويطفره عليها. أعطاني الأطباء عشرات الأنواع من الأدوية و"البراشيم" ولم أفلح، أقول اعطوني دافعاً واحداً لهذا؛ غير هذه الترهات التي تتفوهون بها، وقد أجد حلاًّ، فيقولون اصبر، لم يمت أحد من عجزه، أبتسم بحسرة، قد ماتت

بالفعل أشياء بداخلي لن يمكنكم الإحساس بها، فكلّ يوم جديد هو عبء بالنسبة لي، عبء أن أفتح عينيّ فأجدها نائمة جواري تتضوّر، لا ريب أنّ المسألة لا تتعلق بها، ولا بي، فهو القدر، أعلم ألاّ ذنب لها معي، وتعلم أنّه كان زواجاً لا حكمة فيه ولا تريث، هي زيجة أبي، لكني أشفق عليها، ثم ما علاقة هذا الذي أقول بقدرة الرجل فيّ؟ إنّها لا تعرف ماذا اقترفت! أو لمّ أعاملها هكذا! غير أنّ هذا الإحساس يثب عليها من عيني، حقيقة تفطن لها كلّما ترى نظرتي إليها؛ لا مبالاتي شديدة الغرابة، وجودي المستمر خارج البيت، تكشيرة وجهي فيها كلّ صباح، كلّ هذا وأكثر، كلّ هذا يجرح مشاعرها، ولا تشكو، فقط أشعر بما يختلج بداخلها حين تصفع مشاعري بعينيها.

بمرور الوقت، شكواها لم تعد سوى غُصّة بائسة تعتريها حين تصارحني بكلّ ما تشعر، وتقول:

- أنت لا تحبني!

فأكذب قائلاً:

- أنا!

ولكن متى يجيء وقت إعلان الحقيقة المؤسفة؟ وهي أنّ حاجتك لن تمهلك معي الكثير من الزمن، مهما جابهتي فقدك، فلن تحتملي،

أنا أعرف، وربما أعرف كذلك أنّني ظالم، فلأحلّك من قيدك، لعلّك تصادفين من هو أشدّ منّي رجولة وأقوى إحساساً بك، لا ذنب لك بالمرة يا "زُهرة"، الذنب ذنبي كلّه، والمصيبة مصيبتي، فافصحي؛ ماذا يعتمل بداخلك؟ لا تخجلي ولا تخشي خسارتي، ففي أيّ وقت؛ وطالما الغريزة التلقائية لأيّة أنثى لم تُشبع فيك بعد، ومهما كان مقدار حبّك لي، أنا أعلم أن هذا لن يطول، قد يتبدد جَلَدك مع كلّ يوم يمر، وأنا في الواقع أقدّر جهودك المكثفة لعدم إحراجي، وأنت تتهيئين للّقاء كلّ ليلة؛ رغم وهون الأمل، ثم تلقين بشكواك غير المعلنة على صدري وتبتسمين بإشفاق، وتشرعين أنت في إيقاد إحساس الرجولة في جسدي، إنّما كيف توقظين أيتها المسكينة – وبأيّ ثمن– ما قد غفا غفوة لا يعلم سرّها إلاّ الله؟

ما خلت يوماً أنّني لن يُقدَّر لي أن أعيش لذّة لطالما تاق جسدي لها وتصل بالرجال إلى حد الخبل، عجزي يقصم كلّ ركائز روحي، ينهب أعصابي بتمعّن، يسافر بى لعالم من الإحباط يغير على كياني، يا لجمالها وروعتها ودفء مشاعرها، ولكن؛ كيف لم أستطع أن أحبّها رغم ذلك؟ وهل المشكلة الأساسية هي أنّني لم أحبها بعد؟

ليلة دخلتنا، بدوت مثل رحّال تائه، حين تململت، ولويت شفتيّ متنهّداً بأسف، يشرد ذهني كلّما تذكرت إذ راحت تدلّك منكبيّ بأنامل انتابتها رعشة الشهوة. هذه الأثناء، بدت أشبه بذبذبات إرسال متقطعة، وقتها أسبلت جفنيّ، تنهّدت ثم احتويتها بين ذراعيّ،

طرحتها أسفلي، تشبّثت هي بطرف الملاءة بنشوة كما تتشبّث قطعة المعدن بمغناطيس، كاد جسمي يتمزق، ثم انتفضت وصرخت، وأمسكت شبكة الصيادين؛ التي أوصاني أبي أن ألفها حول خصري خشية أن يربطني أحد، وطويتها، رميتها على الأرض وجلست أزفر زفرة حارة، حطّت يدها على كتفي ولثّمت شفتيّ برضا وتمدَّدت جواري وأنا أشعر بابتسامتها الموجعة، وهي تقول:

– كلّه في وقته، لابد أنّك متعب.

كلاّ، لست متعباً، أنا خائب، ونائم على الفراش جوارك بنفس مشوّهة، ما كلّ هذا الهدوء يا "زُهرة"؟ وكيف تتجاوزين عن الأمر بمثل هذه العزيمة؟ لا، لن أيأس من محاولة وحيدة، هيا لنعد الكرّة، وننتظر عمّا تسفر، ولكن؛ تمر الساعات وأنا كما أنا معدوم القدرة، كلماتك تشعل جنوني: لا بأس.. الصباح "رباح".. نم جيداً وستفعلها بإذن الله، كفى، ما جدوى هذه الشبكة اللعينة التي حزمّت بها يا أبي وسطي؟ وكلّكم جالسون في الانتظار، ترجون إتمام المهمة، ماذا سأقول؟ لم يعد ابنك البكري رجلاً! يا للمأساة! وأيّ مأساة! من سيشمت في البلد ومن سيحزن؟ بل كيف سأخرج للبلد وأنا رجل آخر غريب عنهم؟ ترى كيف ستصمد يا عمدة؟ نسلك بات معطوباً، هل نخدع الناس ونخبرهم بأنّ "السبع" ما زال سبعاً! ونقنع أنفسنا بأنّ كلّ شيء بأوان، وأنّ ما يحدث معي يحدث كثيراً ومع كثيرين وأنّ المراد آت لا محالة!

قالت لي أمّي:

- ربطوك يا ولدي.

نظرت لها بأسى، وكيف يُربط يا أمي في بلدنا الرجال دون النساء؟

شيء غريب، أن تكون التخاريف التي لا أصدّقها هي الشمّاعة التي يعلقون عليها عجزي، ولكن؛ لأصدّقهم قليلاً، وأحاول أن أزرع بداخلي فكرة الربط، بل وأسعى لحلّها بكافة السُبل، أول الحلول هم المشايخ، وقد فعلت أن دُرت مع أبي على أكثر من واحد منهم، غير أن تفسيراتهم تباينت، الذي قال أنّ ظلّي (ويعني أقرب الأصحاب) هو من فعلها ورمى التعويذة في النهر فابتلعتها سمكة، ولن أُشفى إلاّ حين تُصطاد هذه السمكة، يومها ضحكت في نفسي بكثير من الإعياء، ما الحل إذن لو أنّ السمكة قد أكلها رجل غيري أو غادرت لشط بعيد؟!

قال آخر أنّ الربط حدث مع نجمة في السماء وهو الأمر العصي الذي سينهكني حتّى يُستدرك، آه.. نجمة في السماء! بالله كيف تُستدرك؟

كنّا كلّ يوم –غالباً– نطوف على المشايخ وكأنّهم حمى وسرت في أذهاننا، كنت أتمرّغ أمام ضريح الشيخ "أبو القمصان" أتوسّل العون بلا طائل، أو أتقرفص بالساعات تحت ضريح الشيخ "أبو الحجاج"، بلا طائل أيضاً.

في النهاية ذهبنا لشيخ صنع لي حجاباً وقرأ عليّ القرآن، وكان يتلو مغمض العينين، ويربت على كتفي، ثم ابتسم وفتح عينيه وقال:

– أنت لا تحتاج يا ولدي إلى علاج، العلاج في مثل حالتك منك فيك، هل تفهمني؟

أومأت برأسي لكن من غير فهم، في الحقيقة وددت أن أخلص من كلّ الهراء، لقد مللت من كثرة ما رحت للمشايخ، وعلى العموم الحجاب في رقبتي، ولن يضير، أمّا موضوع العلاج فقد تركته على الله، هو القادر.

كنت فقط أطلّ إلى السماء وأغيب بين النجوم قليلاً، وأفكّر، ربما كان الكلام صحيحاً! لكن من يبغضني لدرجة أن يربطني مع نجمة؟

كان الشقاء

إلهي....

(آرثر

رامبو)

أم ميلاد

تلفّت حولي، كان حر هذا الصيف يحمل بطن الهواء الساكنة إلى بعيد فيتحوّل إلى سراب يرتعش في الأفق، وكان تراب الدرب ساكناً، خار فرقد فوق الأرض لا تحرّكه إلاّ أقدام بعض السائرين، الذين تقلّصوا رويداً، وهجعوا إلى منازلهم ينعمون بقيلولة العصاري. تلفّت وكان الطريق خالياً، كئيباً، فتحيّنت الفرصة ورفعت قطعة من قماش مغبّر من على إحدى "الكراتين"، فظهر المصحف، تناولته ومضيت بعينيّ بين أوراقه، لم أفكّر فيما سيعتقد عنّي الشيخ "عوض الله" وأنا

أطلب منه نسخة من القرآن، كانت رغبة تواتيني منذ زمن في تصفّح كلام المسلمين، لا أعرف هل هي رغبة خلفها فضول واستكشاف أم خلفها استنكار؟ لماذا يكون كلامنا هو الكلام الوحيد المسلّم به؟ ولماذا يكون كلامهم؟ لربما أنّ التشابه بين كتابينا شديد، ولربما الاختلاف. ثمّة شيء يحثني على طلب المصحف من الشيخ، ولعلّه نفس الشيء الذي يعتمل في نفسي منذ بعيد، يجوز منذ أيام دراستي في مدرسة الزراعة، حين كانوا يفصلوننا في حصّة الدين، وحين كنت أتصنّع ذهابي إلى دورة المياه –التي لم يكن يُسمح لنا بالذهاب إليها إلا في حصتّي الدين والرسم– وأتسلّل بأذني من وراء نافذة الفصل فأرهف السمع إلى ما يقولون، الغريب أن صوت أستاذ دينهم كان دائماً جهوراً، وكأنّه لا يخشى أن يرجرج في أنحاء المدرسة، أمّا صوت أستاذنا فكان رصيناً، لكنّه خافت، وكأنّ ديننا سرّي، ليس مسموحاً بتداوله بين كلّ الآذان. كنت أختلس السمع –بغير أن يراني أحد– فتربكني كلمات المصحف:

(قل هو الله أحد..... ما لهم به من علم ولا لآبائهم..... قال لمن حوله ألا تستمعون)

وكانت أنفاسي تُختطف، تموج الكلمات في ذهني كشلاّل، فأعود إلى الحصة لست واعية بما يدور فيها، تُبحر رأسي في تشتت غير مقصود، وصل بي في يوم أنّني قلّدت حجابهنّ، فوضعت فوق رأسي

طرحة وذهبت بها إلى المدرسة، إحدى صاحباتي نظرت لي ومصمصت شفتيها بتهكّم وقالت:

– والله مجنونة!

فقلت لها وأنا أبتعد عنها بوجهي:

– جنوني يخصّني وحدي.

ينتقل بصري في أرجاء المصحف وأتحسّس خدّي، تماماً فوق موضع الصفعة التي نزلت عليه من أبي يومها، عندما شاهدني وأنا راجعة من المدرسة والطرحة على رأسي، صاح بي:

– أنت فاجرة وستفضحينني.

أبي لا يُجادل، وكونه ينعتني –ولأول مرّة– بالفاجرة فلا يعني أنّني هكذا بل هو يراني هكذا، ولأسباب لم أستوعبها في حينها، ولم يعني أن أستوعبها فيما بعد، كانت صيحته تلازم كفّه التي هوت على خدّي، وكانت من شدتها أن طرحتني أرضاً، وكان غريباً أن ألمح كلّ هذا الغضب في عيني أمّي كذلك، والتي لم تحاول بأدنى قدر أن تساعدني في الوقوف من على الأرض، بل راحت توشوش أبي ويوشوشها، وبعض كلامهما يصل لأذني:

- بنتك ستفسد..

- والحل؟ إنّها ملعونة.

وما أسهل الحل! كان قراراً حاسماً منهما باتفاق أن أترك الدراسة وأنا في آخر سنة، في الدبلوم، وأن يُسرعا بتزويجي.

- "سيفين" أبو "مرقص" كلّمني عليها، تتزوج "مرقص" وتريحنا..

لا تطلّ هكذا يا "مرقص" من إطار صورتك الذي ملأه التراب، تزوجتك مجبرة، لكنني لا أحمل لك إلاّ ذكرى حلوة، لم أر منك غير المعروف، ربما لأنّك لم تمض معي سوى عام واحد، وربما لأنّ "ميلاد" كان ثمرة رائعة لحياتنا القصيرة معاً.

- "إميانة".

خبئت المصحف بسرعة وابتسمت في وجه "بسطاوي" وهو يلبس جلباباً جديداً، ارتداه من عند "أبونا لوقا"، له أيام في الدير، وكلّ يوم يأتي ليجلس معي نشرب "المعسل" ونتجاذب أطراف الحديث.
سحبت "الجوزة" من تحت الفاترينة ووضعت عليها "المعسل". كان "البَّص" جاهزاً داخل البيت في "الكانون"، طلعت بسرعة وأنا أحمل

في فمي عود الغاب وأستنشق دخان "الجوزة"، و"بسطاوي" يرمقني بشرود.

العمدة حمزة

بركاتك يا "أبو القمصان".. أخبرني ما الذي يحدث مع ولدي؟ بالله عليك يا شيخ نَفسَك معنا، ولدي البكري تعيس، ولدي الذي أسميته أنت "السبع" بنفسك عندما جئتني في المنام وزعقت:

– السبع...

بؤر من نور تومض حول الضريح، لعلّها تومض داخل عينيّ فقط، ولعلّ هذا ما يرغبه عقلي الباطن في الواقع. تتسلّل من حولي ببطء ظلال المساء، وتتسلّق جوانب الضريح فتُعتم بعض أجزائه، ينتابني شيء من الإحباط، ويجذبني صوت الشيخ "إبراهيم":

– لك زمن يا عمدة!

أزفر وأنا أقول ببلادة لم يعتدها منّي:

– إنّها الدنيا يا عم "إبراهيم"، كيف حالك أنت؟ و"حمدي"؟

– الحمد لله.

يأتي جواري، يمسّد الضريح بكفيه ويهمهم. كان صوت الريح في الخارج يهمهم كذلك، وكان قلب الضريح يبدو معتملاً بالشكوى، كأنّ "أبو القمصان" يسألني أين أنتم؟ أقمتم الضريح ونسيتموني. رحت أتلو وأسبّح، وكانت عينا الشيخ "إبراهيم" تنتظران حتى أنتهي، ألتفتّ نحوه، فقال مبتسماً:

– الشاي جاهز يا عمدة.

كنت في حاجة لتفريغ ما يعتمل بداخلي، ولو بمجرّد الجلوس مع الشيخ "إبراهيم" وشرب الشاي، استجبت بصمت إلى دعوته، وخرجنا وكان يتسنّد على عصاه، جلست على الكنبة وسط القبور، وأعدّ الشاي.

كان البخار الصاعد من الأكواب يمخر حائط الظلمة الذي يتماس والسماء، وكان شرودي الذي أحسّ به الشيخ "إبراهيم" يُرغم بصري على التبدّد في لوحة الجبّانة، تبدو القبور كوحشة روحي، ويبدو الليل تماماً كليل عقلي، يسألني الشيخ "إبراهيم" بعينيه ما بك؟ فأود لو أشكو له وجيعتي، ولكن؛ وجيعتي بئر من الألم، بئر عميقة، تحتوي همّ البيت كلّه وتخفيه عن الخلق، وهل سيفهم الخلق طبيعة الأسى؟ سيتندّرون بولدي داخل بيوتهم ويتهكّمون، وتصبح مأساتنا

علكة في الأفواه. لو أعرف لي طريقاً لوأد المشكلة ما توانيت! مضى الوقت وولدي لم يدخل بعد على زوجته، وأهل البيت حتّى الآن يترقّبون إتمام المهمة، ولكن؛ من يكرهني لدرجة أن يربط "السبع"؟ لا أجد رجلاً بعينه، ولا امرأة، كلّ أهل القرية يحبوننا، لم أفعل معهم إلاّ الخير، غير أنّ شر النفوس دائماً مطموس، وربما اختبأ في نفس أحدهم ضغينة نحوي أو نحو ولدي، وهذا لا يعلمه غير الله. لعلّ اللعنة في "زُهرة"، ما أدراني؟ لعلّ السرّ فيها وفي بيتها وفي مجيئها ذاته، حلّت بشؤمها، "عرقوب ناشف" كما يقولون، جاءت وجابت معها الفقر للبيت كلّه.

– على فكرة يا عمدة، "حمدي" نجح في الثانوية وسيدخل الجامعة بإذن الله.

صوت الشيخ "إبراهيم" تناولني من دوار عميق، كان يحاول أن يجد للكلام بيننا سكة، بفرحة مفتعلة مؤلّفة، ولكن؛ لا جدوى يا عم الشيخ، لا أحتاج المواساة بقدر ما أحتاج النجاة، أنت لا تعرف عن عذابي شيئاً، لن أستطيع أن أفرح لولدك.

قلت في برود تلقائي وأنا ألملم ذيل جلبابي وأنهض:

– مبروك.. مبروك يا عم "إبراهيم".

<u>السبع</u>

صباح غائم، ككلّ صباح منذ تزوجت، صباح ملبّد بالضباب. فتحت النافذة على مصراعيها قبل أن أدخل الحمّام وأبدأ طقسي اليومي في التحمّم وحلق لحيتي وشاربي وتوضيب شعري. "فريد الأطرش" من الراديو يأتي صوته رغم وهنه شجياً:

– "الحياة حلوة، بس نفهمها"...

أوافقك يا فريد، الحياة حلوة، إنّما.. لو تفهمنا.

أدندن معه، الصابون يملأ وجهي برغوته الكثيفة، رائحته تذكرني بليلة الدخلة، ليلة الغربة والعزلة والقهر.

جرس الكنيسة البعيد يلح الرنين، هذا الرنين الرتيب المدوّي، هل اليوم الأحد؟ لا أظن، ما اليوم؟ أنسيت! أيّ أهمية لمعرفة اليوم وسط حياة تتشابه أيامها أجمعين! تجري أو لا تجري، توجعنا بقدر ما، تبهجنا بقدر ما، والحقيقة أنّ الحياة هذه تتخلّى عنا في النهاية، آخرها عذاب، ووحدة غير معلومة المصير، لا بأس أن نعيش على حوافها، لكن؛ لا بأس بالمرّة لو أولتنا بعض العناية والاهتمام.

هو الصباح الثلاثين الذي مرّ على زواجي، وقفت في الشرفة أدخّن سيجارة وأمارس عليها رجولتي.

قريتنا زهرة ذكية الرائحة تشرع في التفتح بأناة كل صباح، شذاها يسري خلال كلّ الدروب والطرق والبيوت، يكلّل الوجوه بالبكارة، يصل إلى السماء فينبض قلبها بالحياة، تندى بسحابات، سحابات صغيرة تدنو قريباً من بيتنا، كأنّني أراها في مشهد من عالم مواز، تدنو منه، أثارت ارتباكي، وهى تداعب البيت بأن ترفع رأسه لأعلى، لكن البيت كلّه خامل، وكلّ ما فيه خامل، تماماً مثلي، عنقه متدلّي لأسفل باستسلام، تظلّ تداعبه وتسقط على بشرته المتشقّقة قطرات من ندى الصباح، فيفتح جفناً بمنتهى المشقة من على عين مسبلة، ويرمقهم بتجهّم، ذباب لا يهاب صحوته يحوم مرتاحاً حول وجهه، يتسلّل بين الشقوق والمنافذ التي كلّما مرّ الزمن زاد اتّساعها، ويتّخذ من طبقات التراب التي تتكدّس في جوفه ملاذاً له من قنص البشر، ربما ليس السائر من قدّام هذا البيت، الخامل المتشقّق، ليقدر أن يحجم فضوله من حثه على التوّقف ولو قليلاً، السائر قد يشعر بأنّ الراقد أمامه هذا خائر ربما يحتاج عوناً، فيتفحصه بشفقة وأسف، ثم يقرّر، ربما إثر إحساسه بشيء ما من الرأفة، أن يمضي.

آه، متى تنهض أيها البيت المنكسر؟

ثلاثون يوماً، ثلاثون إخفاقاً، ثلاثون صباحاً أخرج إلى النهر، أترك "زُهرة" مسترسلة الجسد فوق الفراش، وألثم جبينها بقبلة معتذرة وأخرج، يحتويني هواء الجرف المنعش، فلا أنتعش، أجلس وحيداً ككلّ صباح، أغور بذهني داخل مياه نيلنا الهادرة، تتسارع أنفاسي وأوشك على البكاء، بل أبكي في الحقيقة، لا داعي للرياء، أبكي وأنا أجوب محيط الموج المتلاطم، وصدري من شدة النشيج يصعد وينزل، تماماً كقبضات الموج التي تنفرد وتنضم، ليتني في حلم! انقباض قلبي غير مسيطر عليه، كيف تحملني قدماي الآن نحو فكرة الراحة؟ كيف حلّ ظلام بسرعة أمام عينيّ؟ ظلام يكتنف الأجواء لا عهد لي به، النيل عدّاء لا تركد أبداً مياهه، ربما تهبني بعضاً من قدرتها على الهياج، ولكن؛ أنا أضعف، أضعف كثيراً من أن أختبر قدرتي داخل مياه لا تهدأ، فقط سأقف على لا مستقر داخل النهر، وأحوم بيديّ صانعاً دوامة تتبدّد سريعاً مع المياه، أغمض عيني، فيأتيني وجهها باسماً ينفذ من ضوء السماء، قائلة كعادتها:

– كلّ شيء بأوان.

متى يا "زُهرة"؟ متى يأتي أوان ما لا يريد المجيء؟ كلّ شكواك أنّني لا أحبك، إذن لو أحببتك فهل ستنتهي المأساة؟ هل ستتبدّد هذه النظرة الأليمة التي ألمحها بين عينيك؟ الآن لم أعد سوى حجج مصطنعة يواسي بها الأهل أنفسهم، لكنني أعرف أنّي لم أُربط، أنا ما عدت رجلاً، فقط لا غير، وما عدت قادراً على تحمّل كلّ هذه

السهام التي تنهمر من العيون، كلّها تساؤلات عن أيّ جديد يبهجهم، ولكن لا جديد، سوى أنّك تصمدين أمام عجزي في كلّ يوم صموداً يحرق فؤادي، ويفطر كلّ رغباتي في تحرّرك.

من السماء، تأتيني بجناحيها "فرسة" جدّي "توفيق"، يا لها من بيضاء جميلة! صهيلها يهدئ الموج، فيستكين أسفل حوافرها ويتهيّأ لمراودتها. أيّها النيل، كم أنت جميل! إنّما قد لا تعنيك أيّة أحداث جرت منذ قديم الأزل، ولن تعنيك الأحداث التي ستكون ولو بعد ألف عام، ستظل فارداً بأسك من أقصى لأدنى البلاد بلا اهتمام. "فرسة" جدي "توفيق" تدنو منّي، تتفرّس فيّ قليلاً، هل أدركت الشبه الذي بيني وبين صاحبك؟ تتمسّح في ظهري، فأمتطيها وتطير بي.

تُرى هل تقدر على حملي إلى نهاية أخرى؟

زُهرة

المرآة أمامي في الغرفة؛ والتي أجلس قبالتها بالساعات أمشّط شعري وأسرح، تنبؤني بأنّني ذبلت، حقاً ذبلت، بعد أشهر من زفافنا لم يعد بداخلي أيّ مكان للتفاؤل، كانت تذكّرني بليلة الدخلة؛ ليلة تهيأت لها لأسابيع، وكدت أطير من الفرحة وأنا جالسة في الكوشة كلّما يمر الوقت ويقترب نصف الليل، يقترب موعد دخولي معه إلى عالمنا الفريد.

*

* *

أبي عمدة، وليس من غريب في زواجي أن يكون من ابن عمدة كذلك، غير أنيّ لو لم أنجذب ناحيته أو ارتحت له ما قبلت أن يشاركني الحياة. كان كثيراً ما يحضر إلى دوّارنا مع أبيه العمدة "حمزة"، وكنت أتسلّل ببصري نحوه وأتطلّع إلى وسامته، كان وسيماً، له طول أبيه الفارع، كتفاه عريضتان، له طلّة في وجهه ميزتها أول ما وقعت عليه عيناي فدخل قلبي بكلّ بساطة، كان آسراً، وكنت أقف على سطح بيتنا وعيناي تصبوان ناحية طريق رحيله، أودّعه ببصري، وأنكر هذا الإحساس بداخلي الذي يدفعني لأن أتمناه لي، أتمناه زوجاً وحبّاً وعالماً أعيش فيه لوحدي.

وكان من أبيه؛ في يوم من أيام الجُمع التي يزور فيها أبي، أن طلبني لابنه "السبع"، لم أقو على استدراك فرحتي، فشهقت أمام أبي وهو يبلغني، شهقتي كانت تعني نعم، نعم بكلّ خلجات يحملها صدري، نعم أريده يا أبي، قال آنذاك:

– هكذا، دون حتّى أيّ تفكير!

ابتسمت خجلاً وهرعت إلى غرفتي، وكان ردّ أبي أن يمهله العمدة "حمزة" قليلاً من الوقت للتشاور، ولكن زفافنا لم يتأخر، الزمن من قراءة الفاتحة لليلة الفرح لم يستغرق غير شهر، وانتقلت إلى بلدته القريبة من بلدتنا.

* * *

في ليلة دخلتي، كنت فراشة، تحلّق الآن بعيداً عن وهج الوحدة وتدنو من بستان مزهر، كنت واحدة من أولئك الملكات اللائي يتمرّغن فوق جدران المعابد بزهو؛ ملكات الفراعنة اللواتي كنت أقف أمامهنّ وأنا في زيارة إلى معبد مع المدرسة أو في رحلة مع بعض الصديقات إلى البندر، وأمضي الوقت أطوف ببصري في جمالهنّ وروعة أشكالهنّ المنقوشة على الحوائط، وأحلم أنّني منهنّ، يذهب خيالي إلى آلاف السنوات الماضية وأراني متقدّمة ركباً من البشر وأنا جالسة في أبهى زينة، يسحبني جوادا العربة الملكية ببطء بين الجموع المحتشدة على جانبي طريقي تهلّل لي، وأنا ابتسم لهم وألقي عليهم أكاليل من الزهور، وحرّاسي في الأسفل عرايا تحت عيون الشمس، يا لها من فرحة والناس تتجمّع لرؤيتي! رؤيتي لا غير، ها هي الملكة تطوف رعاياها بكلّ شموخ ومحبة، وتمسّد رءوس صغارهم بكلّ تواضع، وتمنحهم العطايا والهبات، وتستكمل طريقها نحو جنتها، قصرها الذي يتمثل في غرفة في دوّار، وهي لا تكاد تستدرك أنفاسها

من فرط السعادة، أيّها "السبع"؛ سبعي، تناولني بين أحضانك بأناة، ولا تلتفت لأول ليلة، فهكذا التوتر، يصنع بأجسادنا العجائب، تمهّل، ولا تتعجّل تلذّذي بك، سوف يحدث، وساعتها لن تحجم انفلاتك بداخلي، أشتهيك، ببساطة أحبّك، ولكن؛ هل يكفي هذا الحبّ لكي تفطن إلى معنى صبري؟ أنا أحبّك ولا أريد سوى وجودك هنا بجواري، ولو مرّ شهر، ولو مرّ عام، بل يا حبيبي ولو فات علينا زمن الكون بأسره، أنا لك، فلا تبتئس، ولا توغر داخل صدرك كلّ هذا الإحساس بالوهن، دع خدر الحب يتمكن من أطرافنا، وأغف في حضني، هل تعلم كم أحبّك؟ حتّى وأنت تجوس عينيّ بنظراتك اليائسة، لا أكف عن حبّك بشدة، حتّى وأنت تلعن اليوم الذي تزوجتني فيه، وتمضي في الصباح، وفي النهار، وفي المساء، تمضي ولا أعرف عنك شيئاً، وتتركني بين أسوار هذا المنزل القاتم ورقة تتطوّح من الخوف، غريبة عن الجميع، أمّك، أبيك، وإخوتك، غريبة ولا يعرفون عنّي قدر ما يعرفه أيّ شخص في القرية، مجرّد امرأة تعيش في بيت العمدة، حتّى وأنت تضعني على رف حياتك قطعة مهملة بلا معنى، حتّى وأنت هائم بكلّ كيانك في عالم ليس واضح المعالم، أحبّك، ولن أترك لك فرصة لإقصائي عن عالمك، عجزك يا حبيبي لا يعني لي شيئاً، لو فقط تضمّني إلى قلبك وتخبرني أنّك تحبني، لو أنّك تراني كما أراك، ما ذبلت، وما كانت بنا حاجة لطبيب أشكو له ألمي، أقصد ألمي النفسي، فجسدي لا أظنّه يتألّم بقدر ما تتألّم روحي لأسلوب المعاملة الذي تبادر به حبّي على الدوام، ما كانت بنا حاجة لواحد من أصدقائك اسمه "ميلاد"، يكشف بواطن ما أُخفى بعينيه،

ويتسلّل دون أن يستأذن إلى أعمق أسرار نفسي، ويشرع في تحديد مواطن تعذّبي، بمجرّد لمساته، وهو يضع سمّاعته الحديدية الباردة على ثدييّ، ويجرى بها يستوضح علّتي، كلاّ؛ لا علّة سواه يا دكتور، هو فقط من أفضى بي لحالة من العته، تجعلني في كلّ يوم بعد يوم أذوى ككائن هلامي يتبعثر في ثنايا الثرى، ماذا ستفعل لمساتك الرقيقة المتحفّظة يا دكتور غير أن تدفعني للارتعاش كيمامة داستها قدم عابرة؟ سأظلّ أرتعش ولن تعرف مهما جاهدت أيّ علاج لي، علاجي هو، وعلاجك الذي كتبته ليس ذا جدوى، صدّقني لن يفلح كثيراً في أن يعيد لوجهي بكارته، ولن تصلح هذه الأدوية؛ والتي قررت لي أن أتناولها يومياً، في إزالة أسباب العلّة، فقط ما قد يفلح، هو أن أتشبّث بأيّ وجه غيره في خيالي، وأن أستبدله بوجهه في حلمي، لعلّ هذا ما ينقذ رأسي من تيار الجنون الجارف، الذي يعصف بها ولا يرحم، فقط وجه، ولو حتّى من صنع الخيال، هو ما يبعث في عيني، دون غاية، أو عمد، أيّ ضوء حياة.

حمدى

لا أدوّن أشعاري، أحفظها في رأسي كأنّها مكتوبة، لا أنسى كلمة ولا يسقط من ذاكرتي حرف، لم أطلب من أحد أن يدوّنها لي، ربما ليس هناك من يملك سعة الصدر لتحمّلي، أو ربما تعوّدت، صارت ذاكرتي أقوى من كلّ حواسي المتبقية، ليس لي سواها في دنيا لا ترحم، فاقد البصر لا ترف له سوى خياله وذاكرته. أذهب أحياناً إلى

قصر الثقافة ليلاً لقراءة الشعر والقصة، أذهب –كدأبي– مبكراً قبل أن يأتي أحد، وأتحسّس طريقي –المحفور في دماغي– إلى داخل القصر، أجلس لبعض الوقت أمام غرفة نادي الأدب ويجيء "قناوي" الفرّاش، يفتح الغرفة وهو يقول:

– دائماً تأتى قبل الناس يا أستاذ "حمدي".. حتّى في وقت العمل.

أبتسم، أرتبك شيئاً ما وأقول:

– أعذرني يا عمّ "قناوي".. فدائماً أنسى ساعتي في البيت.

كلامي قاس، لعلّه الآن يشعر بالحرج، فقد تنحنح، تصنّع انهماكه في نفض المقاعد والمناضد. دبيب الأقدام يقترب من أذنيّ، دلف الغرفة الأدباء واحد تلو الآخر، جلس الجميع بعد سلامات وأحضان ودعابات وتهنئات شبه رسمية أقرب للفتور بنجاحي في الثانوية.

خلال دقائق دخل رئيس النادي الأستاذ "أبو الحسن" وشرع في بدء الجلسة.

همهمات، مناقشات، لا يرغب أحد في أن أشاركه هذه المناقشات، ربما يتجادلون فيما يعرفون أنّني لا أصلح للمشاركة الفعلية فيه ولو بشكل نسبي، ليس صحيحاً أنّ النسبية قانون عام

يسير على كلّ البشر، النسبية قانوني الخاص، أنا نسبي، الطاقات الملهمة داخل روحي جميعها نسبية حيث لا يشعر بها غيري، لذا لا يمكنني أن أثق في نظام الكون بأيّ حال، كيف أثق فيه؟ من ذلك الأحمق الذي قد يدّعي يوماً محبّتي؟ المحبة وهم، لا يعدو كونه أكثر من إحساس هامشي من زوائد النفس يلقيها المرء على الآخر عرضاً، ها هم يتهامسون ويضحكون من دون إعارتي ولو بعض من اهتمام، لعلّهم يتهامسون في الأصل عليّ أنا شخصياً، لكنني لن أحفل بكلّ ذلك، سأستعير تلك الابتسامة التي لا أعرف لها شكلاً محدّداً وأجلس بها بينهم، لم يكن من أحد أهمّ منّي في ذلك العالم الفسيح البائس، سأجلس بينهم وأحسّ بنظراتهم تحوطني كإخطبوط، تتأمّلني وتتأمّل تعاستي، لكن من يجزم فيهم بأنّني تعيس؟ هل أحاول التحايل على الحقيقة المباشرة؟ كما لو كنت أتحايل على اليقين بعينه، بالفعل أنا نوع مشابه لأيّة تعاسة قد يفترضها شخص، تعاسة الموت الغائب أنا، تعاسة الحبّ المفقود أنا، تعاسة الحياة نفسها، تعاسة ضاربة أنا في أعمق أعماق هذا المجتمع، فأيّ تحايل!

قليل من وقت مرّ ثم سرى في الغرفة هذا العطر المباغت، أحسست به، قال رئيس النادي:

– الشاعرة "منال"، عضوة جديدة معنا في النادي.

تعارفت مع الجميع وجلست، شعرت بوقع خطواتها، ولفني عطرها الغريب، ملت مازحاً على أذن أحد الشعراء الجالسين جوار منّي وهمست:

- حلوة!

- من غير كلام.

قالها باقتضاب وانصرف عنّي، كأنّه لا يطيق مجرّد الاسترسال معي في أيّ حوار، اقترح الأستاذ "أبو الحسن" أن يبدأ الندوة الشعرية ب"منال"، كانت خجولاً وهي تتنحنح وتنظم شعرها، ألقت قصيدة سيئة هاجمها الجميع، لم أركّز في كلمات القصيدة بقدر ما ركّزت في صوتها الرقيق، سألني "أبو الحسن":

- ما رأيك في القصيدة يا حمدي؟

- جميلة...

قال بدهشة ساخرة:

- وما هي مواطن الجمال في القصيدة يا شاعر يا كبير؟!

سكتُ محرجاً ولم أرد فانحنى عليّ قائلاً:

– هل سمعت القصيدة جيداً؟

الشيخ إبراهيم

افتراش الليل عادة، بات عادة، النوم حجّة يتذرّع بها البشر للخروج من براثن رهبة الليل، لكنّني مؤرَّق ولا أنام، لم يعد يؤرقني التفكير في مجيء أم "جودة" فقد ظفرت بما ظلّت تجوب الأرض من أجله، روحها الآن سكنت واستقرت. الليل ضبابي، في ذلك الليل كانت حاجتي لأم "جودة" شديدة، لم تكن رأسي قد توقّفت عن الدّوي من منتصف النهار، وعندما حطّ الليل أخذت أضواء مبهمة تومض خلال شقوق بابي الخشبي، حتّى الحيوانات اللاجئة لفضاء الجبّانة من وحشة العالم البعيد أشعر أنّها مثلي تماماً تخشى شيئاً ما، أخشاه كثيراً وأخشى أكثر البوح به، ظنّاً منّي أن مجرّد ذكر الأمر ولو بيني وبين نفسي لابد وسيستحضره للمثول ثانية، لم يكن "حمدي" موجوداً، في الطرف الآخر من القرية، وحاجة ماسّة تدفعني لافتقاد أم "جودة"، ربما استأنست بها ذي قبل، وربما وجودها يحجب عنّي مخاوف أعظم.

جعلت أدور في الغرفة، أقف قليلاً جوار النافذة مثل مراقب، ثم أدور ثانية، محاولاً بعث حياة في جسدي وذهني من لا شيء، ولكن

العواء ظلّ يربض في الخلاء القريب، لم أكن محتملاً أيّ خوف جديد، والعواء يقترب من تحت النافذة المطلّة على كافة مخاوف الدنيا، عواء متقطّع مبحوح، أرفع رأسي تجاه أعلى، أتملّى في سقف الغرفة، أحاول أن أستكشف منفذاً للسماء، أحاول أن ألمح أيّ جزء من الله، لعلّه يكفيني شرّ ما يقبع بالخارج، إنّما الله حرّم علينا رؤيته، وحرّم معها استنباط سائر الغيبيات، وفي رثاء أترقّب الخطوة القادمة، أشياء طليقة في الخارج تترصّد طلوعي بينما أنا عاجز، لم أكن أستطيع فعل شيء، لا أحد ولا حتّى مخلوقات ليلي المؤانسة يمكنها مدّ يد العون لي.

سمعت الخطوات الخافتة، وهي تنحدر من أعلى، لم يكن لدي قدرة على رفع رأسي مرّة أخرى، تسمّرت، تراجعت عن فتحة النافذة وتوسّدت بالفراش، أحسست بحضوره، فارتجفت، تمنيت أن يغفل عنّي هذه المرة ويؤجّل العقاب، فالقربان موجود ولن يتحرّر إلاّ من خلاله، فلم العجلة! أخذت أرتعد أكثر، من برد سرى في كلّ أطرافي ومن فرط الروع، في ذلك الجو الضبابي سيجد جسدي طيّعاً مستجيباً كما لم يكن ذي قبل، ومجرّد أن يضع لمسته عليه سيسلّم له نفسه من تلقاء نفسه ومن دون أيّ جهد أو مقاومة، كيف أستمر هكذا وكيف نتعايش معاً في ذات المكان؟ كان الصوت يتصاعد وأنا من تحت الفراش أغمض عينيّ وأرتعش كريشة تتطوّح.

– ما جدوى العبث؟!

لم أرد، تركت الوحشة النابعة من داخلي تتكفل بكلّ الاستجابات غير المحتملة، أكمل في فحيح:

- ممّ تخاف؟!

منك، ومن حضورك بالدوام، ومن كلّ الذي تبثه في نفسي من تنبؤات.

لم أعد أحتمل خنق الفراش ولا قهر الانتظار المرير، كان صوته يدوّي حولي كصدى عابث قاس يلتهم الأعصاب، استقمت في ردّة فعل فيها الكثير من جسارة النفس والتي لم أكن لأتوقعها، طفقت أنظر من حولي في كلّ الزوايا، أخذت العبرات تغيّم أيّ مشهد قد يظفر به بصري، بدني بدا وكأنّ كل قطعة فيه مجرّد ندفة هشّة، مضيت أصرخ في انفعال بليغ مثل محموم:

- هل حان أجلي؟ ابتعد.. ابتعد.

علوان

ولنستمع إلى الفضيلة التي لابد سيدّعيها باطنك أيّها الكائن، ضفيرة وجع نابت في كلّ أحشائك، يبدو أن الزمن لا يتفّق عليك،

ولا يستسيغك، لا يرغب في أن تكون واحداً من تكويناته، فيهملك عامداً، وينشغل عنك بسدّ كلّ تلك الثقوب المتفشّية في بدن الكون، متحاشياً الثقوب التي أحدثتها نزواتك المأفونة، أيّ حكمة أن تنبع الفضيلة من مثل ذاك الجسد! ما جدوى قيامك بسح الدموع بعد المصيبة! ليس هنا –في هذا الموضع– من غفران، أيّها الكائن الضئيل الذي لا يراك أحد ولا ترى حتّى نفسك، عليك باكتشاف باطنك عن ظاهرك، حتّى وأنت تتطوّح عن غير قصد.

* * *

وقفت طويلاً تحت ظلال البيوت الحجرية، المليئة بالقلوب الحجرية، كنت قد سرت أطول بين حقول الذرة المترامية، وسمعت العيدان وهي تسخر منّي كحال الجميع هنا، كأنّها تؤكّد لي فكرة الفرار، هل ثمّة ملاذ آخر لي؟ لم أكن أدري، ولم أهتم بتحليل الأفكار الآنية، كانت رأسي معتمرة بنشوة الكحول، وكانت القرية تبدو – لأول مرّة– أليفة وطيّبة تحت ضوء القمر، ترتدي ملابس الليل القاتمة وتشعرني أكثر أنّني أنتمي إلى هذا المكان، فهو قاتم ذات قتامة نفسي. هل من خطر عليّ وأنا أتجوّل في أحشاء القرية مثل شهاب فارّ؟ ولماذا الشعور بالخطر تحديداً في هذا المساء؟ ليس لي من رفقة في ذلك العالم القاحل غير ليل القرية.

السكون يغشى أجواء النهر، "الجرف" غاف، كلّ الكائنات النهارية آوت لمضاجعها، عداي، لم أكن كائناً نهارياً لأحسد النهاريين على استمتاعهم بالاندساس في حضن الليل، فالليل ملكي وحدي دون الجميع، الليل مملكتي المعتادة. مذاق النسيم يحتوي دواخلي، أدنو في بطء من حافّة النيل، لم أحاول أن أزعج الكائنات الأخرى التي تسكن المياه فدسست أنامل قدميّ في فم المياه على مهل شديد، ورميت رأسي على ظهري، أغمضت عينيّ وبدا الليل سامراً وسيماً، ليس فيه من قبح الوعي ملمح واحد، أو كما يراه الآخرون، وفي خفوت يستدعيني النهر: يا أيّتها النفس غير المطمئنة. أفتح عينيّ في اعتراض وألقي بصري نحو الشطّ الآخر، أيّ نفس تلك غير المطمئنة؟! تفوح روائح الجبّانة من الجهة المقابلة ولا أجد لديّ رغبة في التشّظّي، كانت الرغبة الأشد في الاستكانة، دائماً تفاصيل القرية الغادرة تحمل شراهة غير عادية في محاولة الاستحواذ على عقلي، لكنّني لا أعتد، ولن أفعل يوماً، فلتقتحم كلّ روائح الكون روحي، لا أظنّها ستجد سبيلاً ميسّراً للاستحواذ. يدغدغ الماء البارد الهادئ أعصاب ساقي، أجاهد بلوغ رغبة بديلة فأسبح مع التيّار إلى ما لانهاية، شمالاً أو جنوباً، كيفما يسوق جسمي، أتوّحد لبعض الوقت مع أسرار العالم الخفّي الذي تطفو فوقه المياه، في تردّد أحاول الهبوط، أعود مسرعاً فأحمل ما اختفى في ظلمة الماء من ساقي للأعلى ثانية، دائماً قلبي أسير أيّ خوف، من كلّ شيء ومن لا شيء أحياناً، رغم تحقّق الرغبة العارمة بداخلي في الوثوب نحو متن المياه والانشطار لعدّة جسوم، جسم يجدّف، جسم يطوف، جسم آخر يناجي كائنات

المياه، رغبة ملّحة وتنفيذ رهين جُبن. أجلس فوق طين الضفّة الدافئ، لم يزل يحمل سخونة جلستي عليه منذ قليل، أترك للموج عنان مداعبة لحم ساقيّ، وسمكة تدنو من الساق المتدلّية في ارتخاء، تطوف حولها، ترقص وهي تلف حول الساق رقصات تلقائية مرتعشة، والماء يطير صوب الشمال في كسل. تغوص السمكة وتعود، تختبر مدى لؤمي، تحتمل فخ صياد قد يلقفها لخارِج المياه في لحظة خاطفة، غير أنّ ساقي مسالمة، ورأسي كذلك، تلك الرأس التي تعوّدت السلام من شدّة الانتهاك، هيا اقتربي أيّتها الذكية، لن أحاول بأيّ حال إلحاق الأذى بك، ليس لك من ذنب، ولو كنتِ مجرّد طعام يسد الأفواه التي لا تشبع، تتفرّس فيّ بعينين مستديرتين مليئتين بالشك، أنتبه أكثر وفمها الصغير يهمهم:

– لماذا تراجعت؟

أهزّ رأسي، أنفضها جيّداً، أحاول انتشالها من دوّامة اللاوعي، لكنّني أجيب في تراخ:

– عمّ تراجعت؟

– عن القفز.. أتخشى حضن عالمنا؟

– لو تعرفين! أخشى عالمي أكثر.

– في هذا العالم هنا لا مكان للوحدة، في جماعات نعيش، وفي جماعات نموت.

– الموت! الموت فكرة لا بأس بها، المشكلة أنّه اختيار من طرف واحد.

– ليكن.. حكمة الموت لم تكن أبداً في ماهيته.. بل في كيفيته.

تهتزّ صفحة المياه، ترتسم مؤخّرة "صابرين" كتأكيد رسمي على استيطان اللاوعي، في سرعة تزوغ السمكة بعمق المياه، ومؤخّرة "صابرين" تبدأ في البروز كبالون منتفخ بض أبيض اللون، تساءلت عن جدوى قفزي فوق هذا البالون! وهل سأنعم بلذّة الوهم كما نعمت بلذّة الواقع؟ أشيح بصري عن الوهم فيلازم غموض العالم البعيد، عالم الشيخ "إبراهيم" و"أبو القمصان"، تستولي ذات الروائح على كياني، روائح المقابر والوحشة والاغتراب المقدَّر المأمول في بعض الأحيان، ومن وراء رءوس جبال البرّ الغربي غير الواضحة تلوح أرواح الضياء الرضيعة، تنفذ ناحية المياه فيتلألأ، تنفذ ناحية روحي فيصيبني اختمار الرأس أكثر، ويركبني الخمول، وأجد دموعاً، لا أدري كيف تنجبها العين؟ ولا أدري إلى أين مستقرها؟

<u>عن أم ميلاد</u>

"مرقص"..

لم يكن يوماً غريباً، ومع ذلك ظّلت تشعر بنوازِع يفترض أن تكون مرفوضة طيلة عِشرة عام كامل، لابد من تصحيح بديهي لمسار عقلها، لكنها لا تستطيع الوقوف بأيّ شكل على أيّة منهجية قد تتّخذ في سبيل ذلك التصحيح، أيّ إدراك بالحقائق كان يشوبها! تتفرّس في صورته المعلّقة على الجدار وتحسده، في الحقيقة تفعل، تجد أنّ في صورته من الحياة ما يفتقر له جسدها، عيناه اللتان تملئان مساحة البيت تفقّداً رغم رحيله، تشعر بهما، تشعر بهما تنهيانها عن أمور وتباركانها على أخرى، تهمس أحياناً: لا تنظر لي هكذا يا "مرقص"، دائماً ما تكون المصادفات وحدها هي أبسط محاولات التصحيح، ولو كان التصحيح عنيفاً أو مستبدّاً أو حتّى خاطئاً. المهم كيف يتّسق هذا التصحيح مع وجهة نظرها وإن بدت أحادية. ربما يستغرب "مرقص" من الشتات الذي مضى يسري في مجرى حياتها. من سخرية القدر يا عزيزي أنّ إيماني بأشياء كثيرة بعيد كلّ البعد عن إيمانك، كلّنا نرى الله من أكثر من منظور، اعتبر شتاتي مسألة عابرة، مجرّد وهلة في زمن لا نهاية له، زمن شاسع كما صحراء بلا آخر، فلا تنظر لي هكذا، لم يخترق أحد جدار عزلتي غير تساؤلاتي التي تطرح أكثر من وسيلة للاستقرار، عذراً يا "مرقص"، الأصوات، الأصوات تحاصرني في نهار أو في ليل، أصوات لا فكاك منها، وتساؤلات –في أغلب الظنّ– لا إجابة لها، لعلّني أثق في ذلك، إنّما لا ضير ممّا تطرحه

تلك التساؤلات، أليس كذلك؟ أظنّ أنّ كلّ البشر يعانون لعنة البحث منذ آلاف الأعوام، أجبني أنت إن أمكنك، لنتواصل ولو كنّا بعالمين مختلفين، ولكنك صامت، لعنتك الأصيلة يا "مرقص" صمتك، عدم احتمالك لتساؤلاتي الملّحة طوال عام، لعنتك أنّك لا تعرف كفاية لتجيبني، أو ربما تشعر أنّ ثمن تلك الإجابات فوق طاقتك، لذلك أحسست بنظرتك المتحفّظة للشيخ "عوض الله" وهو جالس معي وفي عينيه نفس الذعر الذي يطلّ من عينيك، جلسة وحيدة بعد أعوام كثيرة من حرقة التساؤلات، لم يكن ليصدّق الرجل حجم التفكير الذي بلغه عقلي، سألته بشكل سافر:

- هل تؤمن بالله؟

طلّت ضحكة السخرية من عينيه، تأمّلني طويلاً قبل أن يردف:

- كلّنا نؤمن بالله يا ست "دميانة".. لكن كلّ واحد حسب معتقده.. أليس غريباً أن تسألي هذا السؤال لإمام جامع؟

تلصّصت على صورتك يا "مرقص"، رأيت في وجهك هذا الحافز للوثوب من متن الصورة وكبح جماحي، استدرت نحوه ثانية وقلت:

– ليس غريباً يا شيخ.. ليس غريباً.. أنا مثلاً لا أؤمن بالله الإيمان الخالص الصافي.. فقط أؤمن ببعض منه.. لا أدري.. ثمّة أفكار غير اعتيادية تعصف بذهني.

تجهّم وجهه، أسفرت ملامحه عن بداية غضب، إنّما أضاف وهو يقاوم رغبته في فضّ الحديث:

– احذري يا ست.. لم يكن الله أبداً لعبة بيننا نحن البشر.. الشرّ يدنو من قلبك والله مطّلع على الأفئدة.

– مطّلع؟! أحسب أنّ قلبي ناصع ويحتمل كلّ الإجابات.. فأجبني.

– كيف أجاوبك إن لم يكن عندك الاستعداد الحقيقي للقناعة؟

– لماذا تفترض انعدام ذلك الاستعداد؟ جرّب، سوف ترى، أظنّ أنّني من نوع عابث، لا يفعل قدر ما يفكّر، نعم، أفكّر كثيراً.. أكثر ممّا تتخيّل يا مولانا.

تململ قليلاً، شعرت أنّه أحسّ مثلي بمراقبة "مرقص" فرفع نظره ناحية صورته ثم ابتسم ابتسامة شاحبة وقال:

– علينا أن نعترف أولاً أنّ العقيدة مجرّد إرث، يتناقل بين العشائر والأقوام، ولكن العقيدة الحقيقية تلك التي تكون راسخة رسوخاً يستحيل معه عدم الإيمان بها.

بدرت ضحكة خافتة، قلت:

– في الواقع لا أفهم من كلامك الكثير، رغم أنّني تقريباً استوعبت ما تقصد، كم أود يا مولانا لو ارتاح! كم أود لو تبلغ نفسي السلام النهائي!

– ألا يمكنك رؤية كمّ هذا السلام الذي يسود –على الأقل– في قريتنا؟ الله يحب السلام للبشر جميعاً.

– دعك من هذا المفهوم، لا أظنّ أنّ الله يحب السلام، بل أشعر أنّ من فضائله العنف.. أحسبك لا تؤمن به إلاّ على النحو المطلق من دون أيّ تفكير حيادي.. أجبني.. أمسيّرون نحن أم مخيرون؟ لا تقل لي في بعض وبعض، لا تملك إجابة هنا، أليس كذلك؟ إنّ كنّا مسيّرون فلمّ بدأ البشر تاريخهم بالعصيان والعنف والدماء؟ لمّ أراد الله لهابيل أن يُسفك دمه والبشرية لم تزل في المهد؟ إنّ الله يرتضي الإثم على عباده لكي يختبر مدى لجوئهم له.

زفر زفرة طويلة، تحوّلت الابتسامة على شفتيه لتعبير مواس وكأنّه يأسف لما آل له منحى تفكيري، ثم قال:

– لكي تبلغي السلام، لابد أن توقني بالعظمة، عظمة الخالق، ليست التساؤلات بمجرّد حراك عشوائي داخل نفسك، كلاّ، إنّها سبيل للوصول، الله يرينا الطريق وعلينا أن نسير، وكلّ واحد كيفما تميل روحه، إنّما تلك الحيرة التي تفور في عينيك أساسها الجدل غير المنطقي الذي يأسر روحك. بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتّبع كل شيطان مريد) صدق الله العظيم.[13]

– أين العلم إذن؟ في قرآنك! هل معك قرآنك؟ قد أجد فيه بعض الإجابات.

نظر لي مندهشاً، تأمّلني بنظرة غير مستوعبة، تأمّلني لوقت طويل، كما لو أنّه لا يريد أن يصدّق ما تفوّهت به، ثم ببطء تناول مصحفاً صغيراً من جيب جلبابه ومدّه لي قائلاً وهو يزدرد لعابه:

– تفضّلي.

– اتركه لي، أرغب في قراءته على مهل.

كان "مرقص" قد بدأ يتلوّى داخل إطار الصورة، شعرت بمدى أنفاسه الملتهبة وهي تلفح وجهها، لكنّها لم تعره انتباهاً، لم يعد بإمكان فضولها الرجوع، أخذت تتطلّع إلى المصحف والتساؤلات – المزمنة– تصطخب في رأسها أكثر.

زُهرة

ما عاد الحلم جميلاً، الواقع المفترس بلعه منذ زمن.

إن كانت له في السهر خارج البيت راحة فليفعل، وإن كان هروباً منّي فليهرب، في النهاية أعرف أنّه يهرب من عجزه، فليوجعني أكثر فأكثر إذن متى يشاء.

دائماً بسخرية موجعة أقول لنفسي:

– وما الذي يرغمني؟

ولكنني لست قاسية لهذا الحد، يكفيه ما هو فيه، الغريب أنّ سهره الدائم المتكرّر وعودته قبيل الفجر باتا عادة لم أعتدها منه، اعتدت أن يكون جافاً وصارماً بل وحتّى كارهاً هذا الكره الواضح طوال الوقت في عينيه، إنما لم أتعوّد أن يخرج ولا يرجع إلاّ وجه الصبح، وأحياناً كانت تفوح من فمه هذه الرائحة، رائحة كرائحة

الخمر، أنا لا أعرف رائحة الخمر ولم أشمّها من قبل، لكن إحساسي يهمس لي أن الرائحة هذه رائحة كحول، فهي تشبه رائحة "السبيرتو" والبنزين، خشيت أن أظلمه، حاولت أن أستفسر لكني خفت، كنت أعرف أنّه من الجائز أن ينهرني ويصيح ويزعق كشأنه معي منذ ضمتنا جدران واحدة:

- و مالك أنتِ؟ إن لم يعجبك الحال فالباب يفوِّت جملاً.

وأقول في سرّي أنا جمل لكن فقط لأنّني أتحمّل كل مهانة من أجل خيط بداخلي يشدني لك، وأخشى أن ينقطع يوماً، أخشى عليك من الفضيحة، ألا يكفى تلميحات كل أهل الدار بأنّني السبب في ابتلائك؟

كثيراً ما ألمح نظرات الاتهام في عيون نسوة الدار، أحاول أن أشاركهنّ الخبيز أو "الطبيخ" فيرفضن، أضطر للجلوس وحيدة أتوسّل منهنّ الرأفة، وقد يمرّ أبوك من أمامي فأنتفض واقفة لكنّه -تخيل- لا يفكّر حتّى أن يرمي عليّ سلام الله، ألهذه الدرجة صرت آفة البيت يا "سبع"؟ ألم تخبرهم عن حقيقة ما بيننا؟ من الواضح أنّك عكست المأساة فأصبحت أنا المُلامة، أليس كذلك؟ ربما لك العذر فأنت الرجل وأنت ابن العمدة وأنت السبع، أما أنا فمن لي في بلدكم؟ وإن جاء لزيارتي أبى أو أمي أو إخوتي فهم لا يعرفون عنّا إلاّ أنّ ما يحدث مجرد نصيب، فقط الخلفة، تأكد أنّني لم أفض إلى أحد منهم عن

أمري، تصوّر أنّهم لا يعرفون أنّني ما زلت عذراء! ولكن الموضوع أصبح سخيفاً، أن أكبت حسرتي ولا أشكو لأحد والنار تتمكّن من أحشائي، فهذا سخيف، لقد قضيت بيديك على جسدي، ورغم ذلك؛ لا أكترث، فهناك أماكن في القلب لا تموت، ومكانك هناك.

لكن، هل هؤلاء هم الطيبون الذين تتحدّث عنهم؟ لا أظن يا "سبع"، إنّكم دائرة لا أقوى على اختراقها، حسبت أنّني قد أصنع لي ركناً فيها، لكنها ببساطة دائرة، وليس فيها أركان، أنانية، لا تسمح لي بدخول مجالها، وكما صنعوك، يحاولون صنع نفساً جديدة لي، تضيع كما ضعت أنت، إنّما، كيف أسمح لهم بفعلها؟

* * *

الغريب أنّ وجه الطبيب يراودني، وجه "ميلاد" هو الذي صار يحتكر رأسي، بل يمرح كثيراً -منذ التقيته- في أحلامي، فكان لابد؛ من فرط إجهادي، ومن شعوري المستمر بالدوار، ومن اختناقي من كلّ شيء في البيت، أن أذهب للوحدة الصحية، إليه، كان الوحيد الذي غزت لمساته عمقاً مخفياً داخل روحي.

تسلّلت بخطوات غير مسموعة، كانت أصواتهم متشابكة وهي تأتي من آخر زوايا الدوّار، لكنني بسرعة اندفعت نحو الشارع وكلّ

أعصابي ترتعد، الوحدة الصحية قريبة، حمدت الله أنّني وجدت لي درباً غير مأهول لكي أصل إلى هناك.

دلفت وكان جالساً، وحيداً، لا أعرف كانت نظراته تحوم أرضاً فلم يرني أول ما دخلت، لكن به شيئاً جعلني أشفق عليه، كانت ملامحه نقية لدرجة أن أبتسم وأنا أتأمّله، وبرغم أنّه لا يبدو وسيماً، إلا أنّ شيئاً ما يخطف العين صوبه، شيئاً في ملامحه، كان مستغرقاً في تفكير ما، فلم ينتبه لي حتّى وأنا أقف أمامه، وكان يتنهد تنهيدات خافتة، ثم لمّا رفع رأسه نحوى أصابه قليل من وجل بعدها ابتسم ابتسامة أضاءت وجهه وقال بترحاب من أصابته دهشة:

– أهلاً، تفضّلي.

أنا حمقاء، أليس كذلك؟ لم يكن لي من سبيل سوى الاحتماء بأيّة فكرة في رأسي عدا الجنون. دخلنا غرفته، سحب كرسياً فجلست دون أن أنبس، فأكمل:

– لعلّك بخير.

كانت عيناه تتساءلان عن سبب زيارتي، أدركت أنّه يشعر بأنّني هنا فقط تسرية من فراغ يلتهم أيامي كلّها، ليس من سبب غير ذلك في الحقيقة، ما الذي يدفعني للخروج بعيداً عن عيون أهل الدوّار؟

هل أصبحت مخبولة لحدّ ارتكاب كارثة! أخذت مع ذلك أتساءل: ما سبب مجيئي حقاً؟

ظلّ ينظر لي نظرة الاستغراب الصريحة، لكنني قلت في هدوء:

– دكتور، لا أعرف ما بالي؟

رمقني لا يفهم، فأضفت:

– أنت الوحيد الذي قد يعرف مثل هذه الأمور.

– ببساطة أنا تحت الطلب في أيّ وقت إن كنت تشكين من شيء!

لم أتمكّن من الردّ، ما أصعب كلامك يا دكتور! تتهّمني صراحة بالحماقة. زفرت زفرة عبّرت قليلاً عمّا يساور أحشائي، بعدها رفعت عينيّ نحوه وقلت بهدوء محاولة إخفاء جرأتي:

– أنا تعيسة، والتعاسة أحياناً تدفعنا لإتيان تصرّفات غير محمودة.

ما هذه التخاريف؟ هكذا، وبلا مقدمات، ليكن، الأمر لا يحتاج إلى تجميل، أنا تعيسة، وهو يعرف، بل كلّ أهل الدوّار يعرفون،

تعاستي واضحة وضوحاً لا يتطلّب أيّ تظاهر، أرضى التي جدبت من الإهمال، روحي التي ينعت من اليأس، أنا تعيسة وأتعس تعيسة على وجه الأرض، وقد لا يشعر بي سواك يا دكتور، في الحقيقة أنت الوحيد الذي أحسّ بمأساتي حتّى دون أن يُشعرني، لكن الأحاسيس لا يلزمها إلاّ نظرة أفهمها تماماً، نظرة منك تعني أنّك بلغت موطن تعاستي، لا تنظر لي هكذا، لست جريئة بقدر ما أنا ضعيفة، لا تنظر لي هكذا ودعنا نغرق في لحظة الصمت هذه، دع الوجوه تتأمّل الوجوه، دعني أجد من أحتمي به من ضعفي، تصرّفي بجرأة لا يعني أنّني لست خجلة، فالخجل يغمرني من رأسي لقدمي، إنّما تكفى الراحة التي أشعر بها الآن هنا، تكفي كثيراً.

تفحصني بعينيه القلقتين وقال:

– تبدين مجهدة!

– لا شيء، قيء منذ الصباح ودوخة ومغص شديد.

بدت على وجهه هذه الابتسامة المصطنعة الفاضحة، ابتسامة شعرت فيها بشيء من سخرية وهو يقول:

– هذه بوادر حمل إذن.

رميته بنظرة تحمل الأسف، لماذا تخدعني ولماذا أخدعك؟ ألا تعرف أنّ الحمل لا يأتي إلاّ بعد أشياء حرمني القدر منها؟ لا تدّعي السذاجة، أنت طبيب وليس أعلم منك بهذه الأمور.

بدا عليه الحرج، قال:

– على العموم تحتاجين لكشف دقيق.

ثم استعدّ للنهوض.

– انتظر.

استوقفته بيدي، فارتبك، لكنه قرّر الجلوس بجواري مرّة أخرى، كأنّما يتأهب لحديث طويل، كأنّما سيعرف الآن عن معاناتي، كلّ معاناتي. نظرت له طويلاً، لماذا يبدو بهذه الشفافية؟ لماذا تبدو عليه هذه الثقة الشديدة في أنّني لن أصمت وسأحكي؟ سأحكي كلّ شيء، لم آت هنا لتكشف على جسدي، بل لأكشف لك عن أعماقي. أدرت وجهي بعيداً وزفرت، وخرجت آهة خافتة، لا أدري لمّ خرجت؟ ومتى حضرت؟ وربما فطن لها قبل أن تخرج وكان في انتظارها، صوته الهادئ يقول بتوتر:

– لنشرب شيئاً أولاً؟

خرجت منّي ضحكة عالية رغماً عنّي، يا دكتور لم أجازف بالمجيء إلى هنا لكي أشرب، لقد شربت كفايتي طيلة الأشهر الفائتة، لتصمت، هل عندك مانع في أن تصمت وتتركني أُفرغ في نظرتي لك المتأمّلة حسرة كلّ ما راح من زمن عشته بين أسوّار بيت العمدة وأسوار الوجع والكبت وحيدة بائسة لا تحتمل المزيد.

– هل يعرف "السبع" أنّك هنا؟

كان صوته متهدّجاً يحمل رعشة الجواب، أنت تعرف يا دكتور أنّه لا يعلم عن زيارتي هذه شيئاً، فلا تدّعي الغباء.

الشمس تنعكس على جبهته اللامعة فتضرب في عيني، الآن دبيب يمشي في أوصالي، وخز من ألم وقهر وجوع، إلى أيّ مدى أستحق هذا الحرمان؟ لا تنظر لي هكذا تختبر قدرتي على المقاومة، لست هنا كي أقاوم بل أتيت من تلقاء نفسي لألقي لك بكل ما أحمل من هوان وعذاب، أتيت ولا تطالبني بتفسير، في الواقع لم أكن أنوي، ولكنك الوحيد الذي رأيتني ضعيفة، الوحيد الذي لجأت له لأنفّس عن كربي، غير أنّ هذا الأمر لم أتحدّث فيه مع أحد، لذلك تجدني محرجة يطغى عليّ خجل عظيم، خجل يمنعني من الكلام، حتّى حين أقف أمام المرآة، نفس الخجل المرير، فهل يمكن أن أخفّف عن نفسي بالحديث مع غريب مثلك؟ هل يمكن أن أصطدم مع كبريائي

وتكون أنت؟ هذا الفخ الذي وقعت فيه فخ إرادي، اخترته لنفسي، ربما لما اعتراني من هوّس ضرب في كلّ أنحاء رأسي، لوثة غريبة أصلها معروف، ولكن؛ كيف يمكنني البوح دون أن أعرّي هذا الجزء المظلم في نفسي؟ والذي لم يتعرّ حتى لأقرب الأهل، رغم أنّ كثيرين يعرفون أدق التفاصيل، أشعر بهم، يعرفون وأنا الوحيدة التي سلكت طريقاً معتمة لا نهاية لها سوى ضياع مؤكد.

دنا من وجهي، نكّست رأسي، ورحت أرتعد، لكنه قال فجأة:

– لماذا ترتجفين؟

رفعت له عينيّ في تساؤل، وكان جسدي كله ينتفض بلا هوادة، كدت أقول الحرمان، غير أنّه بادرني:

– أنا طبيبك، ولابد أن أعرف كلّ شيء عمّا يسري في جسدك.

تأمّلته طويلاً ثم انخرطت في بكاء شديد، فلم يكتم انفعالاته ولم أفعل، كلّ ما هنالك أنّنا أحسسنا باحتياج ما فانفلتنا، أراح كفّه على يدي، فحكيت له كلّ شيء، منذ دخولي بيت العمدة وحتّى الآن، كان عجيباً أن تتلاقى مصائرنا فلا نخجل ولا نخاف، كانت السماء بعيدة، والبيوت حولنا بعيدة، والأرض رخوة، وكلّ ما حولنا يتضاءل ويصبح جزءاً من العدم، لا أعرف ما اجتاحني نحوه؟ كانت الخيوط

كلّها تترابط ما بيننا فأجد أنّه يعرف عن كلّ ما يدور بخلدي، فاطمأننت، وتركت نفسي لصراحة غير عادية، ثم لمّا بدأ يقترب منّي أكثر، ويطبع بشكل مباغت –وفيه وقاحة مستحبّة– قبلة ساخنة على فمي، لا أعرف كيف وجدت شفتيه أو كيف وجد شفتيّ؟ أليس مدهشاً، كانت القبلة شهية وسريعة، صعدت بي لأعلى، وجعلتني أنسى كينونتي، أنسى الزمان والمكان، وأنظر إلينا من بقعة في الأفق، فأجدنا اثنين في حاجة ماسّة لملء فراغهما، وأجدني أصحو فجأة، وألملم مشاعري، وبدون حتّى أن ألتفت إليه، أهرول خارجة، بلغط شديد يتّابع في أعماقي، والفرحة تتقدّمني.

السبع

قلت لنفسي: لأذهب هذه المرة، لأذهب وألهو وأروّح عن نفسي.. إنّ لبدنك عليك حقّاً، وتكفيني مرّة.

إنّما المرّة.. تليها مرّة أخرى، والسهرة تأتى بعدها سهرة، والنشوة المحرّمة ألذّ من قدرتي على الاكتفاء.

ذهبت أول مرّة في عيد ميلاد "يسري"، أحد الأصدقاء من البندر، كان زميلي في الجامعة، قضيت الليلة حتّى الصباح في الحانة، شربت وثملت وعربدت.

كان عالماً جديداً، والعالم الجديد هذا أضواؤه مبهرة، دلفت أقدّم ساقاً وأرجّع أخرى، كانت حالة من الهلع والعفوية تستولي عليّ، يُضاف لها الأزمة التي أمر بها وتفعم كياني باكتئاب لا مثيل له.
جلست مع شلّة الأصحاب، وشيئاً فشيئاً لاءمت روحي المكان حين بدأ عقلي يغيب، وإذا ما غاب العقل، اندثرت الهيبة، وتلاشى الحياء. قفزت أرقص، ساعتها كانت الخمر قد اشتغلت في رأسي فلم أدرك كيف قفزت ولماذا قفزت؟

ما تذكّرته بعدها أنّني رقصت بجنون، رميت النقطة على الراقصة بجنون، وضحكت بجنون، "يسري" كان يعرف أنّ الطفل إذا أمسك لعبة فلن يفلتها حتّى يملّها، وأنا لن أملّ اللعبة بسهولة، قال لي: أنت بكر "جلنف"، ستتجاوز معك اللعبة حدود اللهو، وأنا يا صديقي لا آت هنا إلاّ لألهو.

كانوا شلّة، والشلّة دائماً ينقص عددها، وينقطع أحدها، إلى أن انحسرت عليّ أنا و"يسري".

و"يسري" صديقي الذي لا يرتاد تلك الأماكن سوى ليلهو –كما يدّعي– سافر في شغل، فذهبت وحدي، مرّة بعد مرّة بعد مرّة، والشغف يتحوّل بمرور الوقت إلى عادة؛ عادة تتمكّن منّي فتصبح كيفاً، الكيف يصبح داءً، والداء –يا لغفلتي– بعد كلّ سهرة من سهراتي اللذيذة ينتشر، وينتشر، حتّى استسلمت بشكل كامل

لرغباتي وصار لي اسم معروف في هذا المكان: العمدة. و"ترابيزة" لا يجلس عليها غيري.

ضقت بالبيت، وبالحياة الجافة داخل غرفتي، أحسست أنّني هنا إنسان آخر، مجرّد إنسان، لا يفتقد شيئاً ولا تهفو نفسه لشيء، وفي ليلة كانت "قمر"، "قمر" وهى قمر، تشبه حكايات أبي عن "فرسة" جدي "توفيق"، الراقصة الجديدة "قمر" تسحرني وربما كذلك تحيي بداخلي "السبع" القديم، فينكمش قلبي، وأروح مع تمايل جسدها وأجيء، وتسكرني تأوهاتها أثناء تمايلها بجذل أكثر ممّا تسكرني الخمر، فأخلع جاكت البذلة؛ التي أرتديها خصّيصاً لسهراتي، وأنزل فوق "البست" معها أرقص، غير أنّها –هذه الراقصة بالذات– كنت أرقص معها بمزاج شديد، وأضمها إليّ، وأملأ أنفي برائحة جسدها المفرطة العذوبة، أشحذ حواسي بفتنتها الطاغية، وأرقص، كنت مسطولاً أخرق يراه الآخرون، ويرى نفسه ذا حظ عظيم، "قمر" الفاتنة حين تهمس في أذني بدلال، لا أملك إلاّ أن أبادلها الهمس، تسبح في فضاء الحانة المعبّق بالدخان والضحكات أوراق "بنكنوتي" التي لا يبدو لأصحاب المكان أنّها تنفذ، فأعامل معاملة الأفاضل الأثرياء ذوى الحظوة الاستثنائية، بل يصرّون هذا الإصرار الشديد على أن أشعر بهذا الإحساس فيمدحونني ويهلّلون باسمي من خلال "المايك":

– العمدة.. العمدة.

وأجلس. ليلتها لم أكن لأعرف هل "قمر" هي التي رمت شباكها أم رميت شباكي؟ وما هو إلاّ وقت طال أو قصر حتّى يطب الصيد في الصنارة، والصيد –آه لو تعرف– طب مذ رآها أول مرّة.

* *

*

في ليلة تالية، ربما بعد عشرات الليالي التي خلبت فيها "قمر" خيالي وسكنت تأمّلاتي، كانت اللمبات الخضراء والزرقاء والحمراء الملتصقة بسطح "البست" المربع ترج عقلي بأنوارها النابضة، تخبو وتتوهج، فيدق قلبي دقّات عالية أكاد أسمعها وسط هذا الصخب والضجيج، وأتأفّف، وأنظر لساعتي وأنتظر أن تنهي الراقصة هذه؛ التي لا ترقص بقدر ما تهيِّج الرجال الجالسين، فقرتها، وتبدأ فقرة "قمر"، فأطلب زجاجة "بيرة" أخرى "ساقعة" وأصب كوباً، أجرعه، وأصب آخر، وأجرعه.

ناديت على النادل:

– يا متر.

الولد يهرول ناحيتي بأدب يفرضه جو مهنته، أشير بيدي:

- زجاجة "ريد ليبل".

- أوامرك يا عمدة، لكن حضرتك...

- مالي!

- أول مرّة تطلب "ويسكي"!

- و ما دخلك أنت يا حمار!

- آسف يا عمدة، حالاً ستكون عند سيادتك.

ماذا يحدث لي؟ هل أحببتها بهذه السرعة؟ منذ أيام قليلة رأيتها، ومنذ أيام وأنا سارح في فكرة أن الحبّ قد يأتي قدراً، بدون أن يتهيّأ له المرء، أم أنّ هذا مجرد إحساس عابر لن يطول؟ غير أنّ "قمر" تحيي بي مشاعر ماتت، ربما لم أعرفها من قبل، يقع عليها بصري "فأتبنّج" وأود لو أريحها على صدري وأحتويها وأحلق بها بعيداً عن كلّ شيء، هي راقصة وأنا.. ربما في النهاية لست أكثر من سكير، وربما.. لا ذنب لها في كونها راقصة، وحده الله يعلم ما خفي من أمور الخلق، ورقصها لا يمنحها صفة العهر، كم من عاهرة لا ترقص! وكم من راقصة أشرف من كلّ النساء!

طلعت إلى فوق؛ "الريسبشن"، لا أعرف كيف بدا لي أنّني أكاد أختنق! كنت مشتّتاً، لم أستغرق في الأعلى غير دقائق، فدلفت إلى أسفل مرَّة أخرى وكانت الراقصة قد تغيَّرت، أين "قمر"؟ لم أجلس، لوّحت بيدي للنادل فجاء:

– أين "قمر"؟

كانت لهفتي واضحة.

– "قمر" سعادتك الليلة في "نايت" آخر.

أصابني وجوم، وقفت قليلاً أنظر إلى النادل بأعين شاردة، ثم تمتمت:

– هات "الشيك".

ابتعد النادل وظللت واقفاً في انتظاره، صكَّ أذنيّ همهمة من منضدة بجواري وضحكات، التفتُّ وكان "صلاح العربجي" جالساً وسط شلّة من "العربجية" وكانوا جميعاً يرمقونني بنوع من استخفاف وتحفّز، استغربت وقلت في نفسي:

– كلّنا سكارى.

"صلاح" بصوت عال هتف:

– "السنيورا" "مأجزة" من المكان الليلة يا عمدة.

عقدت حاجبيّ والتفتُّ إلى "العربجي" قائلاً:

– تقصدني أنا؟

– لا، أقصد أمّي.

ثم قهقه وأكمل:

– أكيد أنت.

– كيف تتحدّث هكذا؟ هل تعرف إلى من تتحدّث؟

– ومن لا يعرف المغرم صبابة؟ لكن يكون في علمك، "قمر" لن تنظر إلى نطع مثلك.

– احترم نفسك.

- أنا احترم نفسي يا روح أمّك؟!

وهبَّ واقفاً، في غمرة دهشتي لم أتوَّقع هذا الاحتكاك، والذي ربما مخطط له، لكني لم أدرك أنّ رجالاً غيري قد يطمعون في امرأة لا يخفى ولعي بها، لاسيما لي فرصة في استمالتها تفوق فرصهم جميعاً، معي الفلوس والهيبة والقيمة، ولا يملكون سوى حقدهم عليّ وغلّهم، هذا الغل الذي جعل "صلاح" يبدو كالعجل وهو ينتفض ويهجم عليّ، ويطوي "الكارفت" في يده ويشدني إليه ثم يدفعني دفعة ممتلئة بعزم السكارى إلى نهاية "البست" فأسقط على الأرض تحت قدمي الراقصة التي تغطّي عينيها بكفّيها وتصرخ، ثم تعدو وتختفي من باب الخروج الخلفي المخصّص لهنّ، فأقف وأجوس بعينيّ المكان ويبدو على وجهي هذا التعجّب الممزوج بالحنق وأندفع نحو "صلاح" وأضربه بسن الحذاء في "محاشمه" فيتقلّص متأوّهاً، غير أنّه؛ وفورة دمه تنضح على ملامحه، بسرعة، تغلّب على ألمه والتقط زجاجة "بيرة" هشمَّها، فانسكب السائل على المفرش، وامتلأ بالفقاعات ورفع الزجاجة التي لمعت تحت ضوء فسفوري ينزل إليها من بطن السقف وسقط بها على رأسي، لم أشعر بشيء لكني ارتعدت والدماء تجرى منحدرة قادمة من رأسي نحو عنقي ثم تنتشر على صدري فتصبغ قميصي الأبيض بلونها الغامق.

(كم تختمر رأسي بسكون المكان، ورومانسية الجو المختلقة، وب"قمر"، حين يقترب وجهانا، وأنفاسها تسخن وتسخن وتسرع،

ورائحة انفعال تحوم حولنا، تشدني بعينيها، وتشد صبري، تضطرم دقات قلبي، وأجد نفسي لا إرادياً، لا إرادياً بالمرّة، قد أصبحت في مواجهة عينيها مباشرة، أحط على شفتيها بقبلة قصيرة ناعمة متوجسة).

يلتفّ حولي الجميع، وينتفضون من مجرّد فكرة أنّ العمدة صاحب النفوذ والجاه قد شُقّت رأسه هنا، أتفحّصهم وابتسامة سكيرة تركن فوق شفتيّ، لا أشعر بشيء، "قمر" فقط هي التي تسكن بالي الآن وتحوم أمام بصري. ما بيني وبين نفسي، لا أنفى كوني بطريقة أو بأخرى قد انحدرت، نعم، ماذا فعلت في هيبة العمدة يا عمدة؟ أنت طريح المهانة الآن ولا ترى سوى "قمر"، "قمر" التي أنستك العالم وصرت معها غريباً عن "السبع" ذاته، ولكن؛ في النهاية أنا لست رجلاً، هذه هي الحقيقة فلماذا لا أصرّح بها لنفسي؟ هي الحقيقة التي مهما حاولت التغافل عنها غير أنّها تقطن فيّ، من قال يوماً أنّني رجل؟ ألا يكفي أن فضيحتي ربما تتناقلها ألسن كلّ ناس البلد؟ ومهما كان من مبرّرات ومن أعذار فالناس أذكياء، يعرفون دون حاجة إلى تبرير، يعرفون أنّ "السبع" انتهى، والعمدة انتهى، والهيبة بينهم تلاشت.

نظرت إلى "صلاح" باعتذار، لك الحق فيما تفعل، أنت أولى منّي بامرأة مثل "قمر"، نعم.. أنت رجل، وكلّكم عداي رجال، لن أقدّم

أو أؤخّر معها، أحبّها، وبعد، ثم ماذا؟ هل سأفلح فيما فشلت فيه كثيراً وكثيراً؟ يا للعبث!

لا أعرف كيف عدت إلى البلد؟ كان الضباب يرافقني في كلّ خطوة، "زُهرة" لم تعِ ما حدث؟ قلت لها مشاجرة عادية أسفرت عن الجرح في دماغي، إنّما لم تصدقّني، كانت تحملق لي بريبة طوال الليل، لعلّي أشعر بها، حتّى وأنا أتصنّع النوم، كنت أفتح نصف عيني وأراها وهى جالسة جواري ترمقني باستغراب واستنكار، وما الجديد يا "زُهرة"؟ ما الفارق –تحت كلّ الظروف– إذا ما عرفتِ أنّني وقعت في عشق امرأة غيرك؟

بسطاوي

في حلقة من لا شيء يدور، يشعر أنّه دوماً لابد ينتهي إلى القرية، نقطة بدايته، ونقطة نهاية مناسبة يهدأ فيها من كلّ ترف –أو غضب– يعيشه في أيّ مكان آخر، بدأ يرى الخطر المعشّش في النفوس حوله، لم يعد البشر ينظرون له كما تعوّد أن يفعلوا، ثمّة خطر أكيد تسلّل إلى الناس، ليتهم يرونه كما يراه الآن جليّاً في أعينهم، لم يكن يفهم ماهية الخطر، يشعر –فيما يبدو– أنّه حالة مشابهة للتيه الذي يعيشه كلّ العمر، حالة غامضة تماماً ككلّ سلوك تسوقه له رأسه، هل بات الجميع يعيشون في الخطر الذي يعيش هو نفسه فيه منذ ولد؟ كان يمكنه أن يعرف الكثير عن الناس إذا نظر لهم من

الخارج، الآن صار الخارج كالجوهر، غامض ومغلق عليه، فتشابهوا معه جميعاً، إمّا صار عاقلاً كالعقلاء الذين يدّعي الآخرون أنّه ليس منهم، وإمّا صاروا هم أنفسهم تائهين مثله، الدنيا الآن لا تطمئن نفسه لها، العالم مليء بالغيم، الوجوه كثيرة، والهمهمات والأصوات والتشتّت، لابد إذن من الكسل والجمود، لابد من الزهد في الناس وفي الحياة نفسها، العمدة غريب، "السبع" غريب،"دميانة" و"لوقا"، بات الكلّ غرباء، لم يعد أحد يحبّه كما عهد، حتّى في المدينة، في المكان الوحيد الذي يروق له الجلوس عليه فيها، مقهى "مرغني"، أصبح وحيداً هناك، كان يمضي للمدينة آخر النهار وقتما يحلو له، يجلس وسط من اطمأنت لهم روحه، يشبك راحتيه حول ركبتيه ويستمع لهم، يشاركهم شرب الشيشة وشرب عصير الليمون والشاي والقهوة، يستسلم لسكوت تام وينصت لأحاديثهم عن العالم الذي لا اتّصال لعقله به، وقد تعثر عيناه على حسناوات يندفعن في سبيلهنّ من أمامه فيستوقف حديث الجميع ليجبرهم على التطلّع في حسنهنّ كما يفعل، ثم يضحك الجميع ويمازحونه، تفيض نفسه بالسرور، لا يخالف أمر واحد فيهم إذا أرسله لرصّ حجر معسل أو جلب كوب من شاي، بل يهرول لتلبية ما يؤمره به أحبّاؤه، هناك، في هذا المقهى، لم يكن يكترث كثيراً لتمضية ليلة بين سيقان الكراسي أو على البلاط حتّى، كان الجميع تطلّ من وجوههم ابتسامة لم تكن تفارق شفاههم، إنّما في الأمس –في الأمس فقط– تبيّن له كم هو غبي وحمار ولا يفهم الناس جيّداً، حالما أسقط –عفواً– كوب شاي

ساخن على ملابس واحد من أحبّائه، في بلادة ابتسم وانحنى يلتقط الزجاج المهشّم، لكن الرجل زجره صائحاً:

– أهبل صحيح.

ثم ومن دون مقدمات صفعه على قفاه، نظر له بعتاب ولكن صاحبه أكمل سبابه والشتيمة محذّراً صبي المقهى من وجود هذا الحيوان بينهم ثانية، مضى يستسمحه، غير أنّ الرجل ركله بقدمه في عنف فسقط في قلب الطريق كالبائس العاجز، لم يزد عنه واحد ممّن يجالسهم، صاحب المقهى نفسه أمسكه من ياقة جلبابه وصاح فيه:

– لا أرى وجهك هنا ثانية.. فاهم!

يرونه مجرّد كلب يخالطهم والسلام، يمنّون عليه بالعطايا التي لا يحتاج لها والتي يقبلها منهم محبّة، تبّاً لملابسهم التي يرتديها مجاملة، تبّاً لهم جميعاً.

آذنت شمس هذا النهار بالمغيب، وماء المجرى في بطء يرحل، عاد يتساءل: أيّ خطر في النفوس؟ مضى يمزّق الأسمال الثقيلة التي تكتّف روحه، وبدلاً من الأسى أخذ يذكر كلّ أحبابه الذين تعمر بهم هذه القرية، وراحت يداه في عشوائية تنزع الملابس من على جسمه قطعة قطعة، بعشوائية ومن دون تمهّل أو تروّ، كان الماء الآسن

يناديه، تخلّص من الملابس، بدا عارياً من كلّ شيء، حتّى العقل، فانتابته ضحكاته العابثة، راح يقهقه، واندفع يرمح وأسقط جسده في عباب المجرى، وقف في منتصف المياه، ورفع عينيه للسماء، قال يناجي الله تعال اسبح معي هنا قليلاً وروّح عن نفسك، لابد أنّك متعب من هموم البشر. غطّس رأسه في المياه وبقى لبعض الوقت، ومضى يلهو، يغطّس رأسه ويخرج بالماء فينفضه في انتشاء عن شعره الطويل، تفاصيل القرية تثرثر من حوله فلا يأبه، يتركها لتتركه يعبث حسبما يتّفق، ولكن حجراً صغيراً وقع على جبهته فسال الدم، التفت، كان أحد الصبيان المداعبين، جزّ على أسنانه، همّ بالطلوع، إنّما نشوة الماء أقوى من الانتقام وأقوى حتّى من الإحساس بالدم الجاري من جبهته نحو المجرى، مجرّد أن يغطس برأسه ثانية مجرّد أن ينقطع نزيف الدم. ظلّ الولد واقفاً يضحك، صاح له وهو يشير نحوه بسبابته:

– "يا إن الناكة".

الأب لوقا

"يا الله، يا دائم المحبة والرحمة والغفران، سنحضر إليك، عبادك نحن المدعوون للخروج من هذا العالم، فأخرجنا بسلام، وجنّبنا شرور المعصية، نتضرّع إليك أن تحملنا الملائكة إلى الجنّة، وأن نسلم من آلام الجحيم، وأورثنا حياة أبدية من خلال المسيح، آمين."

تروح سخونة عقلي وتجيء، ألجأ للمسيح كي يخفّف عنّي الألم، يا ربّ لن أحيد عنك، أخشى التراب، اعتزلت الدنيا كيما أكون راعياً وراءك، ملجئي أنت في يوم الشرّ، خطيئتي عقلي، فجرّدني من بلاء التفكير.

اليوم أول أيام شهر رمضان، تعوّدنا ألا نأكل أو نشرب في حضرة مسلم، كنّا نمارس يومنا سرّاً، خشية أن نصيبه بالضيق، كما تعوّدت أن أفطر مع "حمزة" هذا اليوم، لابد إذن من الذهاب إليه، أقله كي لا تنقطع عادة لي، قلت في نفسي:

"احتملوا بعضكم بعضاً وليسامح بعضكم بعضاً،
إذا كانت لأحد شكوى من الآخر.
فكما سامحكم الرب، سامحوا أنتم أيضا ." (14)

كان لون السماء قرمزياً، تتدلّى من منتصفها خيوط من لون برتقالي تنتهي عند قرص شمس لا يفصل بينه وبين حزام البيوت والجبال البعيدة التي تتناثر في غرب البلد وراء لسان النيل غير دقائق. ركبت بغلي، وسرت به بين "القباوي".

البغل على راحته "يتمخطر" وحدود الأرض تأكل دائرة الشمس بسرعة، والناس الجالسون أمام أبواب بيوتهم في انتظار صوت الشيخ

"عوض الله" يرمونني بنظرات مستغربة، حتّى الأطفال الواقفون وفي أياديهم أسياخ تنتهي في حوافها رءوس مدافع حديدية، يستديرون نحوي وفي عيونهم تساؤل، هل تمّت المصالحة بينك وبين العالم الخارجي؟ لكنهم يجيبون تحيّتي بابتسامة ودود، وينصرفون إلى لهوهم بغير مبالاة. كانت الأنوار والزينات تتوّج المنازل الطينية، وكانت الفوانيس المعلّقة تذكرني بعيد "الغطاس" والذي نحتفل خلاله بيوم نصنع فيه الفوانيس والشموع الضخمة ونطلق على هذا اليوم "عيد الأنوار".

يا لها من حياة حياة قريتنا! حياة لا أظنّها مليئة بالصخب والضجيج، حياة هادئة، بسيطة، غير أنّها كذلك ممتعة، في كلّ الأحوال يرضى بها الناس هنا، لا تكليف فيها ولا زيف. أذكر يوم زارني أحد قساوسة كنيسة العذراء في المدينة، وقال لي:

– عجباً! كيف تعيشون مثل هذه الحياة الضجرة؟

قلت له:

– وكيف تعيش أنت في المدينة المزيفة؟ بمّ تشعر حين تخرج من الكنيسة إن أحببت التسكّع في شوارعها ومقابلة الخلق؟ هل تحب الناس هناك؟ هل يحبّونك؟

– دعني أسألك أنت؛ هل يحبك الناس هنا؟

وابتسمت دون أن أجيبه؛ هذا لا يعلم أنّنا كلّنا نحب بعض، قطعاً نفعل، وإلاّ كيف نشارك بعضنا البعض أحزاننا، وأفراحنا، مصائبنا، وويلاتنا. في الأعياد نوزّع الكعك على البيوت، ويوزّعون علينا في أعيادهم البسكويت والخبز. نساؤهم يصبغن وجوههنّ "بالنيلة" في جنائزنا ويهلن على شعورهنّ التراب، يضربن أفخاذهن مع حريمنا ويلطمن خدودهن تعبيراً عن توّحد الحزن. حين سألني كيف نستمتع بالحياة هنا؟ أجبته أنّ الحياة هنا جميلة، يكفي أنّ الكنيسة تفتح بابها على الدوام، دون تخوّف أو احتياط، نستمتع حقاً، لكنني سألته ما هي المتعة من وجهة نظرك؟

دوّار "حمزة" يقترب، وحشرجة الميكروفون من الجامع تعلن دنو الآذان، وأنّ الشيخ "عوض الله" يتأهّب، وحين ترجّلت، ووقفت أمام باب الدوّار الضخم، وكان سرادق في الداخل مفروداً؛ مائدة الرحمن التي يقيمها "حمزة" كلّ عام والتي يأتي ليعمرها أنفار الحقول وعمّال القرى المجاورة، كان هو واقفاً بين القاعدين يرص أكواب الليمون على المائدة ويضع أطباق السلطة وينظمها، ولمّا استدار، وشاهدني على بابه، تسمّر قليلاً، كأنّه لا يصدق، ثم ابتسم ابتسامة واسعة، وأقبل نحوي وبعض الأطباق في يديه، وكاد أن يرتمي في حضني لكن أعاقته الأطباق، فركنها وعاد ليلقي بجسده على صدري، وهو يصيح:

– يا هلا، يا هلا، اليوم زارنا النبي.

– لم تفعلها أنت.

نظر لي معاتباً وقال:

– إنجيلك يقول " ليكن بعضكم لبعض ملاطفاً رحيماً غافراً كما غفر الله لكم في المسيح"(15) أليس كذلك؟ لماذا لم تبدأ بها أنت؟

– اغفر لي.

– لا وقت لهذا، هيا تفضّل واجلس معي على المائدة، نفطر ثم نتكلم براحتنا.

جلست، وكان البعض يتأمّلني بدهشة، والبعض يفعل بغبطة، داعبت ذقني وأنا أتطلّع في "حمزة" الذي أخذ يكمل فَرش المائدة بالأطعمة والمأكولات، ولم تمض ثوان، حتى جاء فجلس جانبي، ملت عليه:

– أوحشتني كثيراً، وأوحشني "السبع".

استدار بوجهه بعيداً ولم يعلّق، بدا منهمكاً في إحضار ما ينقص المائدة من طعام، ثم جلجل صوت الشيخ "عوض الله" فعلا هسيس الأفواه الماضغة للطعام، بعد البسملة والدعاء.

رفعت تمرة إلى فمي، قرأت "جبنيوت" وظللت أفعل لبعض الوقت، وكان القليلون قد أنهوا إفطارهم، فقاموا للوضوء لصلاة المغرب. هممت بدس التمرة بين أسناني، لولا أن فزعت، عندما ارتفع عويل نساء من ناحية "القباوي"، فزع الكلّ، ونهضوا يستفسرون، تزاحمنا على بوابة الدوّار، فاخترقت الصفوف وانسللت من بينها، تبعني "حمزة" مذعوراً، وكان أحد الرجال يعدو من ناحية قبلي البلد مهرولاً، كان يزعق، ولم نكن نفسّر ما يقول، إلاّ عندما اقترب منّا قليلاً، واستطرد وهو ينظر نحوي، وكان يلهث:

– الست أم "ميلاد" تعيش أنت يا "أبونا".

الشيخ عوض الله

ما أغرب أن تطلبني الست "دميانة" في بيتها!

كانت تحتضر، وجاء لي أحد الأولاد مهرولاً إلى الجامع:

– الست "دميانة" يا عم الشيخ "تعبانة" قوي.. وتريد رؤيتك.

رميت على عجل القفطان فوق جسدي وهرعت معه، كانت الثلاث بلحات في قبضة يدي، وكوب الماء تركته دون أن أبتلع منه ولو رشفة، ليؤم الناس في الجامع أيّ رجل، إنما لابد وأن ألبّي ما تطلبه الست "دميانة"، قد تكون آخر لحظاتها، لكن أليس غريباً أن تعوزني أنا بالذات؟!

"القباوي" القريبة بعيدة الآن، حقّاً بعيدة، والسماء بحمرتها الواهنة تحلّق على رأسي، الدروب متشابهة، والبيوت متشابهة، وأسئلة حيرى في رأسي متشابهة، ومنظرها وهي تطلب منّي المصحف يلازم بالي، قلت لها وقتئذ باستغراب:

- وما السبب؟

- المعرفة يا شيخ "عوض الله".

- شكلك ستفعلينها......

ابتسمت بعتاب، فضحكت من قلبي، وأخرجت المصحف الصغير من "سيّالة" الجلباب وأعطيته لها:

- حافظي عليه.

همهمت:

- عساه يفعل هو.

فاندهشت كثيراً، ورمقتها وانصرفت لا أعي من همهمتها شيئاً، هززت كتفيّ، وابتعدت.

كانت المسافة بين بيتها والجامع قريبة، استغرقت منّي دقيقتين أو ثلاث، أمّا الآن، فالمسافة ابتعدت، وكأنّ الدقائق لا تود التزحزح.

الحريم أمام بيتها وفي الداخل يصنعن غمامة سوداء، لا تعجّلن التنبؤ، هذه الأشياء قدرية، ليست مضمونة، وفي أيّة لحظة قد تخرج من بينكن فاتحة ذراعيها للحياة مرّة أخرى.

موج الأثواب الأسود ينفرج أمام طريقي، تأتيني من ناحية غرفتها رائحة المرض، يدفع لي "ميلاد" الباب بتوجّس لكنها تلتفت ونظراتها شبه متقلقلة وترفع يدها وتتمتم ببطء:

- الشـ.. يخ.. لو.. حده.

ينتابني حرج، لاسيما مع نظرة "ميلاد" التي رشقني بها يستعلم عن السرّ، سرّ لا أعرف عنه، أنا مثلك يا "ميلاد" أتخبّط في حيرة، فاتركنا وابتعد عنّي بهذه النظرة.

جلست جوارها، فقبضت على يدي، وناولتني المصحف وهي تتنفّس بمهل:

– أمانتك.

هل استدعيتني فقط لكي أسترد مصحفي؟

سعلت، ثم ابتسمت ابتسامة شاحبة ورفعت عينيها نحو السقف، وسألتني:

– ما.. هو.. الصواب؟

سكت قليلاً في محاولة لإدراك مغزى السؤال، فلم أجد، وبادلتها السؤال:

– أيّ صواب يا أم "ميلاد"؟

بدرت ضحكة خافتة، وعيناها لم تزل متأرجحة في الأعلى، واستطردت:

– إن لم.. تكن أنت.. فـ.. من.. يعرفه؟

وتنهّدت. كانت العيون خارج الغرفة تتطلّع مستفسرة، من خلال فرج الباب الموارب، و"ميلاد" مرخي أذنيه جاهداً لقنص كلمة ممّا نقول، غير أنّ صوتها كان واهناً، وصوتي أضعفته الحيرة.

– أيـ..ن الحقيـ.. قة؟

– هه؟

– هذا... الكلام....

ثم تشبّثت بيدي التي تضم المصحف، قبضت عليه بشدة، أشارت نحوه بعينيها واستدارت بوهن تجاهي، ركّزت بعينيها في أعماق عيني حتّى كدت أرتجف، وهمهمت وهي تبتسم:

– ما أعجبه! ما أجمله!

وجعلت "تفرفط" قليلاً، غير أنيّ كنت مذهولاً، فمي فاغر، ولا أنتبه لانتفاضتها بين يديّ. عيناها غادرتا ثانية، وراحتا تتطوّحان يمنة ويسرة، وشفتاها تتمتمان بحروف انتصب لها شعر رأسي، تتمتم: أشهد.. أنّ.. لا..

كانت عيناها تبرقان بريقاً صافياً، وابتسامة تتكوّن على شفتيها، تمتماتها الخافتة بدأت تهدأ، وكان الضباب الذي يسيطر على مخي قد صمّ أذنيّ عن التواصل مع ما تقول، وكان "ميلاد" قد اقتحم الغرفة صارخاً، وهزّ جسدي، ودفعني جانباً، وهو يندفع نحو جسد أمه، التي سكنت تماماً، وشفتاها تحملان ابتسامة غامضة.

السبع

دعوت "قمر" لاحتساء كوب من شاي بعيداً عن جو الملهى ورواده، وفي وضح النهار.

أفصحت لها عمّا يعتمل بداخلي، فاجأتني بقولها: لمّ لا أحبك! لكن؛ بشرع الله تلمسني.

كيف تطوّرت العلاقة بهذه السرعة والحيوية؟ هل أحببتها؟ أو ربما اشتهيتها، لذروة أعصابي، كاشتهاء الجائع لقضم رغيف خبز تخرج رائحته من الفرن حامية تستولي على غريزته، صوتها؛ ضحكتها،

وجهها، كلّ هذا يجدّد بداخلي المشاعر القديمة التي وددت لو أمارسها، يحرّك نحوها فيّ رغبة بليغة تجعلني أزفر زفرة معينة ساخنة وتكسو جبهتي إفرازات عرقية وأشتعل، حتماً أشتعل، وأتمنى بشدة لو أنّها فقط سقطت بين أحضاني، كلّما جمعنا مكان واحد.

أنا الذي صارحتها بمشاعرِي، لم أكن مغفّلاً بقدر ما كنت ممسوساً بسحرها، لم تبد ثمّة كدر أو امتناع، لكنها هربت بعينيها بعيداً واستبدّ بها هذا الشرود، مكثت تفكّر كثيراً، بعدها؛ بكلّ غنج ودلال وأسف قالت: بالحلال.

والحلال أمره هين، ما أسهل أن أعقد عليها عند محام صديق يكتم سرّي! أتزوجها عرفياً ولا من شاف ولا من دري.

الزواج العرفي ورقة يختمها محام، وهكذا يتم الزواج بكلّ أركانه، شهود، وصداق، ومهر.

الأمر أُعدّ له بسرعة، الورقة طبعت، والشهود مفبركون، والإمضاء مجرّد جرّة سن القلم، وهي، جالسة أمامي تحتويني بعينيها، ربما كي لا تترك لي وقتاً للتردّد، أيّ تردّد بالله عليك! إنّه الرغد الآتي، تنظر لي نظرة كهذه التي تفرمني، وتقطع لي وعداً بأنّ الليلة ليلة العمر، فأضحك بحسرة، ادع لي يا "قمر"، فأنت لم تعرفيني بعد، الورقة العرفي هي سبيلي للنعيم، ولكن؛ هل سأكون قدر النعيم؟ هل سأنفع

الليلة؟ تمد يدها بالورقة قائلة: إمضاؤك يا حبيبي، فأبتسم بوجل، ويدق قلبي قليلاً، وترتعش أناملي قليلاً، قبل أن أزيّل آخر الورقة بتوقيعي.

وحين أغلقنا علينا باب الشقة؛ التي استأجرتها لها خصّيصاً، سابت قدماي، خشيت أن تكون هذه ليلتي الأولى والأخيرة معها، ها أنا سوف أجرّب إناءً آخر، فلأكن ولو لليلة وحيدة رجلاً.

كانت الإضاءة الحمراء الواهنة تبعث على جو الغرفة إحساساً بالحلم، التفتت رأسي في خوف نحو الفراش، وعثر بصري في طريقه على زجاجات من عطر لعلّها هيّأت بها طقس المكان، رائحة العطر نفذت إلى أنفي، وأغمضت عينيّ، مسكينة، أخشى أن تكوني قد تهيّئتي للا شيء، كنت أحاول أن أبدو هادئاً لولا أنّ عينيّ اللتين لا تعرفان الكذب خانتاني وكشفتا عمّا يساورني من توتر، فضمّتني إليها وابتسمت، وأجلستني جوارها على السرير وهى تقول:

- يا لك من رجل! كيف وصلت معك إلى هنا بهذه السرعة؟

كم أخشى أن أكون قد ارتكبت في حقكِ جرماً لن يُغتفر، لدينا متّسع من الوقت فأصغِ لي بقلبك قبل أذنيك ولا تتعجلي الحكم عليّ، راح ما راح، واليوم أنا أحبّك بكامل وعيي وإرادتي، ما كنت أتخيّل هذا على الإطلاق، ولكنّه القدر، وما أحلاه! أن يكون قلبي

مطمئناً رغم مأساتي، هل أنا في حاجة إلى ذكر مأساتي؟ لأنّني الآن بين يديك نقياً صافياً كالطفل الذي سبح في مياه النيل أيام العيد، والذي عبر المجرى لا يخاف أبيه العمدة، الطفل الذي كان سعيداً إلى أن حلّت المصيبة، أخشى ألا يكون في وسعي بعد ذلك أن أستبقيك إلى جانبي، الآن سوف أخرج إلى الدنيا وأقدّم لها ولك التوبة.

لن أذكر في هذه اللحظة "زُهرة" التي تخاف عيناي اللقاء بها كلّ صباح، يا لها من بائسة تلقّت صدمة ومنيت بخيبة في فناء بيتنا الغريب! على أنّي لن أنساها الآن أيضاً، لمجرّد نشوة الحب التي تسحرني وتجتاح ضميري وآلامي، ولكن؛ لم يخل قلبي من حنين إليك يا "زُهرة"، فهذه الخواطر التي تدور برأسي فوق فراش "قمر" خواطر مرعبة، يبدو وجهها المليح هادئاً ومستسلماً وعيناها الزرقاوان صافيتان، غير أنّ عينيك أقوى يا "زُهرة" الآن. لا يغرنّك الوقار الذي يكسو وجهي يا "قمر"، هذا وقار زائف، أداري به خيبتي، وفي قلبي أثر ما منها، نعم، هناك أسى كامن بداخلي لا يبغي محو وجهها عن خيالي، إنّها صميم الألم الذي ألتمس منه الفرار إلى أيّ حضن، كم يكبر على نفسي أن أفكّر أنّها في البيت تنتظر وأنا ذاهب إلى توبة —كم أخشى أن تكون مخادعة— لا يسعني إلاّ الذهاب لها، كيف انقلبت؟ كيف انتهيت إلى هذا الفراش؟ لا ليست نزوة، ولست أعاني بعد الشعور بأيّ ذنب، لكن كيف أمحوك يا "زُهرة" لكي تصفو اللحظة لها؟ لوحدها، ابتعد يا شيخ "أبو القمصان"، أنت أيضاً تشاركها اللحظة؟ كم جثوت أمام ضريحك أتمزّق! كم قصدتك أدعو

وأبكي، لا، لن تسري هذه البرودة في أطرافي، عيناها الطاهرتان المتألّقتان تستجديان التهامها، ولن يلهمني الصواب غير عقلي، سأقف مليّاً حيال جلال جمالها، سأحاول جاهداً أن أنتزع العجز من جسدي وآكلها على مهل، هي التي سوف تنقذني من شقائي، هي التي ستنظر إلى قلبي التعيس بعين الرحمة.

رفعت بصري لأعلى، ليس لي الآن سوى الله، هو النصير، قلبي يستشعر خوفاً يدري به تماماً، أخشى أن تمضي الحقائق تتكشّف لك يا "قمر" فينفضح ستري، ما هذا التشاؤم؟ وهل تعلم الغيب؟ لتمض وقد ترى جديداً، إن كن متشابهات فما هذا الحب الذي يستولي عليك ناحية "قمر"؟ لابد وأنّ الحب يجعل اختلافاً، لن يحول العجز بيني وبينك يا "قمر"، إن كان العائق الوحيد الذي لست مسئولاً عنه فأنا مسئول عن إزالته، آه، ما بالي لا أنجو من هذا العرق الذي يتصبّب! لكنّني مصرّ على انتظار الزاد الذي يمدّني من عينيك بماء الحياة يا "قمر"، لن أغدو غير خرقة تعصرينها ببطء فتتقاطر عليك منها دموعِ التوبة، إليك أنا تائب، عن كلّ ما مضي، وعن كلّ ما سيكون، لست من فصيلة العجزة غير القادرين، أنا من فصيلة الرجال أولاد الرجال، ليست لي سواك غاية الآن يا "قمر"، خذي نفساً عميقاً وانبضي داخلي بتريث، تريّثي لكي أهنيء نفسي، لأنّي سأفعلها، لعلي أهنيء نفسي في الحقيقة على اليأس؟ كلاّ، سأتخلّص من عذاب الأشهر الطوال، سكن الحب قلبي للأبد، ولن يخرج، أنا سعيد، وليس أحق منّي بالسعادة أحد، راحت عذاباتي إلى الأبد،

وقدم السرور، وكما كان ينبغي أن أفعل منذ زمن، سأفعل بك الآن، فوق هذا الفراش تحديداً، سأهوي من شدة الفرح، وكما ذقت مرارة اليأس سأرتع في النعيم الآن، انشبي في قلبي أنياب رغبتك، ودعيني أتساءل.. هل يمكن أن يتم هذا حقاً؟ هل يمكن أن تُروّض انفعالاتي وتستقيم باتّجاه النجاح؟ ها هو التنفّس يعاودني بدون احتمال، وها أنا أجدني لا أرغب في أيّ مكان في العالم إلاّ بهذا الشقّ المليء بالنتائج الغبطة، كلّ شيء في داخلي ينتصب بعد أن بدا قد همد، عاد "السبع" لنفسه، عاد ولو بعد حين، أخيراً، قطعة من الجنّة تسقط بيننا يا "قمر"، ويبدو المستحيل ممكناً بأكثر من وسيلة، سأدفع نفسي خلالك لأتيقّن من الانتصار على ذاك المستحيل، سأتقاطر مثل مطر بريء ينبعث من سحاب منتفخ، مثل دخان هادئ يتصاعد رويداً من كلّ أجزائك لتنفثيه مع تأوّهاتك، لن أتريّث في استحلاب اللذّة، سأندفع وأندفع بلا هوادة، سأقتحم كلّ الكهوف الغامضة التي يمتلئ بها جسدك، سأستعذب الأنين والعنف والآهات، وأنتِ أيضاً تندفعين نحوي كقطار هادر، لابد أن أقبّلك امتناناً قبل أن أتناسى كياني بداخلك، أو أتثاءب فرِحاً. لا أصدق، ولكن من كان يصدق أن ينتهي بي الحظ إلى مثل هذه التجربة الملهمة كلّ ما هو حيّ لأعماقي؟ يتبدّد اليأس من الأعماق، ألمّت بي الآن النشوة، وطردت رعدة البرد التي ما عدت أنتبه لها، يا للسرور! أنا طريح الفراش ومفعم بالجودة، يا رباه، ستنهار أعصابي، سأجد أنّي أميل ميلاً لا يقاوم إلى البكاء، فاتركيني يا "قمر"، سأتشجّع بين ذراعيك وأبكي، تحفزّني الظلمة اللذيذة التي تتحرّش بأعصابي،

سأجهش بالبكاء، سأحتفل دامعاً بنصر كان بعيداً، سأنتحب، سأشهق، تماماً كالأطفال.

ميلاد

لا أحب أن يعزّيني فيك أحد يا أمّي، غالباً لأنّ العزاء واحد كما يقال، وأظنّ أنّ الجميع الآن يشعرون بما أشعر، أظنّهم يفتقدونك، كنت دائماً تقولين:

– ليس لنا أحد إلاّ ناس قريتنا، هم أهلنا الحقيقيون يا "ميلاد".

لكنني بحدس البنوّة أدركت أنّك راحلة، لا أعرف، هل حين جهّزت "سترتك" من قماش "الساتان" وأعطيتها لي لأحفظها لك في الدولاب؟ جهّزت كفنك وحذرتني من أن أخبر أحداً. كان المرض قد حيّرني وحيّر كلّ الأطباء، جسدك سليم تماماً، إنّما لم نعرف أين العلّة تحديداً؟ لعلّها كانت في روحك، هل حقّاً أن المغادر يحس بالموت قبل أن يأتي؟ لماذا لم تخبريني يا أمّي؟ لكي أستعدّ قليلاً لهذه اللحظة، أقلّه حين تقرع أجراس الكنيسة معلنة رحيلك لا أهابها، وأصدّق أنّك رحلت، لكنت شاركتك الإحساس بالموت لو أفضيتي لي به.

كنت صامتاً. أبونا "لوقا" اختار أحد الكهنة ليؤدّي عليك الصلاة يا أمّي، وبدأت مراسم تجهيز مكان العزاء أمام بيتنا، أقيم السرادق،

ورصّوا الكراسي، وارتدت الحريم السواد، وبدئن في التجمّع مع بعضهنّ يتحلّقن حول جثمانك ويعدّدن، لا أعرف يا أمّي، لا أظنّ الموت مصيبة لهذه الدرجة؟

طلب بعض الرجال من النسوة اللائي يحطن بنعشك مغادرة الغرفة لكي يتمكّنوا من تغسيلك وتكفينك، قالوا لابد من وجودي، لماذا هذه القسوة؟ ما الضروري الذي يستوجب حضوري هذه المراسم؟

أتى الرجال بتابوت خشبي لك عرفت فيما بعد أنّ أحد النجارين قد صنعه تبرّعاً وطواعية بناءً على رغبتك، لقد كنت تعرفين إذن ولم تسّري لي؟

أدخلوا جثتك داخل الصندوق، بعض النسوة يحاولن التشبّث بك، لعلّهنّ يفتقدنك حقاً، ولعلّهنّ يودعنك بما يليق بك، لمَ لم أعد أميّز الآن بين ما هو حقيقي وما هو مصطنع؟ هل يُعقل أن تكون كلّ هذه الدموع لأجلك؟ إنّما على أيّ حال علينا أن نؤمن بأبدية الفراق، وأن نعاني منها، وأن تجسّد مشاعرنا حسرتنا، وإلاّ ما خار كتفي وأنا أحمل معهم الصندوق في طريقي إلى الكنيسة لأداء صلاة الجنازة، وما هبطت دموعي دون عمد أمام جوقة الشمامسة الذين استقبلوا نعشك وأنت تدخلين الكنيسة. كلّ ما حولي في الواقع مؤلم الآن؛ أجراس الكنيسة التي تدق مرّة ثانية لدخولك، الترانيم التي يتلوها عليك الكاهن، خطبته فينا يعزّينا، كلّ هذا يؤلمني.

تنطفئ عيناي حين يطفئوا الشموع التي تحيط بنعشك، وللمرّة الثالثة تطنّ أجراس الكنيسة، بعد انتهاء صلاة الجنازة، حينئذ ينادون علينا، نحن الشباب، لحمل النعش، وإدخاله عربة الموتى، التي تسير به حتّى المقابر الموجودة عند آخر حدود القرية، وتبعد مسافة عشرة كيلو مترات، عربة تزيّنت بعبارة "ارجعي يا نفس إلى موضع راحتك لأنّ الربّ قد أحسن إليك".

العربة تسير ببطء، وأنا أسير وراءها مثقل الخطى، تقدّمها أحد أقاربي يحمل صليباً كبيراً من الخشب، وفي ظهره، أربعة من الرجال يحملون ستراً من القماش مزركشاً بعلامة الصليب، هذا بساط الرحمة، وهذا أنا أرى أمي كأنّها تخرج لي من نعشها تعزّيني، آه يا أمي، تعزيني فيكِ! يا للمفارقة التي لن أحتملها، وربما أسقط تحت الأقدام مغشياً عليّ. ما كلّ هذا الضباب الذي يعم أمام بصري؟ ما هذه الظلال التي تتحرّك ولا أميّزها؟

على القبر، يربت أبونا "لوقا" على كتفي، ويشارك الكاهن رمي حفن من تراب على القبر، وهو يردد:

– من تراب وإلى تراب تعود.

فيردّد الجميع وراءه ولا أردّد، أهلي وأقاربي والأصدقاء الذين يتلقون العزاء من المشيعين، يكمل الكاهن:

"يا الله، من بقية رحمتك أعطيت لنفوس المؤمنين، ويمكن من فضلك أن يبارك هذا القبر، عين لها ملائكتك المقدسة لحراستها، وحرّرها من قيود الخطيئة، واجعل روحها التي دفنت هنا ملازمة للقديسين إلى الأبد، من خلال المسيح، ربّنا آمين."

تطوف روحي بين الرجال والنساء وكأنّ روح أمّي تتقمّصها لُتشرف على حزن الناس عليها، فتنظر لي "زُهرة" من بين النساء مواسية، ونظرتها تحمل رعشة دفينة، متى جئت يا "زُهرة"؟ وكيف لم أرك إلاّ الآن؟ كم أود لو تتصلّب كلّ الأجساد عدانا، فأجري نحوك أرتمي في حضنك! لا يشعر بنا أحد، ولا نشعر بأحد، أرتمي وحسب ولا يهمني، إن كنت تبادلينني لهفتي أم لا، كلّ ما يهم أنّك أنت لا واحدة سواك هي التي تضم شكواي الصامتة وحزني.

اقتحمتُ صفوف النساء اللواتي يتقاذفن رأسي بصراخهنّ، وارتميت داخل حوض الحمّام، كنت في حاجة لغسل وجهي وتشتّتي، يتهادى ماء الصنبور ببطء فيخرج صوت ارتطامه بقاع الحوض ليزيد من رعشة جسدي، لا شيء سواها.. "زُهرة"، هي التي أثارت حزن كامن، لماذا يُقدّر لي كلّ هذا العذاب؟! لو أنّنا مختلفان في بضعة أشياء ومتشابهان في أخرى لما أصبح العذاب، لن أستجدي القدر،

فالقدر صنيعة البشر، وملاذ اليائسين، لن أيئس إذن، سأصنع لي قدراً أكثر رحمة.

وحين أستدير، فأجدها بثوبها الأسود واقفة تتأمّلني بعاطفة مغايرة، لا أملك سوى الارتماء في حضنها فتربت على كتفي قائلة:

– الله يقدّس روحها.

لا أعلم كيف تتبّعتني إلى هنا في الداخل بمثل هذه الجسارة! رحت أتلوّى بين شفتيها كممسوس، وزفراتها الساخنة تقلّص الحياة، وتجعل مسيرة عمر انقضى كومضة من الجنة، وهي تشدّني إلى أعماقها ربما بلا وعي غير الاحتياج، ولم أعرف هل كانت دموعها التي تغمر ملابسي دموعٍ على أمّي أم على نفسها أم علينا معاً؟ لا أعتقد أنّها كانت تعرف أمّي بما يدفعها للبكاء كهذه الصورة! كانت الغرف والستائر والجدران التي تُبعدنا عن لغط الحريم في صالة البيت لا يمنعوا وصول "عدّيدهنّ"، غير أنّ "عدّودتنا" الخاصة ها هي تتشكّل وتملأنا بالإحباط، فأنتفض من حضنها وهي تبعدني عنه بقليل من القسوة، أتطلّع إليها قائلاً:

– ماذا بكِ؟

لكنها تخرج بسرعة، أهرول في سرعة كذلك خلفها بينما تبتلعها أثواب النساء، أدور برأسي في احتقان وأسى ثم أعود إلى سرادق العزاء، لأقف جوار "أبونا لوقا"، ويكتمل الصف الواقف يستقبل المعزّين بوجود أغلب رجال القرية، وجوه كثيرة، لا يعنيني حقاً أن أستوضح ملامحها، ألتفت إلى "أبونا لوقا"، لمسة الحزن ترقد على ملامحه غير أنّها تحمل ذات الوقار الذي دوماً حيّرني، فلم أعرف إن كان مصطنعاً أم أكسبته له سنوات الإقامة في الدير والزهد عن دنيانا؟ أقول له فجأة:

– ما رأيك في الحب يا "أبونا"؟

فيرمقني بدهشة وكأنّه يقول: وهل هذا وقته، لكنه يجيب بهدوء:

– الحب حب الله.

– وحب الدنيا.

– فان.

– ولكن..

غير أنّه يقاطعني بصرامة وهو يهمهم:

- سلّم على الناس.

وما الفائدة؟ بل ماذا يعنيك؟ وهل تعرف عن الحب شيئاً؟ عمرك قضيته في الكنيسة ولم تعرف إلاّ وعظ الناس، هل فكرت يوماً في أنّ لك قلب مثلنا؟ اعتزلت الدنيا وتقول الحب حب الله، في الواقع الحب هو إحساس مجرّد، قد نُحب الله، إنّما خلقنا الله لكي نحب كلّ شيء من حولنا، نحب الدنيا، نحب الحياة، نحب البشر، أليس هذا ما تعلّمه لنا الكنيسة؟

يستدير وجهي نحو الناس مجدداً، لماذا تقف صامتاً يا شيخ "عوض الله"؟ ما الذي يلجّم لسانك؟ ماذا قالت لك أمّي؟ وما هي الأسرار التي أخفتها عنّي ولم تجد سواك ليعرفها؟

دنوت منه، ملت عليه هامساً وصوتي تغشاه الدموع:

- شيخ "عوض الله"..

التفت نحوي ببصر زائغ، سألتني عيناه ماذا أريد، فأكملت:

- ماذا قالت لك المرحومة؟

تهدّج صوته، وزفر قائلاً:

– لا شيء، كانت لي أمانة وأخذتها.

نظرت له بريبة، إن كان عليّ أن أصدّق ما تقول فلا بأس، لكن عليك أن تكون صادقاً، ليتك تكون صادقاً! ولكن أيّ نفع؟ رحلت أمّي نفسها ولم يعد يهمني معرفة أيّ شيء، رحلت واصطحبت معها كلّ شيء.

وأنت، ما هذا يا "بسطاوي"؟ ما الذي ترتديه؟

رغماً عنّي أثار انتباهي، وأخرجني من تفكيري، أصابتني دهشة وأنا أراقبه وهو قادم ناحيتي.

كان "بسطاوي" يقترب من "فِراشة" العزاء ويطوي تحت إبطه شيئاً، الغريب أنّه في خطواته كثيراً ما يتعثر، لكنه الآن لا يتعثر ويسير بثبات وكأنّه مبرمج، وجهه شارد، والأغرب كان ينتعل –لأول مرّة– جورباً وحذاء، أزرار جلبابه كلها مغلقة بإحكام، والياقة مطوية علي منكبيه بتنسيق. البعض؛ رغم أولى ساعات العزاء، انفلتوا في ضحك فحدجهم أبونا "لوقا" منبّهاً، فشكل "بسطاوي"، رغم ما يعتريه من هزال وهزل، والجلباب القصير الذي لا يبلغ آخر القدمين فيكشف الساقين ويكشف عن الجورب البرتقالي، شعره الهائش الذي كان

ملتصقاً برأسه ومسرّحاً بعناية، و"الكرفت" الذي لفّه حول عنقه، جعل البعض يصفّقون بأكفهم ويهمهمون:

– سبحان الله.

بعد دقائق، دنا منّي، وقف قليلاً أمامي ثم انفجر في البكاء وأخرج من تحت إبطه صندوقاً من الخوص، فتحه وأخرج صليباً صُنع من الطين وناوله لي، دون أن ينبس، سندت رأسي على كتفه وشرعت في البكاء، لم أكن أعرف عن "بسطاوي" غير أنّه درويش، أما هذا الذي لا أعرف إن كان تعقّلاً شديداً أم محبة أشد أم شيء لا ندركه عن طبيعة أولئك الذين يهيمون في ملكوت الله فلم يعهده أحد، لمنا أبونا "لوقا" في حضنه –وما أغربه!– وبكينا كلنا، وكانت عينا "زُهرة" من فوق الرءوس تشاطرنا البكاء.

الشيخ عوض الله

عيناها تلازماني في كلّ مكان، تتبعاني في كلّ خطوة، أشهد ألاّ الله إلاّ الله، كيف لم أتيقّن ممّا لا ريب فيه؟ ولكن هل يجوز لي يا رب أن أستبيح إخفاء ما سمعت بأذني؟ يا لها من مرارة؟ ويا له من عناء؟ لا لن أظلّ عمري كلّه أتساءل إن هي ماتت على دين الفطرة أم ماتت على دين أسلافها؟ لقد سمعتها، واليقين –حتّى ولو لم يكتمل– فكان أولى أن أفصح عمّا يفرضه، كان ينبغي أن أحدّث الجميع عن آخر

كلماتها في هذه الدنيا، إنّما؛ مالي خائف؟ ربما لن يصدقني أحد، وربما يتهموني بالفتنة، سينبذونني من بينهم مؤكد، غير أنّه الحق، وعهد الله هو الحق، وحق الله لابد وأن يُجهر به، لكنّي جبان، أنا جبان، أخاف من شرّ هذه القرية التي لن تؤمن بما حدث، أولست غريباً عنهم! من أنا بينهم؟ أنا مجرّد مؤذن، يطلع على المنبر ويستدعيهم للمثول بحلاوة صوته، ولكنّها أمامي على المنبر فوق، ترميني بنظرة لوم، لها الحق، كيف تقاعست عن أداء هذه الرسالة؟ كانت تبتسم لي بحسرة وأنا أتأهّب للشروعِ في الآذان، وكانت أصوات من تحت تدعوني للبدء وأنا متسمّر أمامها.

– شيخ "عوض الله"!

– أم "ميلاد"........

– لقد ائتمنتك..

– أخشى لو تفوهت أن يثور أهل القرية، ويتحوّلون ضدّي.

– ألا تخشى الله؟!

تزلزلت في مكاني، وغامت عيناي، كانت الأرض في الأسفل بعيدة، لكنها تدعوني للسقوط، وقدماي لم يعد لهما تحمّل لهذا الثقل

الذي يدوّخ عقلي، الأيادي راحت تمتد في جزع وفي دهشة نحوي وهي تتناولني لتوسّدني قريباً من المنبر، والست "دميانة" هناك في الأعلى تنظر لي معاتبة.

حمدي

صوتها بات يلازمني، في كلّ حركة، وفى كلّ مكان.

في المساء، خارج البيت، صرير حشرات الليل يسري في الهواء بانتظام والحقيقة أنّه أصبح عادة تستلذّها أذناي، أشعر أنّ هذا الصرير؛ الذي لا ينقطع أبداً، ويصاحب دخول المساء على كوني، أضحى من دلائل معرفتي بمواقيت الدنيا من حولي، حينما يبدأ الصرير رويداً في التصاعد كنغم ترقص على بدئه مفردات الليل، ويهيئ لي جواً من المتعة الذهنية الموحية، والأصوات ترد على بعضها البعض بتوافق ربّاني عذب، هنا أدرك أنّ آذان العشاء على وشك، فأنتظر قليلاً ثم ينطلق من بعيد صوت المؤذن: الله أكبر، فأبتسم وأتأهب للصلاة، يكون أبي قد غطّ في النعاس، أتلمّس في عتمة قدرية موضع القبلة وأضبط جسدي على وجهتها ضبطاً حسّياً وأهمهم بنبرة خافتة لا تكاد تبين بين أصوات الصرير: نويت الصلاة.

عالم آخر الصلاة، تطمئنني وتهدئ سريرتي وتصفو بي.

ولكن صوتها في رأسي!

الناس تغمض عيونها للإغراق في الخشوع وأنا مغرق إغراقاً إلهياً، أنفاسي المتلاحقة المضطربة ترتاح، جسمي يرتخي وأحس أنّ أطرافي سابت و"تنمّلت" في كلّ صلاة، وأفرح، الصلاة فرحة، وأنا أفرح فرحاً شديداً حين أصلّي، هذا الفرح الذي لا فرحة تضاهيه ولا سعادة، هذا الفرح الذي تشعر معه أنّك قاربت أن يُغشى عليك، الصوت المتهدّج الذي تتمتم به، والقلب الخافق الذي يسمو لفوق، والروح التي كأنّما وثبت في نهر من ماء عذب فاتر تغتسل، والتنهيدة التي تدغدغ أعصابك قبل كلّ صلاة، كلّها مشاعر أنعم الله بها علينا نحن البشر، وأيّ نعمة! غير أنّ كلّ هذه المشاعر تتماهى وأنا أصلّي الآن ويضطرم فيّ شعور آخر، شعور بها، فأسأل نفسي: أين الخشوع؟

المساء التالي والذي يليه، وكلّ مساء، يزداد بداخلي رنين صوتها، الفارس لا يخشى صهوة الجوّاد، والشاعر لا يخشى الغزل، الشاعر فارس والفارس شاعر، وما يربطهما قلب جسور يجعل الفارس فارساً والشاعر شاعراً، وأنا همت بفرسي في عالمها الذي رسمته بخيالي، عالم لا أراه سوى بإحساسي، عالم أنا فيه الفارس الأوحد والشاعر المطلق، ثم بمرور الأسابيع وبسرعة لم أتخيّلها وقعت في غرامها، هكذا؛ ببساطة، إنّما الحقيقة تؤلمني وتخجلني، فؤادي جبان لا يقدر على البوح، تجلس منال جواري فأتغزّل فيها؛ أحاكيها، تحاكيني، ولكن؛ في داخلي فقط، أسمع صوتها، أرفرف في فضاء الوجد، ينقبض قلبي

انقباضة حالمة، أود لو يهمس كياني لها همس المحب الكامن خلف ضلوعي، همس المحب العاجز المسجون في أعماقي، ولكن ذلك المحب المدفون فيّ يخاف، يخاف أن يهبط إلى أرض الحقيقة.

وأنتظر الأمسية الأسبوعية بفارغ الصبر، الأسابيع تترى، وأنا أترقّب لقاء صوتها وكلامها وضحكاتها، أسمع أشعارها الضعيفة لكنّي أصفّق، لا أدرك لِمَ أصفّق! وحيداً أصفّق، بحرارة وإعجاب وربما بفطرة المحروم، أصفّق.

جلست كعادتها جواري، مجيئها يثير بداخلي رعشة لا سيطرة عليها، وجهها جميل رسمته في خيالي منتهى الصفاء والبراءة، صوتها آت من قلب إحساس رقيق، من يشعر بي؟ بالله من يشعر بوخز الفؤاد غيري؟

بدأت القراءة، وآن دوري، وها أنا ألقي قصيدتي التي ظللت طيلة الأيام الفائتة أكتبها، كانت لها، وكنت أول مرّة أكتب شعراً في الغزل، كم أتمنّى أن تصل كلماتي إليها! كم أتمنّى أن تشعر –ولو لمجرّد برهة من زمن لا يمنحني الكثير– بمعنى كلماتي!

قلت:

– فارس

لكنّي في الحب عاجز
أتمنّى أكون
رغم إنّه ضرب من الجنون
لعينيك حارس

لابد أنّ الدهشة تظهر على الموجودين، صفقت "منال" معجبة، قالت بصوت أعلى من همهمات الجمع:

– الله.

قال لي "أبو الحسن":

– أول مرّة يا حمدي تكتب عن الحب، همومك كانت أكبر.

تنهّدت، مصمصت شفتيّ ثم قلت بحسرة:

– والحب همّ كبير يا أستاذ "أبو الحسن".

زُهرة

مهملة. كلّهم يضحكون في غُرفهم ويتسامرون وتسير بهم الحياة كما دأبوا وأنا في غرفتي هنا علامة استفهام لا يعني أحد حلّها وكأنّهم

يتعمّدون تهميشي، كم مللت! أين العلّة التي تدفعني للصمت وتقبّل هذا الذي يحدث؟ تبّاً لهم، أين زوجي "السبع"؟ هاه.. لعلّه مستلق جوار ضريح أو على ضفّة ماء، لم يعد يهمني أمره، لقد اختفى من حياتي، ولو راح الهند حتّى، ماذا أنتظر لكي أرجع إلى داري مكرّمة معزّزة؟

إنما هو، لولاه ما تحمّلت كلّ ما يجري، كانت صورته في ذهني صداعاً مزمناً لا شفاء له سوى رؤيته، لا أعرف ما ينتابني حياله؟ هل هو حقاً إحساسي بقلّة الحيلة! أم كياني المتصدّع الذي لاذ به حرماناً! أم لعلّه حب! أم هي غفلة وقتية سرعان ما ستنجلي عن رأسي!

حبوب البرشام تتناثر أمامي فوق التسريحة، ابتلعتك كثيراً ولم تسعفيني، وجهي الذي يتموّج داخل المرآة يكشف عن عدم جدواكِ، فقط وجهه يأتيني ويضمني فيكبح اهتزاز وجهي قليلاً، أيّها الطبيب الذي كنت لي مرضاً لا علاج له، أين أنت الآن وماذا تفعل؟ هل اقتلعتني من رأسك أم ما زلت باقية كما أنت باق؟!

بحافز جنوني أرمي على كتفي عباءة، وهل سيحدث أقسى ممّا كان! صورته التي تربض بلؤم في بالي تسحبني إليه، تخدّر إرادتي ورويتي وحيائي، هل كنت غبية حين ألقيته بعيداً عن صدري؟ لعلّي كنت متخوّفة! ممَ؟ يا لهذا الطيش! يا له من طيش لذيذ، يسيطر على كياني بكلّ أريحية، أنا ذاهبة إليه، سأقع تحت قدميه وأطلب أن

يسامحني عن آخر مرّة، سأقول له: كنت خائفة، كنت متوترة، كان بداخلي هذا الشعور بالذنب، إنّما اليوم لا ذنب سوى كبت مشاعري، ولا أفدح من جريمة البلادة، أنا أنثى تحتاج لضمّة رجل، ضمّة واحدة طويلة، بعدها فليتلاشى الكون بأسره، سأقول له: اليوم جئتك محبّة، جئتك صافية لك، لوحدك، فلا تقتصد في منحي حبك، امنحني كلّ الحب الذي تملكه، كلّه.

على باب بيته وقفت قليلاً، رفعت يدي فهبطت مرّات عدّة، في النهاية وبلا وعي كان الطرقات الخافتة التي يبثها شوقي نذيراً مرعباً لو فكرت فيه، نعم، ما أبعد ما قد يحدث؟ بل ما أقربه! قد يحدث اليوم، بعد ساعة، بعد لحظة، قد يحدث الآن حين أراه فأنقضّ على حضنه، أنت الرجل وليس سواك، أنت الذي احتللت أيامي الماضية، ترى ما ردّة فعلك؟ هل ستفرح! أم ستخشى من أخشاهم! بالله هيا افتح لي بابك قبل أن تخور قواي أمامه.

وجهه المريح ينظر لي بدهشة عظيمة، أبتسم وأنا أتطلّع إليه، فقط كانت دموعي هي التي تسبق لساني، وكان الصمت يحتوينا، وعينانا تتشبّثان بأعماق كل واحد منّا، وهل هذا وقت قراءة الأعين!

حولنا الضجيج، الرفّاس غير البعيد والآذان وصوت طيور النورس التي تهيم فوق المياه، حولنا كلّ شيء ما عدا خوفي، فقد زال تلقائياً، ودون جهد، لا لست خائفة من شيء، يكفيني أنّي معه، لا تنظر لي

هكذا وتدعوني للدخول، فلم يعد دخولي أو بقائي على عتبة دارك هو المهم، الأهم أنيّ هنا، تغلّبت على "السبع" وأبيه وعلى نفسي، وجئت، لماذا ترتجف شفتاك؟ إلام تتطلّع فيما وراء ظهري؟ ابق معي، ابق هنا، ودع يدك الباردة هذه في كفّي قليلاً، أين ذهبت؟ لماذا لا ترد على تساؤلات عيني؟ لا، لا تسحب يدك من يدي، واترك سلام القلوب يختمر، لا، بالله لا ترتعش وأنت معي، هذه المرّة لست مرغمة على فعل أيّ شيء، جئت واهبة لك قلبي الممزّق، فدعني أروي لك عن قلبي قليلاً.

السبع

كلما تهرول الأيام متتاليات، كلما أتخطّى حاجز الإفاقة بقلب مفعم بالهوى، الوقت يسري لا روح فيه سوى روح اللذّة، كلّما تتعاقب كلّما يلهيني ولهي وشططي عن مغبّة الفعل اللا مدرك الذي أتيت، هذا الوله الذي جرى في عروقي مجرى الدم وحمل لنبض قلبي العشق دون أن أدري، فحيث تركت "زُهرة" تكابد لياليها يأساً، عابراً لبرّ مفروش بالورود مع "قمر"، حيث شعرت بفناء كلّ شقاء الأشهر الماضية، شعرت كذلك أنّ التوبة كانت على يدي "قمر"، والرجوع إلى الماضي فكرة لا جدوى منها، وأنّ هناك بالضفّة الأخرى من الحياة عالماً نفضته عن كياني بوعي لم يعد ملكي، هجرت بيتي تقريباً، إمّا أتحجّج بسفر أو سهر أو أيّة حجج شبه مفهومة، ولكن ليضرب الجميع رءوسهم في الحائط، "قمر" طوتني طيّاً تاماً، قرّرت أن أظلّ

لها، أعيش معها هذا الحب اللذيذ، فلا أخشى سوى فقد حلم صار ملك يديّ، كنت أقول لنفسي: يوماً سوف أعود، أكيد العودة لابد منها، لكنّي أعلم أنّه قول فرضي على سبيل الجدل الباطني لتسلية الضمير وإلهائه عن التذكرة، لا ذنب بعد الذنب، ولا خطيئة أجسم من هذا النسيان غير المباح، ولكن هل الحب ذنب؟ وهل العشق خطيئة؟

وإذ تركض الأيام، تركض كحصان لا ترجّل من على صهوته ولا توقّف له، وقائع عشقي ليست مصادفة بقدر ما هي حتمية، نتيجة صبر طال ووقت لا مذاق فيه سوى للحرمان، تتراص مفردات العشق هذا أحياناً تراصاً يقشّعر له بدني، فلا أدرى كيف سلّمت نفسي لهذا التيار بقدر ما أدرك أين مصبه! لا أكلّف روحي حتّي على الإفاقة بقدر ما أتركها لتجرّع الحياة الحقيقية، إنّما.. هل أكترث؟

* *

*

كانت القرية بائسة كعادتها، كم غدوت ضيفاً عليك أيّتها القرية المؤسفة! كم عدد الليالي والأيام التي أغيب عنك؟ لا تهتمي كثيراً ولن أهتم.

حلّ وقت التزوّد بشيء من الصبر حتّى عودتي إليك ثانية يا حلوتي التي تسكن العمار. السُنبك الصغير يتراقص بي فوق الصفحة الخضراء المليئة ببقايا غسيل المواعين، وبقايا لهو الصبية، وقرف القرية، الصفحة التي تتحرّك بتؤدة كهل نحو الشمال ولا تحرّك معها حياتنا الراكدة، يا الله! أيّ سعادة كانت في المدينة وكنت غافلاً عنها! غير أنّ "زُهرة" لا ذنب لها إلاّ صبرها عليّ، لا تقلقي، أعرف عن تعاستك وسأعفو عنك لا محالة.

في الهدوء الذي يحتوي حياة القرية بعد صلاة الظهر، كانت قدماي تنطلقان بي بحذاء شطّ المجرى، كان النيل بغيتي، كم يروقني الآن وفي عزّ حرّ النهار أن أتشطّف من عناء التفكير! كنت أشبه بمن يتشظّى، قلبي هناك في البرّ الهنيء وعقلي هنا مضطرب، أفكر مليّاً في عتق "زُهرة" من شقاء يربط بيننا، كم كنت ظالماً حين غفلت عن معاناتها وآثرت الفراق! الآن لها الخيار في أن تجد ملاذها بعيداً عن معترك هذه القرية الساقطة، بعيداً عن بيتنا الذي عاشت في جحيمه وتحت اتّهامات أبعد ما تكون عن الحقيقة، "زُهرة".. قد تسامحينني يوماً وقد أجد أنّي ما زلت في حاجة ما إليك، إنّما.. أنت في حاجة أكثر اليوم إلى التحرّر.

كانت "القباوي" تشبه الرءوس الصلعاء أسفل جمر الشمس، وهي تعكس على عيني أصالتها، وكانت ريح خفيفة تجيء من ناحية النهر محمّلة بالغفران، سأتخلّص بين مياه النيل من أحمال جحودي، وسألجأ

إلى هذا الجزء من فؤادي والذي يأمرني بالتنصّل من كلّ ذنب اقترفته في حق "زُهرة"، سوف أعترف أنّني أخطأت، وسترحمني وأنا أقص لها عن رجولتي التي تيقنت في وقت قريب من أنّها أفلت، سأقول لها كانت غلطة، زواجنا في الأصل غلطة، سأسمح لها أن تُفصح عن موطن العيب ومن منّا كان السبب، بل لن أجد حرجاً وسأحكي للجميع، لأهلي وأهلها، عن صبرها ووفائها كلّ هذه الشهور الفائتة الطويلة.

النورس.. تستدعيني بغناء شهي، أنا آت، النيل ملاذي من التفكير المشوّش، من سياط الشمس، ومن القرف، الكلّ غاف وأنا وحدي أتضوّر للقاء الماء الفاتر، سأجلو عن جسدي أثقال الاضطراب، ولو للحظات قليلة.

الحرارة سراب باهت ينقشع كلّما أزحت جانبي الطريق بقدميّ المتمهّلتين، ولكن قدمي تبدأ في التوقف، لا لن أفكر ولو لوهلة أنّها هي، هي التي تداعب كفّه بأناملها، إنّها تنتظرني الآن في البيت، السراب.. السراب غريب، السراب يصنع من المشاهد ما يحلو له، ربما مخي الذي لسعته ضربات شمس الظهيرة، لن أقف هنا أرتجف وأراه ينظر لي بعين الشفقة، وربما بعين السخرية، لن تلتهم الحرقة أنفاسي، سأقترب ببطء، لا تخشياني، سأقترب لأقبض فحسب على هذا الجرم الذي تقترفانه في حقي فلا توليايي انتباهاً، أكملا ما بدأتما،

ومزقيني يا "زُهرة"، الله يعاقبني، ولكن.. أيّ جرم! أيّ جرم هذا قد يوازي ما تفعلينه الآن!

حمدي

إلى متى ستظل مطموساً أسفل الخرس؟ يا لهذا الخرس اللعين؟

غير أنيّ لا أقوى على مجاهرتها بما يبطن فيّ، شيء من حديد يطبق على فمي كلّما نويت البوح، كم وددت لو أقول لها كلمة واحدة ثم لأصمت إلى الأبد، كلمة فيها نجاتي، ثم لتنقلب كلّ الدنيا بعدها رأساً على عقب.

أحبّك...

هذا المساء، جلست على الكنبة في الخارج في انتظار بقية الأدباء، أشعر بالقمر، أشعر به يمور في خيالي بلونه الفضي، يقولون لونه فضي، إنّما لا أعرف الفرق بين الفضي والأبيض أو حتّى أيّ لون، لا أعرف إلاّ اللون الأسود، فهو اللون الوحيد الذي أعيش فيه.

يتجمّع الكلّ، ندخل إلى الغرفة، وأحس بها تقترب وتجلس جواري، عطرها يفتّني، فتتقاذفني مخاوف، وآمال، ورغبة عارمة في

البوح، إنّها جواري، وأنا غير قادر بأيّ حال على مقاومة هذه الرعشة التي تسري في كلّ أطراف جسدي.

ليتني أراك وليتك تكتشفين ما يدور برأسي! بل يا ليتك لو ترينني كما أراك في داخلي! لتغيّر كلّ شيء، آه لو أمتلك ما يمتلك الآخرون، ما ملأني الأسى، وما تصاعدت سخونة قلبي إلى أنفاسي، قلبي الذي يضرب سواء كنت معي أم لا، والأدرينالين الذي يضخ الدم بقوة حالما وردت على خيالي، آه من عنف المشاعر الذي يختلج بصدري، ولم يخالجني من قبل، ارتعاشة يا "منال" في جميع أوصالي، أنفاسي تتهدّج، ولساني يبغى الجموح، كيف أروّضك يا لساني هذه اللحظة ولو قليلاً؟ إنّما آه لو تنطق الكلمة ثم اذهب كما شئت، كيف آسر هذا الفوران قبل أن ينبثق ويكب عليها؟ أخشى أن أنفضح، فلساني ينازع الخروج، يسري فيه عامود من لهب، يود لو يُفرِغ كلّ حرارة جوفي.

– مالك يا "حمدي"؟

– لا شيء.

ينصرف عنّي الأستاذ "أبو الحسن"، فأعود مرّة أخرى إلى عالمي الذي تعيش فيه "منال" معي بداخل قلبي، كيف ألملم أشلائي؟

– عندي خبر سيسعدكم جميعاً.

صوت الأستاذ "أبو الحسن" يرغمني على الانتباه شيئاً فشيئاً، ويضيف في فرح حقيقي:

– الأسبوع القادم خطوبة "منال" على........

"يتشوشر" مخي، لا يهمني من هو؟ ولا يعنيني أن أعرف أيّة تفاصيل، لا تنظرون نحوي هكذا، أعرف كم أنا مفضوح! لكن شرعية نبض القلوب تأتي من إحساسها، ليأخذ أحدكم بيدي فأنا لا أحتمل بالبقاء، ولا ينسى أن يتناول شظايا قلبي المتفرّقة في أنحاء المكان، ماذا تقول يا "أبو الحسن"؟ وهل تتصوّر أن آبه لما تقول؟ ليست هذه "منال" التي تعيش معي، هناك "منال" أخرى، رسمتها بريشة من ذهب ونور على جدار قلبي، أعرف ملامحها جيداً، وأحفظ شكل ابتسامتها، فأيّ أهمية! "منال" هذه التي تتحدث عنها فتاة أخرى، لا ليست هي من أحب، صدقني، صدقوني جميعاً، وأنتِ يا "منال"، صدقيني، لست أنتِ من أحب، فلا تشعري بالحرج، أنا ذاهب لأقابل من أحب في خيالي.

الأرض تحتي تكلبش على قدميّ، دوامات ودوامات من يأس وجزع تسيطر على استقرار عقلي، كان مقهى "سوسو" أبعد –هذه اللحظة– من مجرّد التفكير، إنّما كان ما يجرجر ساقيّ إلى هناك هو

شعور ملح بأنّني لابد سأجد من يحلّ لساني من ورطته، كان الكلام –ولو هباءً– هو مرادي، سوف أتكلّم، لن أصمت مرّة ثانية، سأفصح لكلّ الناس عن حبيبتي التي تقطن في الجوار، ويغدو لها قلبي كل مساء، ويعود لي مرتجفاً من حلاوة لقائها، سأتنفس هواءً يحمل لوعتي، وحرقتي، وكلّ مشاعري، غير أنّ الهواء هذه الساعة هو الذي جعل أقدامي تتحجّر، كان هواء ساخناً، لفح وجهي وأجبرني على التوقف، ولساني يتساءل بلا جدوى: ماذا يحدث؟ الهواء يحمل صهداً غمرني بالعرق، والأقدام من حولي تتسابق هنا وهناك، الصرخات تحوطني، والنيران تأكل النخل والبيوت، أسمع مضغها، قعقعات الرصاص تتناثر حول أذني، الجنون شلّ عقلي، ألسنة النار تلعق وجهي، الأصوات تتداخل، لا أميّز، لا أميّز، هل هذا مجرّد عالم أفضى بي إليه بؤس حالي؟ يا خلق، يا خلق، هل ثمّة أناس يسكنون معي هذا العالم؟ لكن لا أحد يرد عليّ، ماذا يحدث؟ لماذا أشتعل؟

أصوات

هناك، فوق نخلة عالية من النخل الذي يطلّ على "القباوي"، ودون أن يستغرق –كعادته– الوقت في منازعة خوفه والصعود، كان فوقها، لم يكن يضحك، ولم يكن يبكي، كانت الأصوات التي تندفع من بين شفتيه أصوات تختزل في نبرتها الحزن والجنون في آن. لم تكن عيناه تحملان غير ما حملتا دائماً من شرود وبلاهة، بل وجد نفسه وبسرعة غير معهودة، يتشبث ب"قعوف" النخلة ويهرول إلى أعلى

بكلّ ما تختزن يداه من قوة ومن خشية، ويدارى جسده ب"سباطات" البلح الأخضر، التي استحال بطنها الذي يطلّ على "القباوي" متفحّماً في أقلّ من لمح بصره، وكلّ ما فعل أنّه أخذ يعوي، تماماً كجرو هزيل فقد ساقيه أسفل عجلات سيارة رعناء، وهو يتابع ببصره سحب الدخان الطالعة من قلب الكنيسة ومن رءوس "القباوي". لعاب الهول صار خيطاً متدفّقاً ينهال من أعلى النخلة ويصطدم بالأرض وبرءوس الراكضين، الهاربين والمستفسرين، المشتعلة بأجسادهم النار والحاملين جرادل المياه لإطفائها. كان يعلم، كانت رؤياه صادقة ولم يلتفت له أحد، صرخ فيهم: النار.. النار، فلم يستمع رجل منهم وساروا يتهكّمون به، لعلّهم فهموا الآن أنّه ليس بمجنون، ولا أهبل كما يدّعون، إنّه يرى ما لا يرون.

النار، النار التي تهج من فم القرية نحو السماء، لا تكفي ولا حتّى السماء لابتلاعها، النار لا تتبدّد ولو طلعت لأعلى ألف ذراع، يحملها الدخان بين أثوابه الرمادية لتلحس سقف السماء التي كساها اللون الأسود، صرخات النساء مختلطة، هلع الرجال كان أعجب وأعمق من أن يبدو فوق الوجوه فتشابه برود السحن، الملامح لا تشي بشيء سوى هذا الإحساس بالفاجعة، إحساس لم يترجم بعد إلى أجوبة أو انفعالات، فقط إحساس لم يزل راكداً إلى أن تنقشع غيوم المأساة.

وهناك من أعلى، يراقب "بسطاوي" "السبع"، كان رائحاً آتياً وقد بدا كجذوة من غضب، تساءل ما الذي يحدث؟ كانت الإجابة أسرع من تفكيره، فمن بين دروب "القباوي" التي خرج رجالها ونساؤها من مطاردة النيران، ومن بين كتل الدخان التي تسوِّد المشهد، كان "السبع" الفائر يمرق من بين الوجوه التي أفسحت له الطريق مرغمة وفي يده رقبة "ميلاد"، عضلاته نافرة وعزيمته يستأثر بها شرّ مطلق، لم يفرّق بينهما بعض الرجال الذين انغرسوا في الوسط، بل أنّ هؤلاء الرجال كانوا سرعان ما يتشتّتون عندما يلمع نصل السيف وهو يسقط على جسد "ميلاد"، ويرش الأجساد بدمائه، ودهشة تشل الأمخاخ، وخدر يكتنف العقول، وجسد "ميلاد" يتكوّم تحت جسد "السبع" الذي لا يخشى "رهج" النار ولا انكتام أنفاسه بسطوة الدخان، تكالب بيديه وغضبه فوق جسد "ميلاد" فاختفى بين كثافة الغضب والدخان، ينزل فوق جسمه بالسيف، فتنزلق الدماء لتتسرّب في لون الدخان الرمادي، وتصبغه، يتجمّع الناس لا يصدّقون أنّ ما يحدث قد حدث بالفعل، وأن عمدتهم وكبيرهم آت بصحبة خفره والبندقية في يده مشتعل الملامح وأحمر العينين، يطيح بأجسامهم ويخترق الجموع المغادرة الفزعة، ويصيح بولده الذي لا يعي ولا يستمع ولا يتوقف عن سلخ جسد "ميلاد":

- كفاية.

"السبع" يجزّ على أسنانه ولا يكتفي، و"أبونا لوقا" في جزع وفي غير تفكير يسلّم جسمه للمعركة، بدا يقبل كلّ احتمالات الإصابة أو الهوان في سبيل إزاحة "السبع" عن "ميلاد"، و"ميلاد" بسكرة مفاجئة يشب، ثم يشق وجه "السبع" بسيف ما، لا يعرف كيف توفّر ليده، يحمله الخفر بعيداً عن جسد "السبع" حين تنفجر الدماء، فينفجر الغيظ معها، وتتصلب فوّهات البنادق ويطير الرصاص كما يطير الدخان، ويفلق قلب السماء المعتركة بالنار والغيم ليتلاشى بعيداً، غير أنّ "ميلاد"، وبقوة لا إرادية، بل بما يشبه المعجزة، يتخلّص من كلّ السواعد، والدماء، والآلام، ويفلت منهم، يقفز إلى ثنايا مياه النهر الملتهبة بؤساً، فتبتلعه، وتبقى على الضفّة النيران، والأجساد الفائرة، والتساؤلات المرتعدة.

فرّ "ميلاد" من نار تحش قلوب "القباوي" إلى مياه تندفع هاربة نحو الشمال في هلع، تجزّ القرية على أسنانها في غضب، وغيظ،، وفي جنون، هناك.. هناك فوق وجوه "القباوي" يرتسم الجحيم الذي بدا أنّه لا يستوعبه أحد، ولن ينجو منه أحد، الجحيم الذي ينطلق في دفعات إلى سطح الكون الذي يحتضن القرية، يتسلّق الجدران والنخل والرءوس، يجري الدمار يمسح الأفق والأفئدة، على الزروع والأشجار والبيوت، يعدو مسرعاً إلى جوف الدير الذي لم تستطع جحافل النمل ولا الأعمار التي جرت أن تزلزله، تفح جدران الكنيسة في فزع، وهي تقعقع، تتساقط قطرات النار فوق الوجوه والأجسام تحفر عليها فورة غضب لم تكن من قبل، فاللحظة التي

طارت فيها النيران تأكل ما شاءت بالتأكيد وليدة غضب لم يكن في الحسبان.

"علوان" الوحيد الذي رصد جسد "بسطاوي" من تحت، "علوان" كان يتطوّح، رغم الصاعقة، والغرابة، والإفاقة، إنّما ما زال يتطوّح، يروح جسمه لآخر الطريق ويعود لأوله ولا يبدو أنّه يكترث للصورة المشتعلة، غير أنّه كلّما يتطوّح يمنة ويسرة كلما يقترب من مأرب استقرّ في نفسه منذ زمن، وذلّلته له الأقدار مصادفة، وربما نظرته لأعلى –هذه التي قبضت على "بسطاوي"– لم تكن غيبة ولا مصادفة، إذ لعلّها كانت مجرّد تأمين لما بطن في نيته، ربما ليتيقّن أنّ أحداً لن ينتبه لما سيقدم عليه. قدماه تدنوان من "حمزة"، وساعده الذي بدا خاملاً يرتفع قليلاً قليلاً لأعلى، فتبرز البندقية التي وقع بصرها على "حمزة" تستهدفه وسط هذا الجنون، والنيران تأكل ما تبقى من نخل "القباوي"، وبيوت "القباوي"، تأكل الكنيسة في نهم، تتمطّى على المدى لتسرح نحو بقية بيوت القرية، وتستشري وتتطاول لتحتضن رقعة القرية بألسنتها، تخرج إلى عنان السماء بغير رحمة ولا هوادة، وتصفر، وتتجشأ، وتصرخ، تقلقل الصليب النحاسي الضخم الذي يرعش العيون بتلألئه في تعامد الشمس وسط النهار، لينحني شيئاً فشيئاً كأنّه يهرم، فيبدو من وراءه النور الذي ميزّه "بسطاوي" في معمعة النيران والدخان، نور وكأنّما كرة بلورية تسبح في الهواء، فيطلّ وجه الشيخ "أبو القمصان" منتفخاً من الذهول، تتقاطر دموعه أمام عين "بسطاوي" الشريدة، ولا يمكنه من عالمه الآخر ولو حتّى

مدّ يد العون لرجل، يشير إلى "بسطاوي": تحت.. تحت. "بسطاوي" الذي ضاع للحظات في جلال النور فجأة فزع ونظر تحت، كانت البندقية الممسوكة في يد "علوان" تتحفّز أكثر، وتثبت أكثر، وتحدّد هدفها أكثر، فوثب، سقط على جسد "علوان" ليتمرّغا في التراب، ويتدحرجا وسط أحد البيوت المتأجّجة، لكنّه مع سقطته، أطاح بجسد "حمدي" الذي راح يبحث بلا هدى ولا معين عن مخرج، كان يضرب حوله وهو يصيح ويصيح، الآن شعر بأنّه ليس أقلّ من كلّ هؤلاء الذين يكشفون بمصابيح أعينهم ظلمة الحياة، عينه اليائسة كم تود لو تختلس من نور العالم ومضة يطلّ بها الآن على هذا الذي يحدث! بكى، بكى من العجز والخوف وعدم الفهم، لا تستشعر يداه أيّ جدار أو عامود أو نخلة، كان تائهاً، وزخم الأصوات والوجوه يعتمل بداخله، روحه حبستها متاهة من الضجيج والخبل والضياع، أُغرق في معاناته أكثر، ولا يتحرّك بجسده أكثر من محيط دائرة قطرها عدة أمتار، كم يخشى من النار ومن الدهس ومن الليل! لماذا جاء الليل؟ بل كيف جاء محمّلاً بكلّ هذه المصائب؟ أضجيج هذا الذي يرجرج كلّ خلايا مخه أم صخب القلب الذي ساح بلا نهاية؟ هل يفقد الوعي! نفس الدوامة تحيط برأسه، لا يميّز في هذا الجنون ما بين صرخة وأخرى، كلّها صرخات تتعاظم في جوفه وتفقده الوعي، يدعو ربّه أن يهبه القدرة على الصمود، وهو يبدو كبندول فقد السيطرة على حركته، ثم سقط عليه جسد "بسطاوي" من السماء، في لحظات كان جسمه يلعق كلّ تراب الطريق المنحدر نحو مدخل الدير، وفي لحظة معتمة، كان الصليب النحاسي الذي لم يعد يرعش ولم تعد به

حياة يهوي من فوق، ويعانق جسم "حمدي"، الذي يكح كحّة طويلة واحدة.. أخيرة.

كان المساء، ولم يكن أيّ شيء قد انتهى بعد في القرية، إلاّ شيئاً واحداً صغيراً، كان قد انتهى تماماً.

إن كانت الدنيا
متاهتم.. فالآخرة التي هي
متاهتنا.. مستقرهم.

المطر يغسل الزمن.. الذنوب.. الخطايا. المطر يزور القرية ضيفاً غريباً ويمضي، بينما يترك قطراته فوق الوجوه والخضار.. وفوق

السكك. مع انبلاج الليل، وقد أوشك النهار على الطلوع، والساعات تناضل المسير، كانت حبّات المطر القليلة التي أرسلتها السماء قد أطفأت ما أشعله شيطان الأمس. كوّر الشيخ "إبراهيم" بين كفّيه رأسه، وغرس ركبتيه في صدره، كم يشعر الآن أنّه يشبه أم "جودة" كثيراً، فروحه تطوف على بساط الحياة، لا هي مبتدئة ولا هي منتهية، تماماً مثلها، ترجو مساعدة القدر، ودموع تنساب من عينيه بلا إرادة فتسحبها شفتاه، هموم العالم بأسرها كأنّما جثمت فوق ضلوعه، وصوت الناس يحوم حوله بحزن.

كان الشيخ "إبراهيم" قد أنفق صبره فلم يحتمل، وهو يرى قافلة من البشر قادمة من بعيد تمزّق ستار السماء الفضي، وتدنو حاملة أنفاس الموت، وعلى متنها جسد ابنه "حمدي"، وأجساد أخرى، لم يعنه كم عددها وما الذي جرى ففتك بها؟ كانت مجرد أجساد تدخل الجبّانة في صمت مع جسد "حمدي".

لم تكن العقول قد فرغت بعد من هول الصدمة، لذا فقد انقطّع العويل هذه الليلة، وبدت الحياة كأنّها مزحة عظيمة، كم فقدت القرية هذا المساء؟ وكم فقدوا؟ تدخل الأكفان الجبّانة، ومن خلفها يحوم محتوياً صفحة الأفق بجناحيه المظلمين.. عزرائيل.

رفقاً يا رب العالمين، هل كنت هنا يا عزرائيل من أجله؟ وأنا الأخرق خلت أنّك جئت لأجلي! كيف أرادك عزرائيل يا بني أن

تكون مشيئة القدر فيما سلبت يداه من تركة الأرض؟ كيف لوّث يديه بطهارة جسدك؟ ثمرة مستباحة أنت وبراءة يوماً لن تلد الأرض مثلها، عزرائيل يريد ما يبعد كثيراً عن معنى الوجوب، في قرية الموتى بها أحياء، والأحياء موتى، أو غالباً فيها يتماهى الخطّ الفاصل بين النقيضين.

الجلال السرمدي يبتسم بينما ظلمة تتكدّس في قلب الشيخ ولا يرى للنجاة طريقاً، يحدج –في انفعال– عزرائيل الواقف قبالته متشفيّاً، نظرته إليه لم تكن تحمل أية رهبة، كانت تحمل فقط، رغم إيمانه الشديد وتسليمه المطلق بما قُدّر، رغم يقينه بأنّه لا يعدو أكثر من كونه أداة لمشيئة أكبر، إلا أنّها حملت شيئاً من سخط ومن نقم ومن عتاب.

تحنّط، دنا منه جسد ابنه فراحت أنامله ترتعش مهابة، عيناه تنهمر منهما الدموع كانهمار مطر من السماء، شفتاه تسكبان لعاباً غزيراً بلا توقف أو إدراك، حمل الناس الجثمان على أكتافهم فلم يقو، والبعض يسند جسمه الواهن الكهل.

يا لوعتي! ابني يدنو جثة، مجرد جثة وديعة.

حطّ على الأرض هامد الحيل معدوم القوى، هم يقتربون به منه، يشّهدون ويتلون آيات من القرآن، يهتز بدنه وترتعد أوصاله وكأنّ الوقت لا يمشي، كأنّ ما يحدث كابوس مرعب فحسب.

– شد حيلك.

– البقاء لله.

– ربنا يصبرك.

فجأة، وفي لحظة قاسية من خلل، من فرط عذاب ومعاناة لم يأتيا قبلاً، طوّح بساعده أكفّهم وأياديهم التي تربت على كتفه، من تواسون يا جهلة! "حمدي" ابني لم يمت.

يرتعش.. كأنّه ورقة خريفية استسلمت للريح، إنّه ينتظر، هذا الإحساس بداخله يعصف بكلّ نبرة تهتف فيه ها هي الحقيقة فامتثل، الأفواه من حوله تتبعثَّر تساؤلاتها الموجعة ماذا ينتظر؟ لكنّه ينتظر.

غير أنّ الدقائقُ المملّة البطيئة كبطء الحياة عينها تفوت و"حمدي" قابع برقدته أمامه بلا حراك، ساكن كسكون الأمل، أزرق الوجه كصفحة سماء بكر رغم خطوط الاحتراق التي مضت من فوقه بلا

رادع، تحمل شفتاه تلك الابتسامة الساكنة المريبة التي تجعله يتساءل: ما بك يا "حمدي"؟! هل طابت لك تلك الحياة الأخرى يا ولدي؟

بعد حرقة، صوبه تحرّك، نحو جثمانه راح يزحف زحف العطشى لجرعة ماء، ينتظر الناس دفن أجسام الضحايا بلوعة، فينتظر لقياه بيأس، ينتظرون صباح جديد، فينتظر رحمة من الله، ويحه! كم صعب هذا اللقاء! أما أمهلتني يا زمن مخادع ولو لحظة لأضمّه إلى صدري تلك الضمة الأخيرة ثم افعل به ما شئت! بالله لن أحول دون وقوع قضاء نافذ! من يفعل! إنّما امنحني فقط تلك اللحظة.

الأفواه تحثّه أن يودّعه ويصبر..

اقترب من جثمانه، تأبّطه ولثمه، وكالذبيحة طفق ينهنه، من لي غيرك يا ولدي.. من لي؟

بدأت القافلة محمّلة به تتجه ناحية الفسقية وعيناه تتبعانها في جزع، أكتاف الرجال تتمايل مبتعدة عنه ببطء تمخر قلب الجبّانة، ثم راوده هذا الإحساس.. انقبض قلبه فاختلج صدره وجلاً، جثا بركبتيه على الأرض ساجداً غير مدرك، أغرقت عبراته الثرى أسفل جبينه وهو يركع داعياً الله الصبر من بعد ابنه، كان العالم يتلاشى ببطء من تحت قدميه، لكنه، بعزم من إيمان، شبّ، استقام فوق ساقيه، زعق:

- ابعدوا.

صمّم أن يدفن ابنه، أن يكون آخر عين تقع على مرقده، ومن حوله الفسقيات في انتظار مريديها، تعكّز على بعضهم ومضى صوب قبره، الناس ينظرون بدهشة إليه، يتفحّص وجوههم المتسائلة الداعية له أن يتنحّى عن القيام بدوره اليوم فقط، ينظر إلى السماء، يتنهّد، السماء كانت تبتسم، فابتسم بمرارة، نظر الخلق إلى بعضهم البعض، الشيخ "إبراهيم" أصابه مسّ، الشيخ "إبراهيم"، المحملق في السماء، الحائل جسده بينهم وبين طريق المثوى، الواقف هناك على مدخل القبر شامخ الجسد، منتصباً كفتى في العشرين انتصابة مباغتة، ماذا يرى فيدفعه لمناغاة الأفق بهذا الشكل كطفل صغير يداعب أمّه؟

- يا شيخ ارتاح أنت، ربنا يكون في عونك.

- سأدفنه.

- يا شيخ "إبراهيم"....

بإشارة من يده، قاطعهم، لم يعد هذا شأن أحد فيهم، لن يحمل جسد ابنه سواه، رفع بحزم وصرامة ساعده، فتعثّر الرجاء على شفاه الجميع، مدّ ذراعيه إليهم يدعوهم مناولته جثمان "حمدي"، لكنّهم

تردّدوا، ومضوا يتبادلون نظرات الرأفة والمواساة، ولم يناولونه إلاّ حين رشقهم بنظرة آمرة غير مستخفة.

تناول الجثمان، وبرفق، برفق شديد، كأنّما يخشى عليه من الارتطام، وضعه داخل الفجوة المظلمة، ثم غاص وراءه.

السكون الذي تسلّل وأعقب نزول الشيخ "إبراهيم" خلف ولده سريعاً ما لاذ بالفرار، فقد سمعوا نهنهة، تندفع بقوة من مصدرها الكائن أمام أعينهم وهو هذه البؤرة التي دخل فيها الاثنان، الشيخ وابنه.

ثم ولو تراجع البعض، ولو حتّى كانت النهنهة غير عادية، يختلط فيها صوت الشيخ بأصوات أخرى، إلا أنّهم انتظروا قليلاً، لعلّ الأمر فيه ما لا يرتبط سوى بواحد مثل الشيخ "إبراهيم" يعيش بين القبور، عالمه الجبّانة.

ولكن السكون لا يجرحه غير هذه الأصوات، أصوات واضحة، متباينة، لكنها مفزعة. شعر الجميع بهذا الانقباض، رءوسهم تاهت عن التركيز فيما رجّحوا أنّه يحدث الآن بالداخل، لكن الذهول لاح من العيون، الاستغراب، وقد يكون أيضاً ما وثب من أعينهم هذه اللحظة التي دار فيها بوضوح شديد حوار –لم يمعنوا في تفسير فحواه ولا دقّقوا في فهم كلماته– بين الشيخ "إبراهيم" وآخرين، صحيح لم

يروهم يدخلون معه، ولا يعرفون إن كانوا أحياء أم..! إلا أنّ الجدل قد سُمع بيقين الجمع، ودون خرف، أو توّهم، هذا الجدل الذي قد يكون.. هلعاً، وثب من أعينهم جميعاً.

مرّ وقت، ثم الشمس جعلت تمتد من وراء ظهورهم بفضول، تحاول الترويح عن نفسها قليلاً من ملل الرقاد داخل بطن سماء مجهولة، بمشاهدة حدث من أحداث الأرض، مجرّد حدث، وهم متسمّرون أمام فوّهة العالم الآخر، ينتظرون خروج الشيخ من داخل هذا الجحر المهيب، دقائق مرّت ولم يخرج، ثم اتسعت أعينهم، ومضوا يستفهمون المنطق عمّا يكون قد دفع الشيخ "إبراهيم"، وما الذي رآه، فتبرز يده المعروقة، يده فحسب، من داخل الهوة المفتوحة، متشنّجة، تخمش عروقها ثرى الأرض مرتعدة، تسحب التراب والطوب كله، تغلق به المدخل، على ابنه وعليه، وتختفي، وهم.. واقفون جميعاً في شلل، لا يبرحون أماكنهم، ولا يبدون اعتراضاً، ولِمَ الاعتراض! إنّهم ينتظرون، بشكل هستيري، خروج الشيخ "إبراهيم" إليهم مرّة أخرى، من داخل الحفرة المبهمة، ربما يضحك، ربما يبكي، ربما يقفز، ربما يخرج محلّقاً بجناحين كالملائكة، أغلب الظن ينازع بالداخل فيصعد بابنه الوحيد، من يدري؟ لكن إلى متى سيطول هذا الانتظار! بعضهم يكاد يجزم أن الشيخ "إبراهيم" قد خرج بالفعل، وقد رآه بوضوح، ملوّحاً بيديه من آخر حدود البصر، ومن عند آخر الجبّانة، مبتسماً، بوجهه الساطع المريح ولحيته البيضاء وردائه الفضفاض، لعلّه...

- وهل قال لك ما
الذي ينقذ هذه الأرواح؟
- نعم.. قال الحب.

من رواية "نقطة النور"
(بهاء طاهر)

صوت

أرضنا البكر تطاول عليها الزمن، فضّ –بلا مقدمات– براءة كلّ الأشياء الجميلة التي ساورتها ذي قبل، ترنو صوب الآتي بحزن يداخله أمل واهن، يطلق الرحيل صفّارته، ويلوّح الأمل بمصباح أوشك على الانطفاء: هنا، ها هنا، ارفعي وجهك قليلاً وقد أنتظر. يتحرّك الكون ويبدأ عالمنا في الابتعاد عن مساره. اختفى من قريتنا الحلم، كأنّ الحلم لم يكن يوماً. كانت أسنّة عيدان الذرة وأعواد القصب مسجّاة في وجه شمس الظهيرة التي تطلّ على القرية في إكبار

وإجلال، صوت الشيخ "عوض الله" كعادته –دون حشرجة أو اهتزاز– يسترسل ليفرش داخل آذان الخلق نداء الظهر.

(الله أكبر.. الله أكبر)

انحناءة طفيفة كانت قد قوّست ظهر العمدة "حمزة" وهو يدلف إلى المسجد والمسبحة في يده، يُفسح له البعض الطريق، عيناه مرغمتان على التشبّث بالأرض، وقدماه –في مشقّة– تجدان لها موضعاً بين الأقدام، يتقدّم ليصلّي في الصف الأول خلف الشيخ "عوض الله"، يهرول له أحدهم بمقعد خشبي ليجلس عليه، لم يعد قادراً على تحمّل مشقة السجود والركوعِ بعد مرض هشاشة العظام، وكان المسجد عامراً بالناس، وجوه غريبة لها أشهر في القرية.. عمّال ومهندسون وأنفار ومقاولون، يستكملون بناء الكوبري الجديد الذي تقيمه الحكومة.

* * *

الرمل الأصفر الباهت دخل القرية، مرشوش في شوارعها وفي قلوب الخلق، الأنفار المكسوّة وجوههم بطبقات غليظة من غبار يحملون على أكتافهم قصعات الأسمنت، وأفواههم تغنّي ببهجة:

– يا مهوّن هوّنها..

التراب الذي يتطاير تحت أقدامهم ترك فوق وجوههم لونه الأغبر، والحر هذا الصيف جعل الطريق الأسفلتي أمام أعينهم يمتلئ بسراب متراقص، ورغم الحر.. إلا أنّهم يصعدون وينزلون، يضحكون، ويتندّرون، يعبرون فوق المجرى بأقدام عفيّة نشيطة على "سقالات" من الخشب والعرق ينزّ من أجسادهم ويتساقط قطرات فوق مياه المجرى، يختلط بالماء الأخضر الهادئ، ويجري معه ببطء نحو شمال القرية، وببطء يلهو الشيخ "بسطاوي" بين السيارات التي تروح وتجيء وتكب دخانها على الملاحظين الجالسين على كراس من الجريد، وهم يراقبونه وهو يندفع راكضاً خلف سيارة كاد سائقها أن يخبطه، كان ممسكاً بضعة أكواب زجاجية فارغة جرع أصحابها شاي الظهيرة، ولمّا يئس من اللحاق بها، جلس على أحد الكراسي، بعد أن بصق بصقة مليئة بالغضب خلف السائق، وهو يصيح:

– "إن الناكة"...

اللعاب يتناثر على وجوه بعض الملاحظين، فيزيلونه بأكمام أثوابهم ويرمقون "بسطاوي" والابتسامة تعلو وجوههم، أشار أحدهم له:

– اقعد يا مولانا.

"بسطاوي" عقد حاجبيه ورمقه بحنق، تمتم تمتمات خافتة ثم عدا مهرولاً إلى الناحية الأخرى من القرية فوق الكوبري الذي لم يجف الأسمنت من عليه بعد. غاصت قدماه في الأسمنت، وساقاه تجرفان لطع الأسمنت اللينة وترميها على العمّال والأنفار، وفي زاوية من مقهى "سوسو"، بضع كنبات، وركية نار مشتعلة، والعمدة جالس على إحداها مُغرق في ضحك مشروخ.

– اللهم اجعله خيراً.. لكن قل لي يا "باشمهندس".. متى سينتهي إتمام البناء بإذن الله؟

– قريباً يا عمدة.

وراح يبحث بعينيه عن "سوسو"، الذي كان منهمكاً في تحضير أكواب الشاي وفناجيل البن والشّيش، لوّح له من بعيد فهرع نحوه:

– أوامرك يا عمدة.

– أرسل كوب شاي لـ"أبونا لوقا" مع "بسطاوي"..

كان الأب "لوقا" واقفاً على ضفّة المجرى، يتابع العمل الذي يجري على قدم وساق، تناول بعد قليل كوب الشاي من "بسطاوي" ثم التفت إلى العمدة ونظر له بامتنان نظرة طويلة عميقة مبتسماً ابتسامة

رصينة، كأنّه يقول: دعنا من ذكريات الأمس المرير. بعدها دار بعينيه حوله يتفقّد ملامح القرية الجديدة، كانت تسبح في اعتزاز مكسور، وقرص الشمس الذهبي –الساطع سطوعاً محبّباً يقبع بقلب السماء المتزيّنة بسحب خفيفة متناثرة– بدا مجروحاً. كان مفعماً بالتساؤل وهو يمعن في تأمّل القرية: هل أنتِ بخير؟ الأصوات حوله والثرثرة والحركة تزداد، ولم يزل يتساءل: يا له من قدر! هل تقدر الرمال الجديدة والبناءات المتتالية والوجه المغاير على إخفاء الأسرار القديمة؟ يا له من قدر! لا يوجد تاريخ قد يغفل ما جرى لكِ أيّتها المسكينة، سمعنا كلّنا تأوّهاتك ولم نسعفك، لم يكن ثمّة معنى لما حدث، هل تستطيعين إخفاء هذا الجزء المشوّه من جسدكِ والذي تمّ انتهاكه؟ أيّ ظن! كلّ الوجوه طالتها الندوب، ليس من رجل لم تصبه عاهة، سواء في جسده أو في روحه، من يهوّن عليكِ وعلينا الأمر؟ من؟

كانت رياح خفيفة قد مضت تعبث في لحية الأب "لوقا" المرتاحة فوق صدر لباسه الكهنوتي الأسود، وبدا وهو واقف كعلامة استفهام مقدودة من طين الضفّة الرخو، علامة تتمعّن في المدى القريب بحيرة، وكان صراخ طفل وليد يجيء مسترسلاً من جهة القباوي، يشق –رغم خفوته– ملكوت الصمت الذي بدا كامناً في الأجواء كأنّما لن يتبدّد، أخذ الأب "لوقا" يشد لحيته إلى الأمام في نشوة ترجمتها بسمة مهذّبة فوق شفتيه، أراح صدره بزفرة طويلة بعدها مضى ببصره يراقب "بسطاوي"، كان فاتحاً فمه فتحة واسعة، رافعاً رأسه إلى السماء، يهرول بفرحة وبلوثة خلف هاجس بعيد لا يراه سواه، كان يصرخ:

"آومصان.. آومصان". رآه يمتطي "فرسة" "توفيق" بك، ويلوّح له بيده. هو هناك حقّاً يطير بها نحو قرص الشمس فيحجبه، هناك وينظر للجميع من فوق، كما لو يقول: قامات النخيل التي تحرسكم قد عبثت بها يد الحكومة، وأنا حارسكم منذ اليوم. تتدلّل الفرسة، ويعدو "بسطاوي" نحو البعيد أكثر، والشيخ "أبو القمصان" يغيب بعيداً في السماء أمام عين "بسطاوي". كان صوت خفق أجنحة "الفرسة" باقياً داخل أذنيه، يسحب روحه، يهدهد صفحة ماء المجرى، والوجوه إيّاها، ويبعث داخل فؤاد القرية نبضاً وليداً.

تمّت بحمد الله

الأقصر –

مارس 2012

صدر للكاتب:

جلباب النبي (مجموعة قصصية) دار وعد للنشر والتوزيع.

باب العبد (رواية) دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة.

متاهة الأولياء (رواية) دار الأدهم للنشر والتوزيع.

الجوائز:

جائزة الشارقة للإبداع العربي في الرواية 2012

جائزة إحسان عبد القدّوس في القصة القصيرة 2011

تحت الطبع:

خبيئة ذاك (رواية)

الطيبيون (رواية)

تابوت أوميجا (مسرحية)

عرائس شتوية (قصص)

للآلهة كلمة أخرى (رواية)

حواش:

(1) (متى 15/ 6:14).
(2) (سورة الأنعام_ آية 160).
(3) (متى 18:21).
(4) (الخروج 1 : 15).
(5) (الخروج 6 : 15).
(6) (الخروج 25 : 15).
(7) (إرميا 5 : 42).
(8) (زكريا 6 : 14).
(9) (لوقا 24:34).
(10) (التكوين 1 : 5).
(11) (المزامير 1 : 32).
(12) (من كتاب مدح مأثور).
(13) (سورة الحج_ آية 3).
(14) (كولوسي 3:13).
(15) (أفسس 4:32).